أوجست موليراس

Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

ⵍⵎⴻⵖⵔⵉⴱ ⵉⵅ ⴻⵔⵜⵡⴰⵙⵍⴻⵏ

ⵜⵉⴼⵉⵏ ⴰⵔⵉⴼ

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

2007

منشورات تيفراز 2

أوجست موليراس
Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشـــاف الريـــف

ⵍⵎⵓⵖⵔⵉⴱ ⵉⵅ ⵓⵛⵜⵡⴰⵙⵍⵓⵏ
ⵜⵉⵣⵉⵏⴰⵔⵉⵣ

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

2007

منشـــورات [logo] 2

الكتاب: المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف.
المؤلف: أوجست موليبراس Auguste MOULIERAS
المترجم: عز الدين الخطابي
رقم الإيداع القانوني: 2007 / 0519
منشورات: تفراز ن اء ريف
الطبعة: 2007
المطبعة: دار النجاح الجديدة

الإهـــداء

إلى زوجتي الريفية الأصيلة،

وإلى أبنائنا.

إلى كل مدافع عن قيم التعدد والاختلاف.

إلى روح المقاومين الشرفاء،

وإلى المناضلين من أجل خير هذا الوطن من الأحياء.

عز الدين الخطابي



LE MAROC INCONNU

22 ans d'explorations dans cette contrée mystérieuse, de 1872 à 1893.
IMPORTANTES RÉVÉLATIONS de voyageurs musulmans sur le pays, les habitants, les mœurs, coutumes, usages ; industries commerciales, agricoles, manufacturières ; richesses minérales, forestières, pastorales ; population, forces militaires, administration, langues, races, etc.

PAR

Auguste MOULIÉRAS

Professeur à la Chaire de Langue et de Littérature arabes à Oran
Ancien Interprète titulaire de l'Armée française et du Gouvernement Général de l'Algérie
Ancien Professeur d'arabe aux Lycées de Constantine et d'Oran
Auteur de plusieurs Ouvrages relatifs aux Langues arabe et berbère

« Le Maroc, pays africain incomparable,
« qui sera un jour, espérons-le, le plus beau
« fleuron de la couronne coloniale de la France! »

(V. p. 31).

PREMIÈRE PARTIE

EXPLORATION DU RIF (Maroc Septentrional)

Avec Cartes inédites du Rif et de chaque Tribu (hors texte) $\frac{1}{250,000}$

En dépôt à Paris à la *Librairie Coloniale et Africaine,* JOSEPH ANDRÉ, rue Bonaparte, 27

DÉCEMBRE 1895

مقدمـــــة المترجـــم

مفارقات الخطاب الإثنوغرافي

وأنا أترجم هذا الكتاب الممتع والمتميز، تبادرت إلى ذهني أسئلة عديدة، ستختمر وتنضج مع توغلي صحبة المؤلف، في غابات ووديان وجبال وقبائل الريف، لتتبلور بشكل واضح مع نهاية آخر سطر من هذا الكتاب. ويمكن صياغة هذه الأسئلة كما يلي:

- ما هي الأهمية التي يكتسيها الآن، عمل إثنوغرافي أنجز حول منطقة الريف في أواخر القرن التاسع عشر؟ -

- ما هو الموقع الذي يحتله هذا العمل بين " الموضوعية العلمية "و" التبرير الإيديولوجي والسياسي " للاستعمار وتحديدا الاستعمار الفرنسي؟

- أين تتجلى مفارقات الخطاب الاثنوغرافي لمولييراس حول الريف وأهله؟ وما هي الدروس المستخلصة من هذا الخطاب؟

1- مدى أهمية هذا العمل الإثنوغرافي

يندرج مؤلف أوجست مولييراس الصادر بوهران سنة 1895، والذي اختار له عنوانا رئيسيا هو " **المغرب المجهول** "، وعنوانا فرعيا هو " **اكتشاف الريف** "، ضمن الاهتمام الذي أولته أوروبا للمغرب. وهو الاهتمام الذي يمكن أن نموقعه عبر ثلاثة مستويات: سياسية واقتصادية وثقافية.

على المستوى السياسي: كان لهزيمتي المغرب في معركة إيسلي ضد فرنسا سنة 1844 وفي تطوان ضد اسبانيا سنة 1860، أثرهما في تسريع وتيرة اهتمام الباحثين الأوروبيين بالمجتمع المغربي الذي كان يكتسي في مخيلتهم طابعا غرائبيا. هكذا تعددت البعثات والرحلات إلى المغرب وظهرت في هذا الإطار أسماء وازنة في مجال الإثنوغرافيا والجغرافيا والعلوم القانونية والسياسية، ساهمت عبر مراسلاتها وملاحظاتها الإدارية ومقالاتها وكتبها، في تقديم صورة عن بلدنا، ليس الهدف منها فقط هو إشباع فضول القارئ العادي، بل أيضا وأساسا، تقديم معلومات حيوية لأصحاب القرار السياسي والعسكري في أوروبا، في مرحلة التوسع الاستعماري

لهذه الأخيرة. ومن بين هذه الأسماء نذكر: دو مكنزي De Mackenzie (انجلترا، 1871 _ 1872)، لانز Lenz (ألمانيا، 1879 – 1880)، بنيتيث benitez (إسبانيا، 1872 _ 1880)، شارل دو فوكو Ch. De Foucauld (فرنسا، 1883 – 1884).

على المستوى الاقتصادي: إن الاتفاقيات التجارية التي تمت بين المغرب وبعض البلدان الأوروبية في القرن التاسع عشر – كما هو الشأن مع انجلترا سنة 1856مثلا – سمحت بانفتاح الأسواق المغربية على التجارة الرأسمالية ومهدت لظاهرة الحماية القنصلية. وبذلك اشتدت المنافسة بين الأوروبيين وتعددت بعثاتهم ورحلات مكتشفيهم، لترسخ تواجدهم بهذا البلد. هكذا سيتواجد بهذا الأخير نوعان من الاستثمار:

– استثمار اقتصادي ذو خلفية سياسية، تروم بالأساس، استغلال خيرات بلدنا.

– استثمار على مستوى المخيلة، يقدم أحكاما وتصورات حول المجتمع المغربي، مطبوعة بالنزعة الغرائبية exotisme وبمركزيتها الغربية.[1]

على المستوى الثقافي: كان لتطور حقل الاستشراق والعلوم الاجتماعية أثره في صياغة وبلورة صورة خاصة عن الأخر (الشرق)، ظلت خاضعة لمجموعة من المرتكزات، يمكن تلخيصها في ما يلي:

- تصورها الميتافيزيقي لثقافات الأخر.
- ارتباطها الكلي أو الجزئي بالسياسة الاستعمارية.
- نكهتها الشرقية.

وهذا ما أكد عليه المفكر الفلسطيني الراحل، إدوارد سعيد، حينما اعتبر بأن الشرق **« يعاين بوصفه شيئا وجوده معروف دائما للغرب، وبوصفه أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان والمكان من أجل الغرب. لقد كانت نجاحات الاستشراق الوصفية والنصية من الضخامة والتأثير، بحيث أن مراحل كاملة من تاريخ الشرق الثقافي والسياسي والاجتماعي، تعتبر الآن**

[1] - **M. Alaoui Belrhiti**, *F ès lieu d'écriture*, Ed. Afrique Orient, casablanca, 1988, pp. 12 - 13.

مجرد استجابات للغرب. فالغرب هو المشهد والحكم والمحللون، لكل وجه من أوجه سلوك الشرق.»[2]

ورغم التغيرات الطارئة على مناهج الغربيين واستفادتهم من معطيات العلوم الاجتماعية (إثنوغرافيا، إثنولوجيا، تاريخ اقتصادي، إلخ...)، فإن هذا الفائض المعرفي سيتم استثماره في إطار " المنظومة المرجعية الغربية " التي تعتبر كمعيار كوني للحكم، وبالتالي سيظل الآخر (أي نحن)، خاضعا لهذا النموذج الغربي الأمثل الذي تشكل نزعته الذاتية عائقا أمام أي تصور موضوعي لثقافة الآخر.[3]

وفي هذا الإطار، ستشكل الأبحاث والدراسات حول المغرب، مجالا لمراكمة المعلومات حول عادات وتقاليد وسلوكات أهله، من أجل استثمارها السياسي والإيديولوجي فيما بعد. وسيتم ابتداء من سنة 1904، تأسيس ما يعرف بالبعثة العلمية بالمغرب، بتحفيز من الإثنوغرافي الفرنسي ميشو – بيلير Michaux – Bellaire ، وهو ما سيعتبر نقطة انطلاق مؤسساتية للأبحاث حول المغرب ستدعم سياسيا من طرف سلطات الحماية، وتحديدا من طرف ليوطي. وسينتج عن ذلك إصدار " الأرشيفات المغربية " و " مجلة العالم الإسلامي ". وابتداء من سنة 1920 سيظهر أول عدد، من مجلة " هسبريس Hesperis " الذائعة الصيت، التي ستحل محل " الأرشيفات الأمازيغية " التي كانت تصدر عن المدرسة الفرنسية الأمازيغية التي أسست بالرباط سنة 1914.

ومما لا شك فيه، أن هذه " الحركة العلمية "، قد سمحت بمراكمة معلومات وافرة حول العادات والتقاليد المغربية، ليس بالحواضر فقط ولكن أيضا وخصوصا بالبوادي والقرى والمناطق الجبلية التي ستصنف في كثير من الأحيان في خانة " بلاد السيبة "، التي لا تخضع للنظام المخزني. غير أن هذا التراكم المعرفي كان يخضع في مجمله لمقتضيات سياسية استعمارية، مما جعل خطابه ملتبسا ومفارقا. فما هي أوجه هذا الالتباس وهذه المفارقة؟

---

[2] – إدوارد سعيد، *الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء*، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت الطبعة 1 . 1981 ، ص . 132

[3] – عز الدين الخطابي ، "*مكسيم رودنسون والاستشراق*" ، مجلة الثقافة الجديدة، عدد 30 ، السنة السابعة، 1983، ص.102.

2- مفارقات الخطاب الاثنوغرافي:

يمكن تحديد هذه المفارقات عبر ثلاثة مستويات وهي:

- علاقة العلمي بالسياسي
- النظرة التنائية للمجتمع المغربي
- أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإثنولوجيا المغرب.

2- 1: المستوى الأول:

إن أبرز ما يميز الخطاب الإثنوغرافي هو محاولته الجمع بين الصرامة العلمية التي تقتضيها منهجية العلوم الاجتماعية والمصلحة السياسية للوطن الأم (فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، ألمانيا، إلخ...). وهذا التجاور، أو بالأحرى هذا التداخل بين العلم والسياسة، هو الذي يعكس التباس خطاب الباحثين الاجتماعيين الغربيين وصعوبة التزامهم بـــ " الموضوعية العلمية ". وقد سبق للباحث المغربي فوزي هرورو أن أبان عن هذا الالتباس بخصوص أعمال ميشو بيلير والهدف من تأسيس " البعثة العلمية "، حيث تساءل قائلا: « **إذا كان هدف " البعثة العلمية " هو القيام بدراسة موضوعية حول المغرب، تروم معرفة الوقائع من أجل السيطرة عليها؛ وإذا كانت هذه السيطرة تتضمن تبريرات مشروعة، ألن تسقط هذه المؤسسة بالتالي في تناقض لا يمكن تجاوزه على ما يبدو. تناقض يتمثل في محاولة معرفة الواقع بغرض تشويهه، رغبة في استعماله لأغراض خاصة؟»**[4].

2- 2: المستوى الثاني : يعتبر نتاجا لالتباس الخطاب الاثنوغرافي وتأرجحه بين " المطلب العلمي "و" المصلحة الخاصة "، حيث خضع تصور المجتمع المغربي لثنائية قائمة على مجموعة من التقابلات مثل: بلاد المخزن / بلاد السيبة، العرق العربي / العرق الأمازيغي، الشرع / العرف، المجتمع الحضري / المجتمع القروي، الإسلام الرسمي / الاسلام الشعبي، سلطة الجماعة/ سلطة الدولة إلخ... وبدل استثمار هذه التقابلات باعتبارها انعكاسا لغنى الواقع المغربي وتعدديته وتنوع أشكاله الاجتماعية والثقافية، فقد تم التعامل معها بشكل تجزيئي

---

4 - **M.F. Houroro**, *Sociologie politique coloniale au Maroc, cas de Michaux Bellaire*, Ed. Afrique Orient, Casablanca; 1988, pp 23- 24.

واختزالي، حيث تمت معالجة كل مكون من مكونات هذه التقابلات، بمعزل عن الأخر، ولم تحدد العلاقات الظاهرة أو الخفية بين أحكام الشرع وأحكام العرف مثلا، أو بين تدبير الجماعة لشؤون القبيلة والتدبير المخزني لشؤون البلاد، أو بين إسلام الزوايا والمعتقدات التي ترجع إلى عهود سحيقة، والإسلام المذهبي المقنن. وهذا ما دفع الباحث السوسيولوجي الراحل بول باسكون P.Pascon إلى القول: **« بأن أفضل الأعمال اهتمت بالجوانب الجزئية للمجتمع المغربي (...) لذلك فإن هذا الأخير لم يدرس في كليته سوى بطريقة سطحية جدا وغير متكاملة ».**[5]

2- 3: أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإثنولوجيا مغربية:

ومع ذلك، فإن هذه الأبحاث والدراسات الإثنوغرافية والتاريخية والسوسيولوجية والقانونية والجغرافية، تشكل ثروة وثائقية هامة لا غنى عنها لمعرفة الواقع المغربي في إحدى فتراته الأكثر غموضا، ونقصد بذلك الفترة ما قبل الاستعمارية. وتتجلى هذه الأهمية على ثلاثة مستويات على الأقل:

- فهي قد مكنت من استخدام مناهج العلوم الاجتماعية لدراسة وفهم وقائع المجتمع المغربي.

- كما أن الموضوعات الخاضعة للملاحظة والتحليل، كانت متنوعة بشكل كبير وأبانت عن تعدد الثقافات وخصوبتها وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها.

- ومن جهة ثالثة، ساهمت في التمهيد لقيام سوسيولوجيا وانثروبولوجيا تهتمان بالوقائع الاجتماعية بمغرب ما بعد الاستعمار، والتي حمل لواءها باحثون مثل أندري آدم A . Adam ، صاحب العمل الضخم حول الدار البيضاء، وبول باسكون وعبد الكريم خطيبي وعبد الله حمودي، إلخ...

وهذا وجه آخر، لمفارقات الأدبيات الإثنوغرافية. فهي وإن كانت " إرادة المعرفة " لديها تروم خدمة " الإدارة الاستعمارية "، إلا أنها ساهمت، بشكل غير مباشر، في وضع أرضية للنقاش حول طبيعة المجتمع المغربي وأنماط العلاقات بين مكوناته، سواء على المستوى الأفقي (بين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين)، أو على المستوى العمودي (بين هؤلاء وبين المؤرخين وعلماء الاقتصاد والسياسة).

---

[5] - **Paul Pascon**, *Etudes rurales*, S.M.E.R, Rabat, 1980, p.197

لذلك، لا يمكن تجاهل التأثير الذي مارسته هذه الاثنوغرافيا على مسار الأبحاث الاجتماعية، أولا بسبب غنى الأدوات المستعملة من طرف باحثيها والمناهج والطرق التي ابتكروها لدراسة الوقائع (مونوغرافيات، تحقيقات). وثانيا، بفعل الرهانات التي ستطرحها على الفاعلين (السياسيين والاقتصاديين) في مغرب ما بعد الاستقلال. وثالثا، نظرا للتحديات التي ستضعها أمام الباحثين المغاربة، لفحص مفاهيمها وأطروحاتها المتعلقة بالبنيات الاجتماعية والثقافية والسياسية لمغرب ما قبل الاستعمار.

ونتساءل في هذا الإطار: بأي معنى تنطبق هذه الأحكام على عمل موليراس حول الريف؟ أو بصيغة أخرى، أين تكمن مفارقات خطاب هذا الاثنوغرافي والباحث اللغوي؟

3 – التباس ومفارقة الخطاب الاثنوغرافي لموليراس:

إن أول ما يثير انتباه قارئ هذا الكتاب، هو اعتراف موليراس الصريح بأنه لم يطأ أرض الريف أبدا، على عكس الرحالة الاثنوغرافيين الآخرين الذين زاروا المغرب (ماكنزي، دوفوكو مثلا). وهذه أول مفارقة يمكن تلمسها: إذ كيف يمكن تقديم معلومات دقيقة عن عادات وتقاليد وسلوكات شعب ما، دون الاحتكاك به ميدانيا؟ طبعا، إن موليراس سيحاول إقناعنا بأهمية ما قام به، انطلاقا من ثلاث حجج يعتبرها دامغة:

3 – 1: فهو قد اعتمد على مخبر قل نظيره، وهو القبايلي محمد بن الطيب (الملقب بالدرويش) الذي سيتجول في ربوع الريف مدة تفوق العشرين سنة (ما بين 1872 و 1893)، حيث سينقل إلى موليراس كل ما عاينه وعايشه من أحداث ووقائع. وطبعا، فإن هذا القبايلي استطاع أن يوهم أهالي المنطقة بأنه ريفي مثلهم.

3 – 2: ولكي لا يعترض عليه أحد، بكون ما أتى به هذا المخبر، قد يكون عبارة عن روايات لا أساس لها من الصحة، فإن موليراس كان يغتنم فرصة تواجد الريفيين بوهران - للعمل بالفلاحة – للتأكد من صدق أقوال الدرويش، عبر المقارنة بين مختلف الروايات التي يتلقاها .

3 – 3: أما الحجة التي يعتبرها موليراس حاسمة، والتي هي بمثابة تحد لكل متشكك في الأخبار الواردة في مؤلفه، فقد عبر عنها بقوله: « افتحوا هذا الكتاب، وأوقفوا أي ريفي التقيتم

به، متعلما كان أو جاهلا، وقرؤوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته وبالمنطقة التي يعرفها، وسيكون رد فعله بمثابة إدانة لي أو إثبات لما قلته.»[6]

وقد قام موليرلس نفسه بهذه التجربة، وكانت النتيجة أن مخاطبيه من الريفيين ذهلوا من دقة المعلومات المتوفرة لديه، بل إنهم سيمدونه بمعلومات جديدة كان لها تأثير إيجابي على مسار تأليف الكتاب.

ومع ذلك، فإن الجانب الذاتي في عملية سرد الوقائع والأحداث، قد طغى كثيرا، بل إن مزاجية المخبر كانت هي المحددة في بعض الأحيان لأحكامه وتصوراته. مثلا، يكفي أن يسلبه فرد من قبيلة ما أمتعته، ليصبح أهالي تلك القبيلة جميعهم نموذجا للخداع والنفاق وقطع الطريق إلخ.. بالمقابل، فإن القبائل التي أكرمت ضيافة الدرويش، ستعتبر نموذجا للشهامة والسخاء والطيبوبة. أضف إلى ذلك، أن هذا الجانب الذاتي قد غلب أيضا في نقل بعض العادات إلى درجة تصبح معها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع. (نشير هنا إلى سرد وقائع الكرنفال بتمسمان والحديث عن فروسية بني بويحيي وعن الاقتتال بين أفراد بني ورياغل في الأسواق إلخ...). ونقصد بذلك أن هذه الوقائع، وإن كانت فعلية، إلا أن الصيغة التي رويت بها هي التي تجعلها محط مساءلة.

هذا الالتباس يتجلى أيضا في التصور العام المتعلق بأهالي الريف وبمنطقتهم. فمن جانب، هناك اعتراف بأصالة الريفيين وبشهامتهم وخصوصا – وهذا أمر بالغ الأهمية – بأصالة المرأة الريفية وبشخصيتها القوية وجمالها المتميز وسلطتها التي لا تنازع داخل منزلها. وأيضا بارتباط الشخصية الريفية بالحرية وبالاستقلالية بشكل قل نظيره.

ومن جهة أخرى، هناك إقرار بجهل هؤلاء الأهالي وقسوتهم وانطوائهم على ذاتهم وحذرهم، ليس فقط من الأجنبي، بل من بعضهم البعض، إلى درجة يصعب فيها على المرء في حالات الأخذ بالثأر أن يغادر بيته نهارا، لأن مصيره سيكون هو القتل.

وهذا الأمر، يضعنا أمام التقابل المثير للجدل بين مفهوم الجماعة وواقع " السيبة " الذي يسهب موليرلس، كغيره من الاثنوغرافيين الدارسين للمغرب، في وصفه. فتارة يتحدث عن

---

[6] – انظر خاتمة الكتاب.

الجماعة كشكل من أشكال التمثيلية الديمقراطية ما دامت كل أقسام القبيلة ممثلة فيها.[7] وتارة أخرى، يتحدث عنها فقط كأوليغارشية مؤسسة بإتقان، هدفها الأساسي هو الوقوف في وجه سلطة المخزن. ومن هنا، فإن التنظيم الجماعي لم يمنع القبائل من العيش بحرية هي أقرب إلى الفوضى و " السيبة ". وهو ما سيعلنه موليراس صراحة في الصفحات الأخيرة من الكتاب، حينما سيعتبر بأن الريفيين يبدون سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وفوضى كاملين. ولن يقف به الأمر عند هذا الحد، بل سيطلق العنان لرغباته المكنونة والتي تفصح عن الوجه الآخر لخطابه، حيث سيقول: **« إذا كان القدر المكنون سيحتم على بلد الحريات هذا بأن يخضع تحت سيطرة الأجنبي، فإن ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا اللطيف دوما مع رعاياه المسلمين، قد دأب على معاملتهم بشكل جيد، بل أفضل بكل تأكيد مما هو عليه حالهم في المناطق التي تحكمها الأمم الأوروبية الأخرى.»**[8]

طبعا، سنجد بين ثنايا الكتاب تلميحات وأماني من هذا القبيل، خصوصا عند وصف الطبيعة الرائعة لمنطقة الريف والتحسر على عدم استغلال خيراتها الغابوية والمنجمية من طرف الأهالي، ودعوة فرنسا إلى استخدام كل وسائلها للتمكن من هذه الخيرات، وعدم ترك المجال أمام الإسبانيين ليفعلوا ما يشاؤون بالمنطقة، مذكرا بأن سذاجة الفرنسيين هي التي حرمتهم من السيطرة على الجزر الجعفرية، كنقطة انطلاق للتحكم في أراضي الريف.

من جانب آخر، سيقر موليراس بأن التعامل مع أي شعب يستلزم التعرف على عاداته وتقاليده وفهمها بشكل جيد. وأحسن وسيلة لتحقيق ذلك، هي تعلم اللغة. لذا، سيكون من الداعين إلى تعلم اللغتين الأمازيغية والعربية قبل الكتابة عن أي جزء من أجزاء المغرب الكبير أو العالم الإسلامي. وسيوجه بذلك، نقدا لاذعا للمستشرقين والإثنوغرافيين والمؤرخين الأوروبيين الذين لم ينتجوا في غالبيتهم سوى أعمال جوفاء، سيطالها النسيان سريعا، ولن تفيد لا الباحثين ولا أصحاب القرار السياسي والعسكري. وطبعا، سيعتبر موليراس بأن ما قام به هو النموذج الذي يجب أن يحتذى، فهو ملم بالعربية كأستاذ لها ومخبره (الدرويش) يتكلم الأمازيغية، وهو ما سيسمح للمعرفة بأن تكون في خدمة السلطة.

---

[7] – نتفق مع الأستاذ محمد الوالي في ترجمة fraction (بالإسبانية fraccion / seccion) بقسم بدل فرقة، حتى يتم تفادي اللبس بين فرقة وترفيقت. انظر: دفيد مونتجموري هارت، القانون العرفي الريفي، ترجمة د. محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مطبعة المعاريف الجديدة الرباط، 2004، ص. 11

[8] – انظر القسم المتعلق ببني بشير.

ورغم هذه المفارقات والالتباسات التي وقفنا عليها، يظل هذا العمل في نظرنا، ذا أهمية كبيرة. لأنه سمح بالتعرف على نمط حياة الريفيين في مرحلة حرجة من تاريخ المغرب، أي أواخر القرن التاسع عشر. وثانيا، لأنه مكن من إبراز خصوصية العلاقة التي تربط أهالي الريف الأحرار بالآخر: سواء كان هذا الاخر هو المخزن، أو الغرب المستعمِر(إسبانيا، انجلترا، فرنسا، ألمانيا،)، أو الجار نفسه (قبائل جبالة).

ولا بأس من الإشارة إلى أن سرد الوقائع قد اتخذ أشكالا متعددة، إذ تم فيه الانتقال من المستوى التقريري الوصفي، إلى المستوى الملحمي الشاعري؛ ومن جدية وصرامة التحليل، إلى الدعابة والسخرية. وهو ما انعكس على صياغة الجمل والفقرات، بحيث يتم في كثير من الأحيان الانتقال بنا بشكل مفاجئ، من موضوع إلى آخر ومن حدث إلى حدث مغاير له تماما (مثلا الانتقال من موضوع المرأة، إلى الأولياء، إلى العنف بين القبائل دون أية رابطة بين هذه القضايا). لكن ذلك، لم ينزع عن الكتاب طرافته وإثارته وأهميته.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتوجه بخالص الامتنان إلى زوجتي التي ساعدتني معرفتها النسبية بتمازيغت، على تدقيق معاني بعض الحوارات الواردة في الكتاب باللغة الأمازيغية. كما أن استحضار روايات المرحومة جدتها التي عاشت طفولتها بالريف (قلعية)، في هذه المرحلة بالذات التي تحدث عنها موليراس، شكلت مادة مفيدة للتمحيص وللمقارنة بين الأحداث. وهذه دعوة للباحثين في المجال الأنتروبولوجي خصوصا، كي يولوا أهمية كبرى لما يعرف بسرد وقائع الحياة Récits de vie ، كخزان هام من المعلومات والأخبار يمكن أن يساهم في الكشف عن وقائع وحقائق طواها النسيان.

فاس، في 2006/02/02

د. عز الدين الخطابي

المغـــرب المجهــــول

استهـــلال

الأرض طاووس والغرب كعالته *

مثل عربي

لماذا وكيف أنجزت هذا الكتاب؟

ما بين إقليم وهران والمحيط الأطلسي، يمتد بلد شاسع وجميل أكبر من فرنسا. سندعو هذا البلد، المغرب، وهو الإسم المقتطع من إحدى مدنه الرئيسية (مراكش). ونحن نعلم بأن المغرب لا زال إلى حدود اليوم، أرضا مجهولة تقريبا. وعلى الرغم مما يذكره واضعو الخرائط والجغرافيون الجيدون الذين ينقل بعضهم عن البعض الآخر دون نقد ولا انشغال بالحقيقة، فإننا نستطيع التأكيد بأننا لا نعرف ولو جزءا واحدا من الالف، من هذه الإمبراطورية الشريفة. وعلينا ألا نظل مندهشين من هذا الجهل العظيم، في قرن عرف العديد من الاكتشافات الجغرافية، ولنبحث بالأحرى عن الأسباب. ذلك أن هذا الجهل مرده سبب واحد ووحيد وهو عدم معرفة اللغة العربية.

ولاختراق المغرب واكتشاف أبعد زواياه وأركانه، يلزم على كل أوروبي راغب في المغامرة داخل هذا البلد، التسلح بعلمين يشكلان في الحقيقة علما واحدا: يجب عليه معرفة العربية الكلاسيكية بشكل لا بأس به ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد. وهذا الشرط الوحيد ليس هو الأسهل، وإليكم بيان ذلك: ففضلا عن الضرورة المطلقة للتكلم بالعربية، وهو ما يعتبر بالنسبة للأجنبي أمرا محيرا، يجب أيضا معرفة القرآن الكريم برمته تقريبا، وحفظه عن ظهر قلب

* - ملحوظة المترجم: كتب هذا المثل بهذه الصياغة في النص الأصلي.

وقراءته وفق قواعد ثابتة، مع الالتزام بالنبرة العربية الخالصة. ويجب على المرء أن يكون على دراية بالسنة النبوية وأخبار الصحابة وأن يلقي بالمساجد عروضا دينية حول الألوهية والأنبياء وصلحاء الإسلام الذين لا يحدهم إحصاء؛ ومعرفة عناصر من التشريع الإسلامي على الأقل وإمامة الناس في المساجد والمشاركة في الجنائز وقراءة بعض الآيات القرآنية بمعية الفقهاء الآخرين وأيضا بعض الأمداح النبوية التي لها قيمتها بالبلد. ويمكن لهذه الأمور أن تشغل أكثر الأوروبيين موهبة ، مدة خمسة عشرة سنة تقريبا، دون أن يضيع ولو دقيقة واحدة.

إن معرفة العربية وحدها توازي معرفة أكثر من عشرين لغة وإليكم الحجج على ذلك. فدراسة الأدب العربي تعتبر من الأمور الصعبة، إلى درجة أن الشيوخ المتفقهين في اللغة، يعترفون صراحة بعجزهم عن مسايرة العدد الكبيرمن الألفاظ الجديدة التي يلقونها في كل صفحة، وينضاف غياب الحركات وعلامات الوقف وغياب الكتابة بحروف كبيرة majuscules إلى الغنى المعجمي لهذه اللغة، وهو الغنى الذي يتجاوز كل ما يمكن للمخيلة الأكثر عطاء أن تحلم به. فنحن نصاب بالدوار أمام رقم 12 مليون و 305 ألف و 412 كلمة التي يشملها القاموس العربي. كما أن المترادفات لا تحد ولا تحصى تقريبا. وقد صنف الباحث المجتهد دوهامر De Hammer ، 5744 كلمة ذات علاقة بالجمل Chameau. ووجد العالم اللغوي فيروز أبادي ثمانين مرادفا لكلمة عسل وألف مرادف لكلمة سيف. كما أن كلمة مصيبة تشتمل على أكثر من 400 مرادف. ويمكن لفقيه في اللغة Philologue أن يؤلف كتابا حول أسماء الأسد التي يبلغ عددها 500. وقد كانت مرادفات كلمة ثعبان التي بلغ عددها 200، موضوع بحث أحد المولعين بالإحصائيات. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، إذ تصل صعوبة هذه الدراسة إلى ذروتها عبر تضمن كل كلمة لمعاني عديدة ومتناقضة. وكأن عبقرية جهنمية وجدت متعتها في جعل هذه اللغة عبارة عن لغز أبدي. ومعلوم أن محاولة تجميع كل لهجات شبه الجزيرة العربية، في قاموس واحد، قد تسببت في حدوث الفوضى.

ولا تتوفر العربية الدارجة على الغنى المحير للأدب، لكنها تقدم مع ذلك وفرة من المترادفات ، ربما لا توجد بنفس الدرجة في أية لهجة أخرى. ومنذ حوالي ربع قرن من دراستي لها، استطعت أن أدرك بأن كل كلمة من كلمات العربية الدارجة، تتضمن في المعدل ثلاثة مرادفات. وإذا أضفنا إلى ذلك الجمع غير القياسي Pluriel irrégulier، الذي يشكل غياب الشبه بينه وبين مفرده تقريبا، كلمات جديدة يتعين فهمها، فإننا سنحصل على ست كلمات يجب معرفتها، بالنسبة لكل كلمة مقابلة في الفرنسية مثلا. ونشير أيضا إلى ضرورة تليين الحنجرة للتعود على النطق الخشن الذي لا تعرف عنه لغتنا الأوروبية شيئا. لذلك كله، يمكننا تصور المجهود الذي

يجب بذله للتكلم بالعربية مثل العربي. وليس غريبا أن نرى القليل من الأوروبيين فقط، ممن يستطيعون التحدث بأكثر اللهجات إثارة للإحباط، وكتابتها بشكل ملائم.

ولأنني مقتنع بأن العمل الدؤوب سينتهي بنا إلى بلوغ مستوى العرب المتعلمين على الأقل، وهذا أمر جميل في حد ذاته، فإنني أسمح لنفسي بالإفصاح عن أمنية تتعلق بالدراسات العربية التي عرفت الإهمال بفرنسا وبالجزائر. فلتقدم الدولة من أجلها أكبر التضحيات، لأننا سنكسب عن طريقها حب العرب والمسلمين في العالم أجمع؛ وسنتعرف على نمط تفكير المجتمع المحمدي وعلى رغباته؛ لأن مساعدة هذا المجتمع لنا، تعتبر بالغة الأهمية. ولنطبق وصية رسول الإسلام إلى أتباعه والتي جاء فيها: « **من علم لسان قوم أمن من مكرهم** ». ففي المغرب، تعتبر المعرفة الجيدة بالعربية كافية. وفي المناطق التي يسيطر عليها الأمازيغ، وهي مناطق عديدة، يجب علينا أن نضيف إلى العربية لهجة أمازيغية مغربية أو جزائرية. ويمكننا أن نغامر بكل جرأة داخل كل جزء من المغرب، متنكرين في زي طلاب مجتهدين، مستعدين مسبقا للتعب وللحرمان، مع الاحتراس من أية توصية، كيفما كان مصدرها.

وأنتم أيها الفرنسيون الشباب المقبلون على السفر إلى المغرب، عليكم أن تستحضروا دائما هذه الحقيقة التي تم تجاهلها لمدة طويلة: وهي أن كل المكتشفين الأوربيين قد فشلوا وسيفشلون في العالم الإسلامي، بسبب جهلهم للغة العربية. ونحن لا نريد هنا التقليل من شأن أولئك الذين تعرفنا بواسطتهم على جزء واحد من ألف، من أرض المغرب؛ ولكننا نؤكد بأن لا واحد منهم، بما فيهم صاحب الإسم المستعار: علي باي باديا لبليش [9] ، كان مستعدا للحديث بطلاقة، بهذه اللغة المحبطة التي تبعث اليأس أو الفرح في نفس كل من يريد التعمق فيها. فلا واحد منهم اخترق البوادي ، بعيدا عن الطرق المرسومة من طرف الحمّار Hammar (وهي القافلة المحروسة من طرف الجنود المغاربة).

ولأنهم كانوا محميين ومحتقرين ومثيرين للشبهات وغير مستوعبين للمعلومات التي كانوا يتوصلون بها والتي كانت خاطئة في الغالب وأيضا ملزمين باتباع المسالك المفروضة عليهم، فإن هؤلاء الشجعان، كانوا مع ذلك، يقاومون كل هذه المثبطات، وقد أدى بعضهم حياته ثمنا لهذه المجازفة المتهورة.

إن السفر إلى بلد نجهل لغته معناه السفر مثل الأصم- الأبكم. فما هي المعلومات والمعارف التي يمكن أن يجنيها مكتشف يجوب البلاد دون التمكن من التفاهم مع السكان؟ إنه لن

---

[9] – كان مجبرا على أن يقدم نفسه كتركي لتبرير رطانته. وكان قد تلقى تدريبا لغويا إلى حد ما، للإيهام بانتمائه إلى أرض العرب.

يستطيع أبدا تمحيص ما يراه ولا ضبط القليل مما يقال له. فإلى جانب بعض الحقائق التي سيتلقها، ستكون هناك مفاهيم خاطئة وأحكام مشوهة، ولدينا عينات منها في الوثائق الحالية.

طبعا، إن المغرب قد تفادى إلى حد الآن النظرات الفضولية للأوروبيين، وذلك للأسباب التي عرفناها من قبل. ومنذ طفولتي، فإن فضول معرفة الجار الذي يشاركنا مئات الكيلومترات من الحدود، كان يؤرقني بشكل لا يتصور. ولأن مسقط رأسي بتلمسان، على بعد خطوتين من الحدود المغربية، فإنني تربيت وترعرعت تحت تأثير فكرتين لم أتوقف عن استحضارهما إلى يومنا هذا وهما: معرفة جارنا الغريب وإدراجه داخل مجال التأثير الفرنسي.

وانطلاقا من هذا الهدف المزدوج، شرعت منذ سنوات في دراسة العربية والأمازيغية. وتشكل الأعمال التي نشرتها حول هاتين اللغتين مراحل لتعليم سيكتمل تدريجيا. ولأنني أرغب في ضبط الأمور معتبرا بأنه لا يوجد مكتشف أوروبي يمتلك، قبل دخوله إلى المغرب، مثابرة البحث الجاد والطويل النفس، فقد تابعت بدون كلل، المهمة التي فرضتها علي المعرفة الدقيقة بالناس وأشياء الإمبراطورية الشريفة والتي ستفرضها لاحقا، على كل من يريد كشف اللغز المحيط بهذا البلد الغريب.

ولم أتردد لحظة في ربط علاقة صداقة مع العديد من المغاربة، عربا و أمازيغ، متعلمين وجاهلين، والذين لم يبخلوا علي بما يعرفون عن بلدهم وما يفكرون فيه، معتقدين بأنني مسلم. ومن أعلى إلى أسفل درجات السلم الاجتماعي المغربي، اكتسبت أصدقاء حقيقيين، طلبوا مني في كثير من الأحيان التخلي عن خدمة النصارى والهجرة إلى جنة الإسلام هاته، حيث الحرية والحياة السهلة. فالتأثير الذي تمارسه المعرفة المعمقة إلى حد ما بالأدب وباللغة العربية على المسلمين، يكون له فعلا وقع سحري لا يقاوم. والمسلم الأكثر مكرا (وكل المسلمين هم كذلك)، سيبوح بكل شيء، مثل الطفل، للطالب الأوروبي الذي يستحق هذا الإسم حقا والذي يدري كيف يطرح عليه الأسئلة. ومع ذلك، فأنا لم أبح بسري لأي أحد. فقد احتفظت به لنفسي حتى اليوم الذي حصلت فيه على مهمتي، واعتبرت نفسي مستعدا بما فيه الكفاية للقيام بهذا السفر. آنذاك انتبهت إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبته، بعدم التماس حماية شخصية نافذة. وطلب مني عالم من باريس، وهو الشخص الوحيد الذي أعرفه جيدا وأبوح له بأسراري، بالتخلي عن مهمتي، مبينا لي كيف أن العديد من المحميين أنفسهم لا يحصلون على شيء، لأن هناك من حظي بالتزكية قبلهم. وباختصار فقد أجهضت إرادتي في القيام بطلب رسمي بمهمة أو برعاية ما. هكذا، فإنني كمشتغل مغمور، يوجد بعيدا عن مدينة الأنوار (باريس) بمئات الكيلومترات وغير مستعد بطبعي للانخراط في الممارسات المنفرة التي تقتضيها مهمة المداح، لم أجرأ على الانخراط بزمرة أولئك

الذين يترقبون بخضوع، في قاعات الانتظار، إشارات من متنفذي هذا الزمن. فهل يتوجب علي التخلي مع ذلك عن حلم حياتي؟ وهل سيضيع مجهود السنوات الفارطة إلى الأبد، ما دام قد أصبح بفعل ظروف غير متوقعة، بدون هدف ولا موضوع؟

إن دماء الغاليين Gaulois القدامى التي تجري في عروقي لا تتوافق أبدا مع المذهب الجبري العزيز على الكسالى. سيستحيل علي الذهاب إلى المغرب؟ فليكن. غير أن هناك مسلمين قاموا بزيارته. ففي كل يوم، هناك حركة ذهاب وإياب إلى ومن المغرب. وهنا برز أمامي الحل شبه التام للمشكل المطروح باستمرار والذي ألخصه كما يلي: إن معرفة المغرب وجعله معروفا من طرف الآخرين، بشكل مماثل ولربما أفضل مما لو قمت بزيارته بنفسي، قد يتم بفضل تصريحات المغاربة والرحالة المسلمين الآخرين. وعلى الفور، شرعت في العمل وحيدا، دون معونة أي أحد ودون أي دعم كيفما كان نوعه، مستغلا كل وقتي بما في ذلك عطلتي وكل أوقات الفراغ التي تسمح بها خدمتي المزدوجة والمضنية التي طالبت الإعفاء منها، بدون جدوى. هكذا، سينجز هذا العمل على مدى عدة سنوات، وهو العمل الذي فرضته على نفسي، من أجل بلدي ومن أجل العلم، والذي يشبه مجهود ثور الفلاح.

والآن، وأنا أعاين المسار الذي قطعته والعمل الضخم الذي أصبح مجسدا على أوراقي، منتظرا الترتيبات النهائية، فإنني أتساءل عن الاستقبال الذي سيخصصه المعاصرون لي (وأنا أقصد هنا المتشككين والمتهكمين)، لعمل سيكشف عن الحياة الحميمية وعن عادات وأفكار شعب عظيم. وسيبرز لهم بواطن أرض مجهولة لديهم.

طبعا، فأنا لم أكتب من أجل هؤلاء، بل من أجل ذوي النفوس الأبية، الذين لا زالوا يؤمنون بالوطن والأخوة الممكنة بين البشر والتسامح والطيبوبة بشكل عام؛ وأخيرا من أجل خالق المغرب وخالق كل البلدان والكواكب.

وفي اللحظات الحرجة من عملي، وخلال لحظات اليأس والقنوط من الأنانية الفاترة والمتصنعة التي تميز عصرنا، هناك شخص واحد دعمني عبر إيمانه القوي بفائدة أعمالي، وعبر صداقته الثابتة وحسه السليم والمتين، إنها المرأة التي تحمل اسمي، أم أطفالي المحبوبين والتي أحيي هنا وجودها النبيل المكرس كلية لزوجها ولتعليم وتربية أبنائها ولبيتها. ولن أكف عن شكر من يعلم بسرائرنا، وهو الذي جعلني ألتقي في هذا العالم الدنيوي بالرفيقة التي حلمت بها منذ الصغر، ربة البيت الحقيقية كما أفهمها وكما يجب أن تكون في كل ربوع فرنسا العزيزة علينا وكما ستبقى بالتأكيد، حينما تزول أهواء الأشياء السطحية.

إنني سأمر بسرعة على التفاصيل المتعلقة ببداية مهمتي وتحقيقاتي الدقيقة مع أصدقائي المغاربة، وأحاديثنا الطويلة والقطع النقدية البيضاء المتتالية لمكافأتهم، ووقتهم الذي خصصوه لي والمعلومات التي قدموها والتي تتواجد بين دفتي هذا الكتاب، دون إشارة إلى اسم الرحالة، لأنني لن أخون ثقة هؤلاء الناس البواسل الذين توسلوا إلي بعدم ذكر أسمائهم.

وكيفما كان الحال، فإن تصريحاتهم تعتبر محدودة، بالمقارنة مع العلاقة التي ربطتني برجل تعرفت عليه بفضل العناية الإلهية، رجل سيسمح لي بعد تردد يفهمه من يعرف انتقام المتعصبين، بكتابة اسمه بالأحرف البارزة. وهو ما أقوم به الآن، لأن محمد بن الطيب كان منقذي . فبدونه لم يكن باستطاعتي نشر ولو جزء واحد من المائة من هذه الوثائق، ولربما لم يكن بإمكاني كتابة أي شيء عن المغرب؛ بل إن المعلومات المقدمة من طرف الرحالة المسلمين الآخرين، ستكون ضعيفة وناقصة وعديمة الأهمية، تستحق الإحراق بدل النشر.

إن محمد بن الطيب هو نموذج للرحالة النادر. ولم أكن أتوقع العثور على هذا الرجل المناسب من قبل، إلى أن أخبرت عنه بمحض الصدفة في الأيام الأخيرة من سنة 1893. في إحدى الأمسيات قال لي أحد المخبرين وهو جزائري مسلم أقام بالمغرب خمس سنوات وروى لي كل ما يعرفه عن هذا البلد، وكنت قد كلفته بمهمة اكتشاف الرجل النادر الذي أبحث عنه: " **لقد وصل إلى وهران طالب رث الثياب، على هيئة درويش مختل العقل شيئا ما ويدعي معرفة عميقة بالمغرب** ". ولم يكن هذا المخبر يدري بأنه قد وضع اليد على مكتشف رائع، سيسمح لنا أخيرا بكشف النقاب الذي يخفي لقرون عدة، هذه الإمبراطورية المنيعة. وكان من اللازم استعمال الحيلة لاستدراج هذا الطالب الشديد الحذر، إلى مقر إقامتي، وبعد اقتناعه بأنني أديب مسلم، تائه وسط النصارى، وهو ما أكدته له طبعا، عزم على زيارتي مساء أحد الأيام، بعد انتهائي من إلقاء درسي، في إطار كرسي العربية الذي أشغله. وقد حماه ظلام الليل من أنظار أبناء ملته المتعصبين الذين كان يخشى شرهم. وكان الرجل الذي تعرفت عليه في مساء من أمسيات شهر يناير 1894، يلبس جلبابا طويلا من الصوف الأبيض بأكمام قصيرة؛ وكان مغطى الرأس، ذا لحية شقراء لامعة ووجه نحيل بعض الشيء بفعل المشي والحرمان، إلا أنه كان يشبه بشكل مثير، صور المسيح المألوفة لدينا، بعينين زرقاوين لا يرفعهما إلا لماما، وكأنهما مثبتان على أنفه ولحيته، وبمشية مائلة ومترنحة وكان نحيفا غير متين.

وبالفعل، فقد كان يبدو كدرويش مختل عقليا إلى حد ما، لكنه مسالم. وسنرى كيف أنه تظاهر بهذا الشكل كي يثير شفقة من يراه، ويمر دون إثارة انتباه أحد، أينما حل وارتحل، وهو تدبير احتياطي ممتاز خصوصا بالمغرب. وعند أولى الكلمات التي تلفظت بها، انتبه إلي جيدا

ورفع عينيه باتجاهي، مظهرا انبهاره بسماع حديثي عن الدين الإسلامي والرسول وكبار الشخصيات في الإسلام. وظل يسمعني وهو واقف،مبينا عن دهشته، من فترة لأخرى، ورافعا يديه نحو السماء متمتما: " **الله أكبر الذي هدى رجلا مثل هذا إلى الطريق المستقيم (أي الإسلام)**".

وهكذا تولدت الألفة بيننا. لكن دهشة هذا الرجل ستتعاظم حينما سأقول له فجأة وبلغة زواويةZouaoua – لأنني كنت أعلم عن طريق المسلم الجزائري المذكور بأنه يفتخر بأمازيغيته: " **Al asedh a rekkan ay ameddakoul ?** " (هل ستأتي غدا يا صديقي؟) وسيصبح بالعربية: " **لا، إنك لست نصرانيا.. أنت مسلم، عربي أو أمازيغي، لكنك لست روميا وأنا أشهد بالذي لا إله إلا هو** ". وسيضيف بقبايلية قحة: " **azekkan ad asegh** " (سأتي غدا). وسيكرر هذا القول وهو يضحك، مغطيا رأسه بالقلنسوة التي كان نصفها قد سقط على كتفيه، حينما رفع رأسه فجأة عند سماعه لحديثي بالأمازيغية مباشرة بعد حديثي بالعربية.

وفي الغد، جاء الدرويش في الموعد تماما. عندئذ بدأت سلسلة من الأسئلة والأجوبة وتحقيق طويل ودقيق، سينتج عنه هذا الكتاب. ومن خلال الجلسات الطويلة، التي كانت في العادة تدوم ثمان ساعات في اليوم، تعرفت تدريجيا على هذا المسلم الجوال الذي اكتسب عادة السفر وحيدا. فحوالي سن العاشرة سافر بمعية طلبة آخرين، لزيارة مختلف الزوايا بتونس وبإقليم قسطنطينة. وبرجوعه إلى بجاية مسقط رأسه، تابع دراسته الشرعية، دون أن يعلن لأي أحد عن مشاريعه المستقبلية . ومنذ تلك المرحلة ، بدأ يفكر في رحلة كبيرة إلى المغرب، بغرض تحقيق ثلاث رغبات شخصية وهي: رؤية البلد والابتعاد عن النصراني الممقوت وحضور دروس علماء فاس الذين كانت شهرتهم ، المبالغ فيها إلى حد ما، قائمة بعد الهيمنة السياسية والأدبية التي كانت للمغرب في ما مضى.

وفي صبيحة أحد الأيام من سنة 1872، سيغادر بجاية ومنزل الأسرة دون الإعلان عن ذلك، بل ودون توديع والديه اللذين سيفقد أثرهما بعد ذلك. وقد كان عمره آنذاك ستة عشر أو سبعة عشر سنة تقريبا. هكذا، سيدير ظهره للشرق وسيأخذ وجهة المغرب مشيا على الأقدام، خالي الوفاض إلا من لوحة الدراسة، متلقيا من المحسنين، أينما حل، طعاما محدودا لكنه كاف. وسيتوقف بضعة أيام بمدينة الجزائر للتعرف عليها وللاستراحة بها في نفس الوقت. لكن النصارى واليهود كانوا أكثر عددا في هذه المدينة منهم في بجاية، وسيتابع طريقه بمحاذاة البحر حتى لا يضل طريقه.

وبوهران وقع له حادث مزعج سينفره بشكل تام من الجزائر التي كان فيها اليهود، حسب اعتقاده، هم الأسياد. فأحد هؤلاء الساميين Sémites المرفوق بثلاثة أو أربعة أشخاص من أبناء ملته، والذين كانوا جميعهم يرتدون الزي الأوروبي، سيعترض طريق الطالب المتجول الذي كان منهمكا في مراقبة الحي الإسرائيلي. وسيقول اليهودي الوقح للدرويش: " **أنا عميد الشرطة، ناولني أوراق تعريفك وإلا أدخلتك السجن** ". وعلى الرغم من أن هذا الكلام قيل برطانة تمتزج فيها اليهودية بالفرنسية بالعربية و بالإسبانية والتي لا يعرف سرها إلا الإسرائيليون الأفارقة، فإن محمد الذي لم يكن يتوفر على رخصة السفر القانونية، توجس أوخم العواقب وظن بأنه سيسجن لا محالة، معتقدا بأن ذلك المحتال عميد شرطة بالفعل. وكان في اليوم السابق قد جمع شيئا من المال، بفضل بعض المحسنين المسلمين، من أجل الإبحار إلى طنجة ولشراء بعض الزاد أثناء عبور البحر. ولتسوية المشكل سيقترح دفع اثنين دورو Douros ، غير أن هذا الاقتراح سيرفض باحتقار.

وفي الأخير، سيفلت من قبضة عميد الشرطة المزيف، بالتخلي عن كل ما يملك من نقود أي ثلاث قطع من مائة فلس. وحينما طلب منه جواز السفر، معتقدا بأن ذلك من حقه، تلقى أفظع الشتائم من طرف ذلك اليهودي الحقير، الذي دفعه وصفعه وانتهز الفرصة ليصب وابلا من الشتائم على الرسول وعلى العرب بشكل عام.

وفي قرية الأهالي التي وصلها محمد في أسوأ حال، أخبره السكان بأنه كان ضحية نصب من طرف اليهود، وأن النصارى لا دخل لهم في القضية. ولم يكن بإمكانه الانتقام طبعا، فقد كانت السفينة المتوجهة إلى طنجة تطلق صفيرها، وكان السماسرة الممثلون للشركة المالكة للسفينة، يصرخون بأعلى صوتهم : " **البابور بغى يمد** " (السفينة ستقلع)، ويدفعون مجموعة من الريفيين الذين كان من المقرر أن يبحروا في نفس اليوم، باتجاه الساحل المغربي. وقد اندس محمد وسط الحشد ووجد نفسه وسط أمازيغيين، هم إخوان له في آخر المطاف، لأنه يفهم تقريبا لهجتهم الخشنة. واستطاع أن يجلب عطف بعض النفوس المحسنة، من بين هؤلاء الجبليين الأشداء، الذين كانوا في طريق العودة إلى الريف، بعد رحلة شاقة إلى إقليم وهران، حيث حصدوا محاصيل معمرينا مقابل ثمن زهيد. هكذا، سيبحر معهم، وستغادر السفينة التي كانت مملوءة عن آخرها بهؤلاء الريفيين الذين كانوا يرددون أهازيج بلدهم، ميناء وهران متجهة نحو الغرب. وعند مصب واد كيس Kis، ادعى قبطان السفينة حصول عطب ميكانيكي سيؤدي إلى التوقف لعدة أيام. وقد جزع المغاربة من فكرة بقائهم بدون طعام ولا شراب على ظهر السفينة التي لم تكن تتوفر على المؤونة الكافية. لذا، سيطلبون من القبطان إنزالهم على الساحل

الجزائري، شريطة أن يحملهم ثانية حالما يصلح العطب. وسيقبل القبطان هذا المقترح على الفور، لأنه كان يتخوف من اندلاع تمرد على ظهر سفينته. ولربما كان قد أعطى أوامر سرية للبحارة المكلفين باستعمال الزوارق، ليكونوا مستعدين لأي طارئ. وكيفما كان الحال، فإن " أشباه الغرقى " هؤلاء سينزلون بالأرض المغربية، وهو الأمر الذي سيتأكدون منه عند رؤيتهم لجحافل من الأهالي المسلحين الذين سيأمرونهم بالعودة من حيث أتوا. وأثناء رجوعهم، تحركت السفينة التي أصلح عطبها، ولأن مقدمها Proue كان موجها نحو الشرق، فقد أثارت أمواجا من الزبد الأبيض وفوران المياه. وانبعثت صيحات الاستنكار والغضب من الشاطئ أمام هذا الهروب المتعمد، إذ فضلا عن ثمن السفر الذي تم خسرانه، وجب التوجه إلى الريف مشيا على الأقدام، وسط قبائل إن لم تكن معادية، فهي على الأقل مستعدة لابتزاز الغرباء الحاملين للمال. وقد حصل اتفاق جماعي على التوجه إلى وجدة مشيا بمحاذاة الحدود الفرنسية. وكانت المجموعة مكونة من ألف رجل، لذلك لم تشعر بأي انزعاج وبلغت وجدة دون مشاكل.

هكذا، ستبدأ بالنسبة لمحمد بن الطيب، حياة الطالب المشرد التائه، عبر المساحة الشاسعة للمغرب والتي سيقطعها من كل الجهات، مدة اثنتي وعشرين سنة، حيث كان ينام ويأكل بالمساجد، مع الطلبة الآخرين الذين كان إحسان السكان الدائم، يغذيهم ويكسيهم لسنوات عديدة، دون التساؤل عن هوية الوافد الجديد ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب. لقد كان الدرويش إذن، من أكثر الرحالة المؤهلين لاكتشاف هذا البلد. فهو من أصل قبايلي، والأمازيغية هي لغته الأم، بحيث ستكون له منقذا بشكل كبير، في هذا البلد الذي لم تكن فيه اللغة العربية هي المهيمنة. وبفضل معرفته الجيدة باللهجة القبايلية لبجاية، فإنه سيستقبل كأخ في الريف، هذا البلد المتوحش شبه المجهول والذي سيتمكن من اكتشافه خطوة خطوة، باطمئنان وإعطائنا الوصف الوحيد المتوفر حاليا. وبفضل العربية والأمازيغية، سيتغلغل في أعماق منطقة البرابر Braber، هناك حيث لم يسبق لأي أحد أن وضع أرجله. وسيكون مظهره كدرويش بئيس، أفضل ترخيص له، ولم يكن له شيء آخر غير ذلك.

لقد كان يجوب البلاد، مدفوعا بقوة قاهرة لا يدركها هو نفسه، حيث لم يكن يستقر بمكان محدد، لأنه كان يرغب في رؤية مناطق جديدة وأناس جدد وعادات جديدة، ولم يكن يدون أية ملاحظة، بل كان يسجل ذلك في أروع مذكرة جغرافية يمكن أن يجدها المرء. وسيبدأ هذا الاكتشاف دون توقف أو راحة سنة 1872، لينتهي سنة 1893. وكما أشرت من قبل، فقد التقينا بمحض الصدفة التي أرجعناها معا إلى العناية الإلهية. ولسوء الحظ، فإن هذا الدرويش لم يقم برحلات لكي يرويها، فبالأحرى ليدونها؛ ورغم إلحاحي الشديد، لم أتمكن من التغلب على الرعب

الذي يتملكه من الكتابة، وكان يستحيل علي دفعه إلى تدوين ولو حرف واحد بيده. مرة واحدة، رأيته يخربش بسرعة على ورقة بيضاء بالية. وبدل الحبر والمدواة، كان يستعمل بصلة نيئة، يغمس فيها ريشته القصبية، ليرسم على الورق بعض الحروف اللامرئية. وكان الأمر يتعلق بتميمة ضد صداع الرأس، يضعها على شعر رأسه الغزير، الذي كان شكله الفوضوي ورائحته يشيران إلى أن المشط والعطور لم يمرا منه أبدا. وهذا الاحتقار للنظافة الذي دفع به الدرويش إلى أقصى الحدود، كاد أن يكون وبالا على حياته في الريف، حيث أدرك الأهالي بأنه يؤدي صلواته المتقطعة دون اللجوء إلى قواعد الوضوء المحددة شرعا. وجب علي إذن، أن أستسلم لهذا العمل المزدوج والشاق، المتعب حقيقة إذا ما أدركنا بأن الأمر يتعلق بموضوع شاسع وجديد كل الجدة.

فالمطلوب هو الكتابة والاستفهام: الكتابة باستمرار والاستفهام بلا هوادة. ولم يكن الدرويش يشك في القيمة التي ستكتسيها اكتشافاته، وهو الذي لا يعرف كلمة فرنسية واحدة ولم يسبق له أن قرأ رحلة مروية، كما أن معارفه الأدبية لم تخرج عن الإطار القرآني؛ لذلك سيدفعه حسه السليم إلى الخضوع للتوجيه. فقد يبدو له عنصر جزئي قليل الأهمية، لكنه يعتبر مهما بالنسبة لي. وقد يبدو له حدث آخر مثيرا للاهتمام، لكنه يبدو لنا نحن الأوروبيين سخيفا. غير أن هذا الرجل كان يتوفر على جغرافية المغرب في رأسه؛ وفي ذلك المكان بالذات كنت أبحث عنها، فهناك كنت أنقب لكي أخرج من هذه الذاكرة الرائعة مئات الأسماء للقرى والقبائل والوديان والجبال التي طعمنا بها العلم؛ هناك انطبعت في الذاكرة، كل من العادات والتصرفات والأعراف والتقاليد والسلالات واللغات والسكان والقوى العسكرية والثروات الغابوية والزراعية والمعدنية والتي سأقدم عنها لمحة دقيقة ومتنوعة، بحسب ما يسمح به قلمي المتواضع .

أكيد أنه لم يكن باستطاعتي رؤية المغرب في جميع تفاصيله، بنفس رؤية رحالتنا. وأعترف بدون مواربة، بأن طبيعتي لم تكن تسمح لي بتحمل دور القديس الجوال الذي لعبه هذا الدرويش مدة اثنتي وعشرين سنة، دون كلل. فميزته الثلاثية، كمتسول وكطالب وكدرويش، سمحت له برؤية كل طبقات المجتمع تقريبا؛ إذ أن النوم في العراء وفي القصور أو داخل كوخ مليء بالرعاع لم يكن يهمه بتاتا. كما أن مواجهة كل أشكال البؤس والأمراض والفظائع الجسدية والمعنوية، لم تكن تؤثر فيه ولم تكن تثير اشمئزازه. وسواء كان الطعام الذي يتناوله جيدا أو رديئا، فاخرا أو غير كاف، أو غير موجود، مما قد يؤدي به إلى الصيام لفترة طويلة، فإن ذلك لم يكن يثني عزم هذا الشخص الذي خلق كي يتجول في بلد إسلامي. وكطالب، فقد كان بإمكانه الاندماج داخل كل المجتمعات دون إثارة الشبهات؛ وكان يترك المتسولين ليذهب إلى قصر،

ويغادر هذا الأخير ليعود ثانية إلى عالم الدراويش. وكغريب ورحالة، فقد كان بإمكانه التقرب من كبار البلد، الراغبين دوما في سماع أخبار الرحلات واكتساب معلومات دقيقة إلى حد ما، حول بلد يصعب التعرف عليه. وكدرويش، فإنه كان ينسل في كل مكان، في المساجد وداخل منازل المسلمين بل وحتى داخل الغيتوهات، لأن ابن الطيب كان يضع نفسه فوق الأحكام المسبقة والتعصب الضيق لأبناء ملته. ولأنه كان مدفوعا بفضول طبيعي، لم يعد العرب يمتلكونه في أيامنا هذه، لكن لا زال الأمازيغيون يتوفرون عليه بدرجة كبيرة، فقد كان يدرس الناس والأشياء، ليس بدافع غرور أدبي، بل فقط من أجل تلبية رغبته الملحة في السفر، لأنه لم يكن يشك في أنه سيأتي يوم، سيروي فيه كل ما رآه لنصراني يعرف كيف يحل عقدة لسانه.

وهنا نصل إلى نقطة حرجة. فهل نصب علي هذا الدرويش؟ إليكم جوابي: لقد كنت كل مرة أراقب أقوال هذا الرجل كلما تيسر لي ذلك. وكان مئات المغاربة يؤكدون لي ما قدمه من معلومات، كأشخاص مطلعين. كما أنهم قدموا لي معلومات إضافية، عملت فيما بعد، على إدراجها ضمن الحصيلة الوافرة التي أنجزها رحالتنا عن المغرب. ولم يسبق لي أن ضبطت هذا الرجل متلبسا بجريمة الكذب. وقد كنت في بعض الأحيان أتسلى بمساءلته فجأة حول بعض القرى النائية بالبرابر Braber ، بالريف وبجبالة الخ.. وكان يجيبني مباشرة، ذاكرا لي القبيلة وأقسامها والمكان بالضبط الذي توجد فيه والذي سبق لي أن حددته بصعوبة، على الخرائط. ولم يكن هذا الدرويش الضعيف البصر مستعدا لمساعدتي بهذا الخصوص، فقد كان يرفض بتاتا رسم خط أو كلمة، لأنه لم يسبق له أن رأى خريطة في حياته. وكنت مضطرا، لكي أضبط خريطتي، بأن أمطره بالأسئلة حول الجهات الأربع ومجاري الوديان والجبال والمسافات والمدن والقرى الصغيرة. وباختصار كان علي أن أعيد من جديد وبمشقة، العمل المتعلق بكل قبيلة على حدة. ولأنني مثقل بخدمتي المزدوجة كأستاذ كرسي بالجامعة والثانوي وكمهتم بهذا المشروع، فقد شعرت لحظة بأن قواي ستخونني وبأنني لن أتمكن أبدا من إتمام مهمتي. وفي لحظات الضعف هاته، قمت بالعمل بحماس أكبر، وقد أحسنت فعلا، لأنني لاحظت بأن الدرويش نفسه بدأ يشعر بالوهن. فعدم تحركه لمدة سنة، رغم الامتيازات المالية التي حققها، أثر كثيرا على غرائزه كرحال متعود على الفضاءات الشاسعة. أضف إلى ذلك، أن معرفته بالأجزاء الجنوبية للمغرب، كانت تشوبها ثغرات، مما استدعى القيام ببحث إضافي وبسفر جديد. وبتاريخ 30 يناير 1895 وضعت القلم أخيرا. فقد زودني هذا الرجل بكل ما يعرف ولم يبق لديه ما يضيفه. وقد منحته جواز سفر وساعدته على العودة إلى المغرب على نفقتي، مع تعليمات خاصة أعطيتها له وأنا واثق من أنه سينجزها إذا ما تمكن من الخروج سالما من الجحيم المغربي. ومنذ تلك الفترة، لم

ألتق أخباره سوى مرة واحدة. فهل سأراه مرة أخرى؟ أعتقد ذلك، وأتمنى من الذي حفظه على مدى اثنين وعشرين وسنة، ألا يتخلى عنه في هذه الرحلة الأخيرة.

وبينما يراكم الدرويش الذي عاد إلى حياة التجوال، الكيلومترات ويتمشى في الفضاء الواسع ويجد نفسه من جديد في بلد كل الحريات، أظل من جهتي منغلقا في حجرة الرهبان التي اخترتها لنفسي، في مواجهة الوثائق الكثيرة التي أتوفر عليها، ساعيا إلى كتابة المجلد الأول من سلسلة من الكتب التي يعلم الله متى ستتوقف. فأنا أتقدم ببطء داخل هذه الإمبراطورية الصعبة المنال. وكلما تقدمت، كلما أدركت حقيقة كلمات لفنستون العظيم: « **أعتقد بأن من الأفضل لي أن أقطع القارة الإفريقية من جديد، بدل نشر مجلد ثان؛ إذ أنه من الأسهل القيام برحلة بدل كتابة تفاصيلها**».

وتوجد كل ملاحظاتي بالعربية، وبعضها موجود بالأمازيغية. ويتعين علي تنظيمها وتنقيحها وحذف التطويل والتكرارات وتصحيح الأخطاء. وأخيرا الكتابة بالفرنسية، أي القيام بتدوين جديد بلغتنا لما سبق أن خططته في لغتين محليتين مخالفتين يجهلها للأسف أغلب الأوروبيين. وقد كان من الممكن، لو أن إمكانياتي سمحت بذلك، أن يقدم نشر مخطوطي بالعربية، خدمات كبيرة وفعلية لأولئك الذين يرغبون في اكتشاف بلد إسلامي مثل المغرب. كما أن العربية الدارجة المتحدث عنها في هذه الربوع، كانت موضوع بحثي المستمر. وأظن بأنني أوردت في الجزء غير المنشور من عملي، كل العبارات المغربية المستعملة تقريبا، والتي تعتبر معرفتها ضرورية بالنسبة لكل من يريد السفر إلى هذا البلد دون إثارة الانتباه. ومع ذلك، فأنا لن أتخلى عن الأمل في إصدار بعض المقاطع من هذا المخطوط ، في مرحلة لاحقة ربما؛ وبالتالي عدم إحراق الجزء الذي يبدو لي أكثر إفادة بالنسبة لجنودنا وتجارنا ورحالتنا.

وأنا أصحح النسخ المطبوعة من هذه الصفحات، وصلتني ثلاث رسائل من الدرويش تباعا. وهي رسائل مكتوبة بالعربية. وقد توصلت بالأولى، بفضل مسلم وهراني تسلمها من ريفي؛ وكانت الرسالة الثانية تحمل طابع بريد طنجة، أما الثالثة فقد أرسلت من بريد العرائش. وكل واحدة منها، مكتوبة بخط مختلف، وهو ما يؤكد بأن رحالتنا لا زال مصرا على عدم حمل القلم، مفضلا إملاء رسائله. وقد لاحظت ذلك من خلال الترددات والتلميحات التي لا يمكن لأحد إدراكها سوانا. ولربما اعتقد الطلبة الذين كتبوا هذه الرسائل، بأن هذا الرجل الذي يملي عليهم خطابا تهييجيا غير مفهوم، هو إنسان مختل عقليا.

ولا زلت أتلقى بعض الأفكار المتفرقة من محمد بن الطيب السريع الخطوات. ففي مارس المنصرم كاتبني بالأمازيغية من كورارة، مشيرا إلى وجود وحدة استطلاع مكونة من ضباط

فرنسيين، في قلب الصحراء. والآن، ها هو موجود بالعرائش، حيث يستعد للنزول إلى منطقة سوس التي ينوي عبورها من الغرب إلى الشرق. وكانت أولى الرسائل الثلاث والمؤرخة بقلعية (الريف) قد وصلتني متأخرة، إذ أن الريفي الذي حملها، كان قد أجل سفره إلى وهران ببضعة أيام.

فإليك أيها الرحالة الجريء الذي يعتبره الجميع مجنونا، أقول أحسنت! أنت الذي خدمت فرنسا رغم عدم ثقتك في قدراتك بعض الشيء، أقول أحسنت! ثلاث مرات أقولها ! فلتتابع مشوارك داخل هذه الإمبراطورية الغامضة، أنت أيها المحتاج العظيم.

أكيد أن الوطن الكبير سيفكر فيك، وأنا الضامن لذلك، حينما يرغم السن والعاهات، عضلاتك الحديدية على الاستراحة، بعد أن أنهكها العمل لصالح هذا الوطن.. ولصالح قضية جميلة ونبيلة.

أوجست موليراس

المغــرب المجهــول

- مقدمة
- تأملات عامة حول المغرب
- أقاليم المغرب
- الإسم الحقيقي للمغرب
- الأعراف
- الأمازيغ
- العرب
- الزنوج واليهود
- ثروات وسكان المغرب
- الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا.

مقدمـة

تأملات عامة حول المغرب

إن وصف المغرب الذي أشرع فيه الآن عبر هذا المجلد الأول، قد تم انطلاقا من الملاحظات المباشرة ودون اللجوء إلى الكتب. ولأنني لم أعتمد على أي مؤلف، فإنني لن أستشهد بأي واحد. فكل المعلومات التي أقدمها تعتبر جديدة تماما ولم يسبق نشرها. ولقد استقيتها، كما قلت سابقا، من رحالة مسلمين لم يخفوا عني أي شيء، معتقدين بأنني واحد منهم. وستكون أحسن مكافأة بالنسبة لي هي أن تنتفع فرنسا بهذا العمل، إذا ما كان مفيدا لها.

ولأن المغرب يعتبر مجهولا تقريبا، وذلك للأسباب التي عرضتها في المقدمة، فهل يتعين علينا أن نبقى إلى ما لا نهاية، أسرى هذا الجهل الذي لا يشرف في شيء، قرن الاكتشافات العظيم هذا؟ لا أعتقد. ولذلك، فبالرغم من عظمة المهمة وصعوبتها، وبالرغم من الثغرات والنقائص التي ستشوب هذا الكتاب بكل تأكيد، فإنني لن أتردد في اقتحام هذا البلد الذي لم يكتشف بعد.

لقد مد لنا الدرويش يده، فلنمد له يدنا أيضا دون خوف، ولنقتحم معه هذه الإمبراطورية المرعبة. فمع هذا المرشد وبرفقة أصدقائنا الآخرين من الرحالة المغاربة، فإننا لن نتيه ولن يتجرأ أحد على القول بأننا غرباء عن البلد. لكن ونحن ندخل هذا الأخير، لندع الله مثلما يدعوه المسلمون الذين ينخرطون في مغامرة خطيرة ولنقل: " اللهم احفظنا من الأنياب الخبيثة للحاسدين والمغالين في تقدهم ".

أقاليم المغرب

ما هو هذا البلد الجديد علينا؟ صحيح أن شواطئه معروفة بما فيه الكفاية؛ لكن داخله يظل قابعا في ظلمة شبه تامة منذ أن وجد العالم. ومع ذلك، توجد به ساكنة نشيطة، أثبتت حيويتها باستيلائها على إسبانيا والاحتفاظ بها عدة قرون. وقد عرفت فترات من المجد في تاريخها، حيث نافست على مستوى القوة والأبهة، إمبراطورية خلفاء الشرق العظيمة. فما هو هذا البلد الذي لا يمكننا معرفته بعمق إلا في حالتين:

1- إذا ما قامت قوة مسيحية بغزوه.

2- إذا قرر المكتشفون تعلم العربية بشكل ملائم.[10]

يتشكل المغرب الشمالي من ثلاثة أقاليم:

1 - **الريف**: ويمتد على شواطئ المتوسط، من إقليم وهران إلى القبيلة البحرية لغمارة، غير بعيد عن تيطاوين (تطوان).[11]

2 - **جبالة**: جنوب الريف وتشغل كل الساحل المتوسطي، انطلاقا من الحدود الغربية لهذا الإقليم؛ بالإضافة إلى شريط بالساحل الشمالي للمحيط الأطلسي.

3 - **دائرة فاس**: جنوب جبالة، وتمتد من غرب وجدة إلى المحيط الأطلسي.

ويتضمن وسط المغرب ثلاثة أقاليم:

1 - **حوز مراكش** الذي تحده البرابر Braber شرقا والمحيط الأطلسي غربا.

2 - **البرابر**، وهو إقليم هام يشمل قلب المغرب.

3 - **الدهرة**، وتشكل الحدود الشرقية للمغرب، حيث تمتد على طول حدودنا الوهرانية من وجدة إلى فجيج.

وهناك أربعة أقاليم تحد المغرب جنوبا:

1 - **سوس**.

---

[10] - إنني مقتنع بأن الفرضية الأولى ستتحقق قبل الثانية.

[11] - يشوه كتابنا الأوروبيون باستمرار الكلمات العربية والأمازيغية. لذلك فأنا أحافظ بصرامة في كتابي، على التدوين الحقيقي والعلمي للأسماء المغربية، حتى ولو اقتضى الأمر وضع الإسم المبتور المعروف في أوربا، بين قوسين، إذ يجب النطق بكل حروف الكلمات العربية والأمازيغية.

2 - درعة.
3 - الساقية الحمراء.
4 - الصحراء.

وهذا التقسيم معروف لدى المغاربة المتعلمين، لكنه مجهول بأوروبا؛ وهو يقدم صورة جديدة عن هذه الإمبراطورية التي تبدو حسب خرائطنا مقبلة على فوضى وعلى اضطراب، لا مثيل لهما في أي بلد آخر.

الاسم الحقيقي للمغرب

كل الكتاب الأوروبيين، يؤكدون بقوة على أن المغاربة لم يعطوا أي اسم لبلدهم.. وهذا أيضا خطأ يحسب على جهلهم باللغة العربية. أما الحقيقة فهي كما يلي:

إن المغاربة ينعتون بلدهم في مجموعه باللفظة المألوفة: الغرب. ويمنحون لأنفسهم اسم مغاربة ومفرده مغربي. أما تسمية Maroc و Marocain ، فهي مجهولة لديهم تماما، إذ أن لفظة " ماروك Maroc "، هي كلمة مشوهة بشكل فظيع، نتعرف من خلالها بالكاد، على التعبير العربي لمراكش، المدينة الرئيسية للإقليم الذي يحمل نفس الإسم.

وفي العربية الفصحى، نجد المغرب الأقصى كمقابل للفظة Maroc ؛ ويستخدم الأهالي المتعلمون وحدهم هذه الصيغة أثناء حديثهم؛ لكنهم ينطقونها: ElMag'rib أو El Mag'reb أو El Mug'rib (avec un i) ، حتى لا يتم خلطها مع لفظ مشترك وهو El Mug'reb (المغرب، الذي يفيد غروب الشمس). ولم يتمكن العديد من المستشرقين الأوروبيين من وضع هذا التمييز، لأنهم كانوا يجهلون النطق الحقيقي للكلمتين.

وكيفما كان الحال، فعلى اعتبار أن كلمة El Mag'rib أو El Mug'rib (المغرب) لم تكن مستعملة إلا في العربية الفصحى أو من طرف بعض المتحذلقين القلائل، فإنه لا مجال لتبنيها على حساب اللفظة المألوفة وهي الغرب، التي يشير من خلالها، كل من المغاربة والجزائريين المتعلمين والأميين، العرب والأمازيغ إلى المغرب Maroc . ويجب أن تحل تسمية الغرب التي يبررها استعمال مختلف سكان إفريقيا الشمالية، بما فيهم المغاربة أنفسهم، محل اللفظة الهمجية والغريبة " ماروك Maroc "، المثبتة في خرائطنا وجغرافيتنا.

وتفاديا لمزيد من التعقيد، ودون اعتبار للجمع في اللغة العربية، يتعين أن تكون كلمة مْغَرْبي Mr'arbi أو بالأحرى غربي، هي اللفظة المعبرة عن عرق سكان الغرب برمتهم. وأنا لا أشك مع ذلك، في الصعوبات التي ستلاقيها هذه التعديلات الصحيحة، إذ من الذي يستطيع مقاومة الروتين القوي والمقدس؟

الأعـــراق

لقد كانت الأراضي الممتدة من الصحراء إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن المحيط الأطلسي إلى الحدود الوهرانية، منذ العصور القديمة الأولى، مهد شعوب يحاول التاريخ دون جدوى النفاذ إلى أصولها. ولأنه يتشكل من هضاب جبلية ومن سهول شاسعة ويمتلك أعلى قمم الأطلس ويحيط به بحران عظيمان وتسقيه أكبر مجاري الأنهار بإفريقيا الشمالية، باستثناء النيل، فإن المغرب أنتج أو جذب إليه مبكرا، أعراقا نشيطة ومحاربة بشكل كبير.

الأمازيغ

يوجد حاليا بالمغرب شعبان رئيسيان وهما: الأمازيغ والعرب. ومن المحتمل أن يكون الشعب الأول هو ساكن البلد الأصلي، في حين أتى الشعب الثاني كغاز.

ولا يعرف أصل الأمازيغ، ولربما ظل الأمر كذلك إلى الأبد. وقد شغلوا منذ زمن سحيق، كل ذلك الجزء من إفريقيا الشمالية الممتد من الصحاري الليبية إلى المحيط الأطلسي ومن المتوسط إلى السودان.

إن المازيغ المغاربة الذين رأيتهم (الريف ، سوس ، مراكش، درعة)، هم على العموم أقصر قامة من العرب. فطولهم قريب إلى حد ما، من طول الفرنسيين. وتجعلهم خصائصهم الجسدية، شبيهين بأعراق جنوب أوروبا، مع ملامح صلبة أكثر بروزا مما هو عليه الأمر لدى القرويين الفرنسيين. أما خصائصهم الأخلاقية فلا تتميز كثيرا عن خصائص العرب الذين أخذوا عنهم تعصبهم الديني. ولربما كان الأمازيغي لا يكذب بسهولة مثل العربي، إلا أنه يكذب مع ذلك، في غالب الأحيان. وهو لا يأخذ من التعاليم القرآنية سوى ما يتعلق بصوم رمضان، لكن ذلك لا يمنعه من أن يكون متعصبا مثل أبناء ملته في العالم بأسره.

وكعرق لا يروض، فإن الأمازيغ شكلوا منذ فجر تاريخهم، كابوسا للغزاة الذين أرادوا إخضاعهم. فكل من القرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والإسبان والأتراك، لم يحظوا بفترة هدوء مع هؤلاء الأعداء المهددين لوجودهم باستمرار. وإذا ما كانت القوة العظيمة لفرنسا حاليا، قد تمكنت من السيطرة عليهم في الجزائر، فإنه في حالة ضعفها سيحدث التمرد سواء لدى الأمازيغ أو لدى العرب. لذلك، فإن شعار الأمم الأوروبية التي تخضع هؤلاء الأعداء غير المتسامحين مع المسيحية هو: الصرامة القصوى والعدالة القصوى.

ويعتبر التفكير في إدماجهم بمثابة يوتوبيا لا يكترثون بها أبدا. فالمسلم يعتقد، بفعل دينه وتاريخه وحضارته الواقعية جدا، بأنه مطالب بنشر الدعوة وسط الشعوب. فلديه نفس المشاريع التي وضعناها بشأنه. وهو يريد هدايتنا وأسلمتنا ودمجنا بالإقناع أو بالقوة. وقد علم باندهاش، لكن دون اضطراب، بأن لدينا بشأنه مشاريع مشابهة. ولهذا فهو يقبل الصراع ويتمادى في الاعتقاد بأن الكتلة الإسلامية لن تمس وأن النصر النهائي حليفه. ومنذ أن عرف مخططاتنا أصبح أكثر مقاومة لممارستنا التحضيرية.

إن الأمازيغي الجزائري بالخصوص، والذي وضعنا فيه آمالنا، أصبح معربا أكثر فأكثر، فهو يشارك مضطهديه القدامى الذين كانوا أيضا معلميه، نفس القضية. ومجمل القول، لقد كان مسلما وسيظل كذلك. فالاختراق العربي مارس عليه تأثيرا مفسدا إلى الحد الذي فقد فيه، أينما تم تعريبه، ليس فقط حب الوطن، بل فكرة هذا الأخير ذاته، وهي فكرة مقدسة شكلت أساس قوته وكانت شعارا له على مدى أربعة وعشرين قرنا من الصراعات الضارية ضد الشعوب الغازية. وكل ما في الأمر، أن حب مسقط الرأس قد عوض لديه بالتعصب؛ وهذا حاجز لا يمكننا الالتفاف حوله ولا اجتيازه.

أما الأمازيغ المغاربة الذين يغرق العرب وسطهم، فقد ظلوا إلى حد الآن، أمازيغ حقا وحقيقة، أي مرتبطين كثيرا بالأرض وبالمنطقة التي ولدوا بها.

إلا أن نزعتهم الوطنية لا تشمل كل المغرب في الواقع، فهي إقليمية بالأساس ولا تذهب أبعد من الحدود التي رسمتها الطبيعة أو الانتصارات، لأقسامهم الترابية. وسيساهم العبقري الذي باستطاعته جمع كل هذه القوى الأمازيغية تحت راية واحدة، وهي القوى التي يجهل بعضها بعض ويشل بعضها بعضا، في خلق إمبراطورية قوية على أبواب أوروبا، يكون وزن سيفها ثقيلا في ميزان الأمم.

ولا تعرف المصادر السياسية للأمازيغ ولا ميولاتهم الفكرية ولا تطوراتهم الاجتماعية، إلا بشكل يسير، نظرا للمعلومات الضئيلة والعقيمة؛ وهي معلومات مدونة من طرف أعدائهم

بسوء نية وجهل مفرطين. وأنا لن أبحث في ماضي هذا الشعب، فذلك لا يهمني. أما اليوم، فإن الأمازيغ يشكلون عرقا متميزا، ذكيا، شغالا ويتصفون بعبقرية أكثر عملية من عبقرية العرب.

وعادة ما يتم إرجاع ما أنجز من الأشياء العظيمة والجميلة في كل بلاد الأمازيغ إلى الأجانب الذين جاؤوا كغزاة، لكن ننسى بأنه منذ بداية الاحتلال القرطاجي، فإن بلدان العرق الأمازيغي كانت متوفرة على مدن آهلة بالسكان وغنية بشكل كبير، وكان الأجنبي يدخلها بسهولة.

ومما لا شك فيه أن سكان صيدا القدامى، قد علموا الأمازيغ الشرقيين الذين علموا إخوانهم الغربيين، بعض الصناعات الكمالية مثل: صناعة الزجاج ونسج الأقمشة الباذخة والكتابة الأبجدية.[12]

غير أن الأمازيغ كانوا يتوفرون، قبل هذه الغزوة الأولى، على حضارة جعلتهم أندادا للتجار الفينيقيين. ولربما كانت المدن المهدمة التي حددت لي أطلالها الهامة في قلب إقليم البرابر، سابقة على المرحلة القرطاجية والرومانية، ويدعوها سكان المنطقة أطلال نامير Ruines de Nemroà . وهذه لفظة معبرة، تفيد بأن الأمازيغ كانوا معاصرين لأقدم الآثار في العالم.

العــرب

يشكل الأمازيغ ثلثي سكان المغرب تقريبا. ويتشكل الثلث الباقي في غالبيته من العرب، ويأتي بعدهم الزنوج واليهود. ولربما سمحت إطلالة سريعة على أسباب عظمة وانحطاط العرب، بتصور الخاصية التي يصعب تحليلها، والتي تميز هذا الشعب الغريب والمعروف بالكاد.

إن ديانة المسيح شقت طريقها ببطء، فقد كانت قبل كل شيء كيانا أخلاقيا أمر بعدم إشهار السيف. وعلى العكس من ذلك، فإن الدعوة الاسلامية التي جعلت كنوز الأرض ونعيم الآخرة، تتلألأ أمام أعين أتباع محمد (ص)، قد دفعت بالعرب إلى غزو العالم كشلال هادر. وقد نزل غزو هذا العرق الذي جاء متأخرا، كالصاعقة. ففي أقل من قرن، كانت المساحة الشاسعة الممتدة من نهر الغانج Gange إلى جبال البرانس Pyrénées، تخضع لحكم الخلفاء. وكان الشاطئ الشمالي لإفريقيا من أولى المناطق التي احتلها هذا الشعب الجريء الذي تختلف عبقريته عن عبقرية الرومان. ففي حين كان الروماني يرجع كل شيء إلى الدولة ويتقبل المركزية المفرطة، فإن العربي الذي كان قد انتقل فجأة من الحياة الرعوية المتواضعة إلى واقع السلطة السياسية،

---

[12] – لقد كان التدوين المزدوج للغة التوغا Thugga ، يتم بالبونيقية وبالأمازيغية.

حافظ رغم كل شيء على العادات المستقلة لحياته الجوالة كراع رحال ونهاب. لقد كان ملكا في صحرائه ويريد أن يبقى كذلك وسط أعدائه المهزومين، حيث يفرض على الجميع طاعة الرؤساء والتحالف مع رفاق السلاح. وبعد انتهاء الفتح، يعود العربي كما كان قبل الحرب المقدسة، أي عدو كل سلطة وكل من يقف أمام غرائزه، كإنسان آت من فضاءات شاسعة. وهذا تناقض فريد من نوعه.. ففي حين تحمله طبيعته نصف المتوحشة على حب الحرية دون قيد ولا حد، فإن كبرياءه تلزمه بقبول أوليغارشية، يقوم بمحاربتها حالما لا يعود منتميا إليها، حيث يبني ويهدم تباعا، هذه الطوائف Coteries المشاكسة التي دمرت تدريجيا تحت اسم الصف çaff؛ الإمبراطورية العربية الشاسعة، وجعلت من الصعب في الجزائر الحالية مثلا، إدارة هؤلاء الرجال غير المنضبطين الذين خلقوا فقط من أجل الحرب والدسائس.

لقد قام الرومان عند بسط سلطتهم على العالم القديم، بدمج الأمم الخاضعة لهم، داخل إمبراطوريتهم الشاسعة، بجعلها رومانية. أما العرب الذين كان همهم الوحيد هو نشر ديانتهم مع أخذ الغنائم، فلم يفكروا ولو لحظة واحدة بالاندماج داخل وطن. فهناك شبه جزيرة عربية، وهناك قبائل عربية متناحرة فيما بينها، لأن الأمة العربية لم تتشكل وربما لن تتكون أبدا. فالعرب يحملون شعورا عميقا إزاء ديانتهم، وليس لهم وعي بقوميتهم. فكيف كان بإمكانهم التفكير، وسط انتصاراتهم، في جمع هذه العناصر المتفرقة والمتنافرة المكونة لممتلكاتهم العريضة، تحت راية واحدة؟

وفي إطار الانقسام العام الذي وجد فيه كل عرق وكل أمة وكل قبيلة، نفسه محتجزا وشبه معزول وسط الفوضى الإسلامية، فإن الشعوب الخاضعة، ومنها من اعتنقت الإسلام، ستحافظ على تقديس الوطن وسيعمل كل واحد منها، حسب الظروف العامة أو المحلية، على طرد أو إخضاع هؤلاء الأسياد اللامبالين والمستخفين، الذين لم يحسنوا معاملتهم، من أجل دمجهم بأكبر إمبراطورية عرفها التاريخ. إن العربي لم يكن فاتحا ولا مستعمرا بالمعنى المتداول لهذه الكلمات، بل كان ومازال داعية،[13] ومبشرا متحمسا؛ فهو لا يدمج الشعوب بل يهديهم ويؤسلمهم musulmanise ؛ وهي مهمة عظيمة، تكفي وحدها لتحقيق مجده. فالانشغال الأساسي لهؤلاء الغزاة، أو لنقل همهم الوحيد، كان هو جعل كل شعوب العالم مسلمين. وكان هؤلاء الدعاة الشرسون الحاملون السيف بيد والقرآن بيد أخرى، يكسبون نفوسا تطيع الله، دونما اهتمام بإضافة إقليم إلى وطن أرضي غير موجود بالنسبة إليهم. وتترجم أقوال عقبة بن نافع بوضوح هذا الموقف الثابت لدى كل المقاتلين المسلمين؛ إذ يحكي أنه بعد وصول هذا القائد إلى الشاطئ

---

[13] – فضلنا كلمة داعية على كلمة كاهن كمقابل للفظة الفرنسية prêtre . (المترجم)

الأطلسي، متبوعا بالفئة المحدودة والشجاعة من الجنود الذين عبر معهم شمال إفريقيا كالسهم، دفع بفرسه إلى موج البحر مخاطبا ربه، بأنه لولا الأمواج التي وقفت حاجزا أمامه، لاستمر في مسيرته من أجل نشر كلمة الله الطيبة والإعلان عن عظمة إسمه. وقد وقف الجيش كله وراء قائده وانحنى إجلالا للإرادة الإلهية، مرددا عبارة: الله أكبر. وسيعسكر عقبة ذلك اليوم على الشاطئ، وفي اليوم الموالي سيتوغل مع مجموعة من الدعاة المسلمين داخل المناطق الجنوبية للمغرب، ليس من أجل الغزو، ولكن من أجل الهداية إلى الإسلام.

إن الهيمنة الدينية والفكرية للعرب، قد تطورت بشكل يلائم عبقرية هؤلاء الرحل الحالمين والمهووسين بالحرية والشغوفين بالحرب المقدسة والنهب، علما بأن الهيمنة السياسية بالمعنى الدقيق، لم تكن موجودة بالنسبة لهؤلاء المبشرين المحاربين الذين كانوا يجهلون الإسم الجميل للوطن. وقد وصلت هذه الهيمنة إلى الذروة في عصر هارون الرشيد وأشعت بقوة لا مثيل لها على باقي العالم. وتمثل هذه المرحلة أوج وبداية انحطاط العرق الذي يهمنا. وستتحدد ساعة نهاية هذه الهيمنة بدقة بالغة، أي في اللحظة التي سيعيد فيها انقسام سلطة خلفاء المشرق الناتج عن غياب الشرعية القومية لدى العرب، هذا العرق إلى الفوضى؛ ويسلم هذه المجموعة من الرجال إلى ظلمات الجهل من جديد، وهي التي اتسمت بالشجاعة واعتبرت من أكثر الجماعات موهبة وإشعاعا خلال القرون المنصرمة.

الزنوج واليهود

سأتحدث بإيجاز عن الزنوج واليهود المغاربة الذين يشكلون أقلية ضئيلة ومحتقرة؛ علما بأننا سنتعرف عليهم بشكل أكبر عبر صفحات هذا الكتاب، ويعتبر مواطننا الفيكونت دو فوكو Vicomte de Foucauld، هو الكاتب الأوروبي الوحيد الذي درس اليهودي المغربي عن قرب ولاحظه بشكل جيد. فلقد سقط اليهودي المغربي، وفيما عدا بعض الاستثناءات، في أدنى درجات الخسة التي انغمس فيها بفعل دناءة طبيعته وقساوة أسياد البلاد.

أما الزنجي فقد أفلت، حينما أصبح مسلما، من هذا الانحطاط المعنوي والجسدي الناتج عن التعصب والقمع. فهو لا يختلف عن سيده الذي ينافسه أحيانا في الشجاعة والتعصب والكرم؛ إذ أن المسلمين الذين لا يرأفون بعبيدهم الكفرة، يبدون لطفا رائعا اتجاه إخوانهم في الملة من

العبيد الذين أصبحوا ملكا لهم، بفعل قوة السلاح أو نتيجة ضيق ذات اليد. وهذا مثال عظيم للطيبوبة، قدمه هؤلاء المسلمون للقوى المسيحية، على مدى قرون طويلة، لكن بدون جدوى.

ثروات وسكان المغرب

إن المغرب، المجاور لنا، بلد رائع. وليس هناك في إفريقيا الشاسعة بلد أجمل ولا أكثر تنوعا ولا أغنى منه. ويعتبر اعتدال مناخه ولطافته مضرب الأمثال عند العرب. كما أن خصوبته لا مثيل لها، إذ يكفي أن نلقي حفنة من القمح على أرض مخدوشة بالكاد بالمحراث الخشبي، كي نحصل على حصاد رائع. وقد كان من الممكن أن يكون هذا البلد الموجود في منطقة معتدلة والمحاط ببحرين كبيرين والمروي بأمطار آتية من جهتهما، مخزنا زراعيا غنيا بالنسبة لكل إفريقيا الشمالية، لأنه لا توجد أرض غنية ومعطاء، مثلما هو الشأن في المغرب. وبينما يعاني جيرانه بالشرق من الجفاف، فإن المغرب لا يشتكي إلا من العدد الكبير من الفيضانات التي تكون ذات فائدة مع ذلك والتي تغمره في فصل الشتاء، مؤدية إلى نمو الأعشاب في مروجه، حيث ترعى قطعان الماشية الوافرة العدد التي يمتلكها الرحل.

ورغم ذلك، فإن احتقار الملوك القادمين من الصحراء للأعمال الزراعية والضرائب المفروضة على الفلاحين والمنع الكلي لتصدير الحبوب، كل ذلك شكل ضربة قاضية للفلاحة المغربية. لذلك ظلت الساكنة القروية على حالها ولم تستفد من محصولاتها. كما أن كمية المنتوجات الفلاحية المعروضة في الأسواق، كانت بالكاد تكفي لحاجيات السكان.

وفي كل الأقاليم والسهول، كما في الهضاب، يتم على الخصوص الاهتمام بتربية الخراف والماعز والأبقار والجياد والبغال. وتعتبر الجمال والخراف موارد ثمينة بالنسبة للرحل، ولا يوجد تصدير الحيوانات إلا على حدودنا، وهو لا يقتطع من المغرب سوى جزءا يسيرا من ثروته الرعوية؛ كما أن ثمن الأبقار والخراف زهيد جدا في كل الإمبراطورية، باستثناء المدن التي يتواجد بها الأوروبيون. فالخروف الجيد يساوي ثلاثة فرنكات في السوق والثور السمين نادرا ما يتجاوز أربعين فرنكا.

أما الجبال المغربية العديدة والرائعة والتي يسمح لها ارتفاعها بالتوفر على الثلوج بشكل دائم، فإنها مكسوة بغابات شاسعة، عالية الأشجار وبأدغال خطيرة تعيش فيها حيوانات مفترسة.

ومن بين المفاجآت السارة التي تنتظر الأسياد المحتملين للمغرب، نذكر في المقام الأول، الثروات المعدنية لهذا البلد الذي نجد فيه بكثرة، كلا من الذهب والفضة والنحاس والرصاص، إلخ...

وقد سجلت بعناية في حكاياتي وخرائطي، الأماكن التي توجد بها المناجم المعدنية لهذه المنطقة الغنية والتي لم تستغل بعد. وهناك مفاجأة سارة أخرى، خصوصا بالنسبة للقوة التي ستقوم بتدبير مصير المغرب، ويتعلق الأمر بالعدد الإجمالي لسكان هذه الإمبراطورية. وكل أملي، هو أن أبرهن بالفعل، على أن جميع التقديرات المنجزة إلى حد الآن، بهذا الصدد، هي تقديرات من نسيج خيال مؤلفيها، وحتى تلك التي تبدو فيها المبالغة، تظل أقل مما يقدمه الواقع. فالمغرب آهل بساكنة أكثر عددا من ساكنة الجزائر التي نلح دائما على مقارنتها بها. ويجب أن نعلم بأن الأمازيغ يشغلون أغلب أجزاء البلد، جبالا و سهولا؛ وأن قبائلهم سواء كانت معربة أم لم تكن، تمتد بعيدا حتى الجنوب.

وإذا ما أردنا وضع مقارنة بين ساكنة المغرب وساكنة منطقة شبيهة إلى حد ما بالمغرب، من حيث الأرض والرجال، فإن القبايل هي التي يجب أن تستخدم كنموذج لهذه المقارنة. وبالفعل، فهنا وهناك، نجد نفس العرق والأرض والعادات واللغة، باستثناء بعض الخصوصيات اللهجية البسيطة، ويحظى المغرب بامتيازعلى منطقتنا القبايلية. فلكونه ظل على الدوام مكان لجوء المسلمين المغلوبين، فإنه سيتوفر بالضرورة على أكبر عدد من السكان بالكيلومتر مربع. فطرد الموركسيين من إسبانيا وغزو الجزائر من طرف قواتنا، مكن جارنا من ربح ملايين المهاجرين. أضف إلى ذلك، أن الحرب الخارجية لم تؤد أبدا إلى أضرار داخل هذه القلعة المحصنة للمسلمين الأفارقة.

وإذا ما وضعنا مقارنة بين متوسط الساكنة بمنطقتنا القبايلية، والذي يقدر بتسعين نسمة في الكيلومتر مربع، فإننا سنلاحظ بأن المغرب بمساحته البالغة 812 ألف كلم مربع، يمكن أن يتوفر على 73 مليون نسمة، أي نفس عدد سكان روسيا. لكن، نظرا لكون الصحراء تمتد على أكثر من ربع هذا البلد الشاسع، فيجب، كي لا نسقط في المبالغة ولكي نحقق التوازن بين الأجزاء الأهلة والأجزاء غير المأهولة، أن نقر بوسط سكاني أقل بالثلثين من الرقم المذكور، أي ثلاثين نسمة تقريبا في الكيلومتر مربع. وهذا الرقم المتواضع والأدنى مما يوجد في الواقع على الأرجح، سيعطينا على الأقل 24 إلى 25 مليون نسمة بهذا البلد الجميل المعروف بالكاد، والذي يلح جغرافيونا على تقدير عدد سكانه فيما بين خمسة وستة ملايين من النفوس.. ولا بد ان يكون المغرب آهلا بالسكان، لأنه بإمكان قبيلة واحدة من قبائل الأمازيغ أن تواجه كل قوى السلطان مجتمعة وأن تجهز للمعركة 100 ألف مقاتل. وتبدو لنا معاركنا بالداهومي Dahomy وطونكان

Tonkin مجرد مناوشات خفيفة إذا ما قورنت بالمجزرة المرعبة التي تحدث عندما تصطدم قبيلتان فيما بينهما. ففي أواسط شهر ماي من هذه السنة، تنازعت قبيلتان، ليستا هما الأكثر عددا من بين القبائل، بالقرب من الحدود الجزائرية وهما المهاية وبني زناسن؛ وقد تركتا على أرض المعركة 600 رجل و 300 فرس. واقترفت هذه المجزرة في أقل من ثلاث ساعات، بدون مدافع، وببنادق قديمة وبالسيوف أو بالسلاح الأبيض إن صح القول. وقد أكد لي المغاربة الذين تحدثوا عن هذه المعركة، بأن المغرب هو وكر نمل يعج بالرجال، وفقدانه ل 600 رجل شبيه ب 600 قطرة ماء ناقصة من البحر..

إن المسلمين الأفارقة الذين طاردتهم الجيوش الأوربية المنتصرة لم يجدوا سوى ملجأين أخيرين بإفريقيا وهما: ليبيا والمغرب. ورغم شساعتها، فإن الصحراء لم تمنحهم سوى مقاما بسيطا لا يليق بالعيش الكريم والأمن. ولم تكن ليبيا، هذا البلد القاحل والخاضع للسيطرة المنفرة للأتراك، لتمارس عليهم أية جاذبية تذكر. أما المغرب، فقد كان بمثابة الأرض المضيافة النموذجية وجنة المسلمين المرغوب فيها والقلعة المحصنة للإسلام والأرض المباركة التي يسودها إلى يومنا هذا الحفدة النبلاء لفاطمة الزهراء، البنت المحبوبة للرسول (ص). وإذا ما نجت هذه المنطقة المحظوظة من أطماع الأمم الغازية، في المائة سنة المقبلة، فإنها ستتوفر عند نهاية القرن العشرين على حوالي 40 مليون نسمة. وبدون انتظار لهذه المدة الطويلة، فإن الإمبراطورية بإمكانها من الآن، وبساكنتها التي تناهز 25 مليون نسمة، أن تبرز فوق حلبة القوى العظمى؛ وذلك إذا ما قررت الدخول فعلا في دوامة الأفكار والسياسة الأوروبية.

لكن، من المرتقب أن يظل المغرب محافظا على هدوئه وسكينته العميقة التي حظي بها منذ قرون. فالمسلم المغربي لن يتخلى أبدا عن أحلام اليقظة اللطيفة وعن الحرية اللامتناهية والحياة البسيطة والسهلة، وذلك بغرض الارتماء داخل دواليب أنشطتنا؛ وهي الأنشطة التي لا يرى فيها سوى الجانب المادي، أي تلبية الحاجيات المتجددة باستمرار والرغبة اللامحدودة في اكتساب الثروة. ومع ذلك، كم سنكون مخطئين لو تصورنا أن وكر النمل هذا، الذي يعج بالرجال، لا يتوفر على أفكار ورغبات وأهواء وأنشطة؛ أو تمثلناه كبلد مصاب ببلادة لا أمل في الشفاء منها.. إن المغرب يشبه خلية نحل منغلقة بشكل محكم، ولا يمكن لطنين وحركات النحل الشغال ولا لحلبة المعارك والمنافسات بين المالكين للخلية أن تخترق الجدار المانع الذي يفصلها عن الخارج. ويجب أن نكون نحلا في الخلية لرؤية الحياة النشيطة داخل شبه التابوت هذا. فالأمر يتعلق بحضارة حقيقية هي نتاج للتعاليم القرآنية وبثقافة مثيرة، سائدتين في المناطق المغربية.

إن الزوار الأوروبيين البعيدين عن معرفة المجتمع الإسلامي الحقيقي والذين لا يضبطون اللغة العربية ولا يرون أي نشاط منبثق عن هذا الشعب الغريب، قد اختلطت عليهم الأمور واعتبروا الحالة الوجدانية التي لم يدركوها مجرد بلادة أو انتشاء دائم. وحتى اليهودي المغربي نفسه، ليس أكثر دراية من المسيحيين، بالحياة الحميمية لأسياده. فهو محتقر ومهمش في أغلب المناطق المستقلة داخل الإمبراطورية، أي في خمسة أسداس المغرب.وهو بالكاد مقبول في بعض المناطق التي يتواجد بها، لكنه يظل على مسافة بعيدة عن سيده المسلم الذي يحتجزه هو وزوجته وأبناؤه، داخل غيتوهات مخزية، معروفة تحت الاسم المهين: الملاح.

الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا

يبدو أن فرنسا مدعوة لخلافة العرب على مستوى الهيمنة الثقافية التي مارسوها في كل البلاد الأمازيغية، منذ فتوحاتهم الأولى، ومدعوة أيضا لخلافة الأمازيغ على مستوى الهيمنة السياسية التي ما فتئ هؤلاء المحاربون الأشداد يمارسونها فعلا لمواجهة سيطرة الغزاة، بالرغم من الانتكاسات التي لحقتهم. لقد كان العربي داعية مشاكسا لا يشبع، وكان الوندالي متوحشا والروماني طاغية مستحوذا والقرطاجي تاجرا عابدا للعجل الذهبي. ويجب أن يكون دور الأمم الحديثة المؤهلة لقيادة الشعوب المسلمة، مغايرا تماما.

فبعد الدروس القاسية للحروب الصليبية وبعد المسار الشاق للاستعمار الذي تم في شروط غير ملائمة، نصف علمية ونصف حضارية؛ ها هي الأمم الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، ترسم لنفسها هدفا في فجر القرن التاسع عشر، وذلك في إطار حملتها الاستعمارية الإفريقية. وهو نموذج ينفلت تماما من تصورات وأحكام الشرقيين. وقد اتبعت كل أمة من هذه الأمم الطريق التي رسمتها منذ قرون، أكثر المبادئ الأخلاقية صفاء، لكن النتيجة كانت عكسية. وبهذا الصدد، تعتبر فرنسا الأقل تعرضا لنفور المسلمين. فهؤلاء يؤاخذون علينا فقط طبعنا المتساهل، بالمقابل فإن العيوب التي يجدونها في الشعوب الأخرى كبيرة. ولن أذكر هنا سوى الأمم التي يمكن أن تطمع في امتلاك المغرب، وسأقول بصراحتي المعهودة ما يتصوره عنها المسلمون المغاربة خصوصا. فقد قالوا لي مرات عديدة: « **إننا لا نحب عجرفة وبرودة الإنجليز ونكره تعصب وقصر نظر الإسبان والتهور التراجيكوميدي للإيطاليين وثقل ظل الألمان. ورغم طيش الفرنسيين وميلهم**

نحو اليهود، إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي سنختار لتحكمنا، إذا ما أجبرتنا الظروف على ذلك ».

فيا فرنسا الطيبة والغالية، إن حبك اللامحدود للشعوب وخصالك النبيلة وكرمك الخيالي والعظيم، تجلب لك التعاطف وتؤثر في القلوب الأكثر قساوة. لكن جهلك بالرجال وبمحيطهم، وإرادتك الراسخة في إقرار سعادة البشرية، رغم كل شيء، كانا السبب في ارتكابك لأخطاء شنيعة وإساءات مؤلمة . فقد أردت إدماج المسلمين. ودفع بك فلاسفتك الذين لم يسبق لهم أن رأوا عباءة البرنوص، باتجاه هذه الطريق المعطاء لكن المحفوفة بالمخاطر.

فقبل التفكير في إدماج المسلمين وجب معرفتهم. ذلك أن كل مسلم يولد وفيه شيء من الدبلوماسية. وسيكون أكثر رجالنا السياسيين دهاء، مجرد تلميذ أمامه، فالمسلم يشكل لغزا، وهو معروف فقط من طرف بعض المسيحيين القلائل الذين شاطروه حياته واندمجوا معه إن صح القول. وهو من طبيعة مرنة، ذكية، متمرسة على المجادلة، تلتف ببراعة على الصعوبات، منفعلة، لكنها تحسن الانتظار؛ لذلك فنحن لن نجد فكرا أعقد من فكره، فهو أكثر غموضا بالنسبة للآخرين، بل حتى بالنسبة لنفسه. ورغم أهمية تعليمنا، فإنه لن يغير من هاته الطبيعة شيئا. فلتحقيق ذلك، يتعين أن نجرده من ديانته، وهذا أمر مستحيل، علينا تجنب محاولة القيام به.

هل معنى هذا، أننا ملزمون بالتخلي عن استعمال هذه القوة العظيمة التي تضغط بشمال وفي قلب إفريقيا؟ كلا.. بل يجب علينا استعمالها واستغلالها في أقرب وقت ممكن.

وما دام المسلم غير قابل للإدماج، فلنتركه مع أفكاره ومعتقداته المحترمة إجمالا بشكل كبير، ومع عاداته وقوانينه وأعرافه العتيقة وأحواله الشخصية وأحكامه المسبقة، التي تشكل سعادته الوحيدة في هذا العالم.. ولنحصل فقط على مساهمته معنا في ثلاثة أعمال أساسية وهي: الحرب والزراعة والرعي. فذلك هو كل ما يمكننا أن نستفيده منه، وهو شيء كثير. وفي عصرنا هذا الذي توجد فيه فرنسا محاطة بالأعداء، فإنها ستكون في حاجة إلى كل أبنائها للدفاع عنهاضد جيرانها الذين يفوقونها عددا. وسيكون عدد 300 ألف سيف مسلم في صفوفنا أمرا لا يستهان به. ونحن نعلم بأن شهامة المسلمين لا تضاهى، كما نعرف احتقارهم للموت. فلنعلن في الجزائر إذن، الخدمة العسكرية بالنسبة لكل الأهالي وسيقبلونها بكل سرور إذا ما احتفظتم لهم بقوانينهم وأعرافهم ومحاكمهم. وليظل المسلم غير المجنس، رعية فرنسية على الدوام. لنعامله بطيبوبة وبعدل مع الصرامة. لنمنحه إدارة مبنية على أسس جديدة، إدارة متجددة، لكن غير مختلفة عن القديمة التي يجب إصلاحها فقط. فالدواليب المعقدة لإدارتنا الحالية والبطء المحبط لعدالتنا، يثير

حفيظة هذا الشعب البدائي المتعود على قاض وحيد ذي كفاءات لا محدودة، يحسم أثناء الجلسة في الخلافات التي قد تتطلب شهورا عديدة ومصاريف باهظة بالنسبة لمحاكمنا.

صحيح أن اليهودي الجزائري كان محظوظا بالمقارنة مع المسلم، علما بأن الأول لا يتوفر على الخصال الحميدة للثاني. لكن ما زال أمامنا متسع من الوقت كي نضع في مصاف الرعية، الغريب الذي لا يستحق شرف أن يكون مواطنا فرنسيا. وستكون إعادة اليهودي إلى الوضع الذي كان يوجد فيه قبل السنة الرهيبة L'année terrible، عملية عادلة بشكل تام وفعلا سياسيا رائعا.

ويجب أن تكون للرعايا المسلمين واليهود نفس الحقوق والواجبات. فالمسلم الذي أراق دمه مرات عديدة من أجل فرنسا، يشعر بالغبن وبالتمرد، عندما يدرك بأننا نكيل بمكيالين، وبأن الكائن الذي يحتقره أكثر من أي أحد، قد يصبح أحيانا سيده، بل وسيدنا نحن.

وإذا ما كانت الجزائر وتونس بإمكانهما مجتمعتين، أن تقدما لنا 300 ألف سيف مسلم، فماذا سنقول عن المغرب، عندما يدخل نهائيا في فلك فرنسا؟ ففي ذلك اليوم، سيصبح وطننا سيد العالم. فمن هو الجيش الأوروبي القادر على مقاومة هجوم مليونين من الأمازيغ والعرب المسلحين والمدربين على الطريقة الفرنسية؟ وأية إمبراطورية استعمارية رائعة ستكون لنا في هذا الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا؟.. تونس ! الجزائر! المغرب.. وخصوصا المغرب الذي يساوي وحده أكثر من الآخرين مجتمعين ! ونتمنى أن يكون المغرب، هذا البلد الإفريقي الذي لا مثيل له، في يوم ما، أجمل زخرفة على التاج الاستعماري لفرنسا! فهذه القطعة مهمة وتستحق أن نهتم بها؛ وستكون ممتلكاتنا الأخرى باهتة مقارنة بهذا الجزء الملكي.

وإذا ما كانت غالبية المغاربة غير قلقة على مستقبل وطنها، فإن أصحاب الروية المسؤولين عن مصير المغرب، يعرفون جيدا السيف المسيحي المستعد لاختراق أعمق الأقاليم بالإمبراطورية؛ إنهم يعلمون بأن الاستقلال الحالي لهذه المنطقة الجميلة، يرجع إلى المنافسة القائمة بين القوى العظمى ولا يجهلون بأن المسألة المغربية ستحل مع مسائل أخرى، بعد الانفجار العام الذي سيلي المبارزة الأوروبية الكبرى. لذلك، فهم يبحثون عن كيفية تفادي العاصفة المدوية فوق رؤوسهم.

لقد ناقشت مرارا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلقين جدا وعن حق، على مستقبل بلدهم. والنتيجة التي توصلنا إليها، قد تقدم لفرنسا امتيازات لا تحصى وللمغرب منافع لا تقدر بثمن. **ولن تراق قطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة!** غير أن الزمن لا يرحم، وخصومنا يعملون دون هوادة لمضاعفة تأثيرهم داخل هذا البلد الرائع الذي يستحضرون ثروته

واهميته. ويجب على فرنسا التي لها الأحقية في هذا البلد، أكثر من الآخرين، أن تتأمل في قول الشاعر العربي:

وربما فات قوما جل أمرهم   من التأني وكان الحزم لو عجلوا

وهران، حديقة ولسفورد Welsford، 31 غشت 1895

أوجست موليير اس Auguste Moulieras

المغــرب المجهــول

اكتشاف الريــف

توطئــة

الريف كلمة عربية، تعني الأرض المحروثة والخصبة التي توجد عادة على ضفاف النهر أو بجانب الصحراء. وتعني كلمة " الريف " في القبايل: ضفة وشط. ويطلق الريفيون هذا الإسم على بلدهم دون فهم معناه.

ويحد الريف شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا بإقليم وهران وغربا وجنوبا بإقليم جبالة. أما في الجنوب الشرقي، فيحد على مساحة صغيرة بإقليم الدهرة. ويمتد شاطئه المتوسطي على 230 كلم تقريبا، أما حدوده الجنوبية فهي أطول. ويختلف اتساعه كثيرا ما بين الشمال والجنوب. ففي وسط الريف يصل إلى 180 كلم وعلى الحدود الغربية يصل إلى 80 كلم، أما على الحدود الشرقية فيبلغ 60 كلم . ويقسم الريف من الوسط تقريبا عبر الدرجة 35 من خط العرض، كما ينفصل عن إقليم جبالة في الدرجة 7 من خطوط الطول. وعلى الرغم من كون الريف أصغر الأقاليم المغربية العشرة مساحة، إلا أنه حافظ مع ذلك على استقلاليته منذ فجر التاريخ. فهو لم يخضع أبدا للأسياد الذين تعاقبوا على عرش المغرب. وشكل دوما ملاذا للثائرين والطامعين في الحكم . ومازال إلى أيامنا هذه، يعتبر ملجأ يستحيل اختراقه.

إن قطاع الطرق والمارقين والأمراء المتمردين وكل أولئك الذين لا يجدون الأمن في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، ما عليهم إلا أن يطؤوا هذه الأرض المعتادة على الحرية، لكي يشعروا بالأمان. ذلك أن الريفيين يستقبلون الأجانب بكل ترحاب، خصوصا منهم المرتدون الإسبان الذين نجوا من محاكم التفتيش. وتشكل عبارة " **لاإله إلا الله محمد رسول الله** " جوازا سحريا بالنسبة لكل أوروبي جعله قدره بين يدي هؤلاء الجبليين العتاة.

وعلى المستوى الإثنوغرافي، فإن الريفيين ينتمون إلى العائلة الأمازيغية الكبيرة. وهم أقصر قامة من القبايليين الجزائريين، إلا أنهم يتوفرون على قوة وصلابة فائقتين. ويمكننا رؤيتهم

بإقليمنا في كل سنة أثناء مرحلة الحصاد وجني المحاصيل، وبالتالي دراسة هذا النموذج المتكامل للعامل القنوع الذي لا يكل. وتستقبل منطقة وهران أكثر من 20 ألف يأتون عند معمرينا للبحث عن النقود الثمينة النادرة في الريف.

ومع ذلك، فإن بلادهم ليست أرضا قاحلة ما دامت قراها ومداشرها تعد بالمئات، وما دامت قبيلة قلعية وحدها قادرة على مواجهة القوى الإسبانية المتمركزة بمليلية. فالريفي يأتي عندنا فقط، كي يربح خلال شهرين ما يكفيه للعيش برخاء على مدار السنة دون أن يشتغل. وهو يشعر بمتعة الوجود وسط الفرنسيين الذين يقدر فيهم حسن نيتهم ولطفهم النسبي. بالمقابل، فهو يمقت اليهودي والاسباني، الأول باعتباره ملعونا من الله، والثاني باعتباره عدوا أبديا.

وأريد أن أترك جانبا كل اعتبار سياسي في عمل علمي خالص مثل هذا العمل، والاقتصار على اكتشاف طبيعة المجتمع المغربي وكيف يعيش الأفراد داخل أسرهم وبأية طريقة تنتظم القبائل المستقلة، مع إعطاء فكرة مختصرة وصحيحة تقريبا عن هذا البلد الغريب، وعن الوجود الرائع لملايين الرجال الذين يعيشون في أمان داخل الفوضى، أحرارا كوحوش كاسرة في غابات والذين لا يضر بعضهم بعضا. غير أن الأطماع الأوربية تعيدني رغما عني إلى السياسة المزعجة؛ بل إن المغاربة أنفسهم يدفعون بي إلى هذه الطريق. ففي جميع محادثاتي معهم، كانت تتكرر على شفاههم، المسألة الأزلية المتعلقة بمصالح وبقدرات القوى المتوسطية.

وهناك دولتان لهما مصالح كبيرة في المغرب وهما: فرنسا وإسبانيا. فهذه الأخيرة تمتلك منذ مدة بعض الصخور المنعزلة بالشاطئ المغربي، ولم تكن لها القدرة أبدا على توسيع مساحة احتلالها الهش. وبمليلية وحولها، توجد قبيلة واحدة، وهي قلعية، تقاوم الإسبان ندا للند. ولو كان القلعيون متوفرين على المدافع بدل بنادقهم القديمة، لكانت الأمور قد تغيرت رأسا على عقب . فالضعف النسبي لإسبانيا، ولو أمام المغرب، يبدو جليا . وبالتالي فإن غزو هذا البلد سيكون بالنسبة إليها محاولة فوق طاقتها. فمجرد الإبقاء على كوبا تحت سيطرتها، يعتبر الآن صعبا بالنسبة لهذه الأمة التي لم تعرف كيف تحافظ على ممتلكاتها الشاسعة بأمريكا.

بقيت فرنسا التي تعتبر مصالحها أكبر من مصالح إسبانيا. فبإمكان فرنسا بجيشها العظيم وقوتها البحرية الرائعة، أن تستولي بسهولة على المغرب الذي لدينا معه، مئات الكيلومترات من الحدود المشتركة. ولا يتعلق الأمر هنا ببعض الصخور الجرداء التي تلطمها الأمواج وتطلق باتجاهها رصاصات الريفيين، بل يتعلق بحدود مشتركة وشاسعة، وبتجارة تكتسي يوما بعد يوم، أهمية أكبر بين الجارين. إن الأمر يتعلق بمعرفة من سيملك ثغورا بسيطة، محاطة من كل جانب بأراضي فرنسية.

والآن، إذا ما نحن احتكمنا إلى مشاعر شعب، سيخضع آجلا أم عاجلا للسيطرة الأجنبية، فإن هذا الشعب سيجيب بأن الهيمنة الفرنسية هي الأخف بالنسبة إليه. فالإسبان لم يكتسبوا ود المغاربة، رغم جوار لعدة قرون؛ لأنهم لم يريدوا ولم يستطيعوا دراسة وتعلم اللغتين العربية والأمازيغية. وكل الأعمال الأكاديمية المتعلقة بهاتين اللغتين، قد أنجزت من طرف الفرنسيين والألمان والإنجليز والإيطاليين. فالعربية والأمازيغية لا تستساغان من طرف الاسبان.

وغالبا ما قمت بملاحظة ذلك في دروسي بثانوية وهران وداخل إقليمنا. فهل يرجع الأمر إلى عجز؟ هل هو نفور عرقي؟ ثم هناك سؤال أخير: هل بإمكان إسبانيا أن تعلن جيدا عن طموحها في حمل مشعل الحضارة خارج أوروبا، في ظل الوضع الثقافي الذي توجد عليه حاليا؟

وهناك أخيرا قوة ثالثة لا تشبع، وهي إنجلترا التي تريد الاستيلاء على طنجة لإغلاق مضيق جبل طارق والتحكم بذلك في كل البحر الأبيض المتوسط. وتتمثل خطتها في الاستيلاء على بعض المدن الشاطئية، لأنها تعلم جيدا بأن تغلغل جيوشها داخل المغرب سيواجه بمقاومة باسلة. كما تعلم أن بإمكان هذا البلد تجنيد أكثر من مليون من الرجال الأشاوس المختلفين تماما عن المسلمين الخاملين بمصر أو بالهند. وهي على علم بأن مثل هذا الغزو يقتضي تعبئة أكثر من 100 ألف إنجليزي. وبالتالي، فإن هذه المهمة ستكون فوق طاقتها. وبإمكانها أن تحرق وتنهب الشاطئ المغربي، لكنها لن تستولي أبدا على شبر من التراب الداخلي.

كانت تلك هي القوى الثلاث المهتمة أكثر من غيرها باحتلال المغرب. ويميل المغاربة إلى فرنسا التي إذا ما استشيرت ، فإن بإمكانها أن تحصل على هذا البلدالجميل دون إراقة قطرة دم . فمنذ لويس الثالث عشر لم تتغير سياستنا هناك، كما أن تأثيرنا مثل تأثير كل الأمم المسيحية الأخرى، لم يكن ذا أهمية. فقد كان القناصلة الأوروبيون المضطرون لاستخدام مترجمين من البلد، وهم في غالبيتهم يهود، لا يحظون بالاحترام الكافي من طرف أعيان المجتمع المغربي الذين كانوا يهمشونهم ويعتبرونهم مجرد كفرة متلبسين بلباس القداسة ومدعمين بالقوة العاتية. ولم يسبق لإمبراطور المغرب أن دخل في محادثات خاصة مع أحد ممثلي القوى الأوروبية الذين كانوا يجهلون كلا من لغة البلد والأدب العربي.

إن المؤرخين قد افتتنوا بالنجاح الذي حصل عليه غوليوس Golius سنة 1622 بالبلاط الشريف. فهذا العالم لم يكن يعرف ولو كلمة واحدة بالعربية الدارجة. لكن، وبفضل عريضة الاستعطاف syplique المكتوبة بالعربية والمقدمة إلى السلطان، وهي العريضة التي سيعجب هذا الأخير بكتابتها الجميلة، سيحصل على ما كانت السفارة الهولندية ترغب فيه. وكم من امتيازات كان سيحصل عليها لو أنه وضح للسلطان بالعربية موضوع عريضته والغاية من

المهمة التي كلف بها، بدل مخاطبته بالإسبانية. ألم نفهم بعد في فرنسا، بأن على كل ممثلينا بالمغرب وبالبلدان العربية الأخرى، أن يكونوا معربين بشكل كبير، يتكلمون ويكتبون جيدا، لغة الرسول (ص)؟

لنرجع إلى الريف، فتضاريسه تشبه كثيرا تضاريس التل الجزائري، بحيث يشكل امتدادا له. ولأنه محاط جنوبا بجبال عالية، فإن قمم بعضها تظل على ما يبدو، مكسوة بالثلوج في عز الصيف، ولا يمكن عبور هذه المنطقة أرضا، إلا من خلال حدودها البحرية، شرقا وغربا. ولا يقدم الشاطئ أي ملاذ آمن. فهنا وهناك تستخدم مرافئ غير عميقة كمصب لبعض الأنهار السيلية التي لا تبتعد منابعها كثيرا عن البحر. وفي كل مكان تقريبا، باستثناء منطقة الغاريت (garète) الموحشة، ينمو نبات رائع. وتتموج حلقات التل، المنفصلة عن الأجزاء الخلفية البعيدة بالجنوب، تحت غابات من أشجار الفواكه، لتنتهي بهدوء داخل أمواج البحر الأبيض المتوسط.

إن الريف الذي يشغل مساحة قريبة من 23 ألف لكم مربع، أي ما يناهز مساحة ثلاث محافظات فرنسية، يتوفر على كثافة سكانية مهمة. وتقدر المعلومات المختلفة التي حصلت عليها من مصادر متنوعة، عدد المحاربين الريفيين القادرين على حمل السلاح ب 250 ألف رجل على الأقل. وإذا ما ضاعفنا هذا العدد خمس مرات، فإننا سنحصل على مليون و 250 ألف نسمة بالنسبة لساكنة أصغر الأقاليم المغربية. ونفهم الآن لماذا يمكن لهذه المنطقة الصغيرة تحدي كلا من السلطان وإسبانيا. فهي محصنة طبيعيا من كل الجوانب، سواء بشواطئها الخطيرة أو بأوديتها أو بجبالها.

وهي تتوفر على عرق من أكثر أعراق العالم صلابة، عرق لم يخضع أبدا للأجنبي! ولربما كان العرق الوحيد على الأرض، الذي لن يقول عنه التاريخ أي سوء. فهذا الشعب الصغير، تمتع باستقلاله في كل الحقب. لذلك فإن الريفي يعشق موطنه إلى حد العبادة. وهو يحمل حقدا دفينا لإسبانيا التي نجحت في الاستيلاء على بعض صخور هذه الأرض المقدسة والاحتفاظ بها، لكن بأي ثمن ..؟

ولا يمكن لأي أوروبي أن يتباهى بكونه عبر الريف. فهذه المنطقة مجهولة وغامضة وقد ظلت محتفظة بسرها ومغطاة بحجاب منيع. ونحن نتذكر المحاولة غير المجدية لمواطننا هنري دوفيريي H. Duveyrier الذي عاش بعيدا عن هذه الأرض الموعودة ولم يتمكن من ولوجها. لكن هذا الرجل الشهير ساهم بنفسه في فشل مهمته. فقد كان يرتدي لباسا أوروبيا ويدخن في عز رمضان ويأكل أمام الأهالي الملتزمين بالصيام القاسي ويتحدث العربية بطريقة خاطئة. وقد اندهش وانزعج حينما اعترض الريفيون على عبوره لمنطقتهم، رغم أنه كان ضمن حاشية

الشريف الوزاني. وقد كان بإمكانه وبقليل من الدهاء، عبور الريف واكتساب مجد خالد مثل كريستوف كولمب جديد لهذه الأرض المجهولة. وسأفسر في المجلد الثاني، لماذا عجز الشريف الوزاني عن إزالة شكوك الريفيين واستصحاب هنري دوفيريي معه.

ونحن نعتقد جازمين في أوروبا، خصوصا في فرنسا، بأن شرفاء الزاوية الوزانية يحظون في بلدهم باحترام لا محدود. غير أن العكس هو الصحيح، إذ لا تمر سنة دون أن تتعرض الزاوية الشهيرة للنهب من طرف القبائل المجاورة. وقد سمحت الحكومة الفرنسية التي خدعتها التقارير الخاطئة، للشريف الوزاني بالمجيئ أحيانا إلى وهران، لجمع تبرعات الأهالي، في حين كان يحتمل بالكاد في بلده. وكانت التبرعات التي تتم عندنا لأجل هذا الولي المزعوم، تعود عليه ب 200 إلى 300 ألف فرنك.. ويمكن القول بأن أموال فرنسا هي التي تعيل هذا المهرج العديم الأهمية. وفي المغرب، هناك آلاف من الشرفاء أكثر احتراما من شيخ وزان. وإذا ما رغب أحدهم في المجيء إلى محافظتنا لأخذ المال من رعايانا المسلمين، فإنه سيحظى بنجاح أكبر من نجاح منافسه الضعيف. ونتمنى ألا يتبنى أي واحد منهم هذه الفكرة التي استغلت ببراعة إلى حد الآن من طرف مولاي عبد السلام وحده، والتي قد يؤدي موته مؤخرا إلى وضع حد لهذه الجولات الرعوية المتفردة.

هكذا، فقد كان رحالتنا مطالبا باكتشاف هذا الريف الوعر، خطوة خطوة و سيحظى أينما حل، وباستثناء بعض الأحداث العارضة، باستقبال يليق بوضعه كطالب ودرويش ومتسول.

وأنا لم أتابع بالضبط المسار العظيم لمحمد بن الطيب على مدى اثنين وعشرين سنة من تجواله عبر ربوع المغرب. فقد كنت سأتعرض للتيهان. لو كنت مرافقا له. وبالتالي، كنت سأضلل قرائي الذين كانوا سيتحولون معي بدون انقطاع، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، على نفس الصفحة أحيانا. لذلك، فضلت إعطاء وصف كامل لمنطقة معينة قبل المرور إلى المنطقة الموالية. وكانت الصعوبة الكبرى تتمثل في الحصول على تواريخ إقامة الدرويش في مختلف أجزاء الإمبراطورية. غير أن محمد بن الطيب اللامبالي، الذي لم تكن له مهمة رسمية ولا أعمال ولا اشياء أخرى تدعوه إلى مغادرة المكان، كان يعيش بهدوء، دون أي اهتمام بمرور الأيام والشهور والسنوات. ولأنه شغوف بالأطعمة الفاخرة، فإن ذكرياته المضبوطة كرونولوجيا، لا تحيل إلا على المأكولات الطيبة والنادرة التي تمتع بها في مملكة الشريف، صاحب الجلالة. وكان يتذكر جيدا البلدات التي احتفل بها بعيد الأضحى. وقد مكنتني ذاكرته المطبخية بوضع اللائحة التالية التي تبرز جزئيا الاكتشاف الرائع للدرويش وتنقلاته الطويلة خلال نفس السنة، وأيضا تاريخ تواجده بهذا الإقليم المغربي أو ذاك. وقد يحصل لي أثناء تحرير عملي،

أن أغفل أحيانا تاريخ سفر رحالتنا؛ لذلك فإن المطلوب من القارئ في هذه الحالة، هو البحث عنها في الجدول الموالي.

الأماكن التي احتفل بها محمد بن الطيب بعيد الأضحى المسمى بالعيد الكبير

القبائـــــل	المـــدن أو القـــرى	الأقاليم	السنوات
بني زروال	بني يزو	جبالة	1872
بني زروال	غفساي	جبالة	1873
الدجاية	عين الريحان	جبالة	1874
بني زروال	القلاية	جبالة	1875
صفرو (المدينة)	صفرو	البرابر	1876
بني يازغة	المنزل	البرابر	1877
فاس (المدينة)	فاس	فاس	1878
فاس (المدينة)	فاس	فاس	1879
بني مـــگيلد	تولموت	البرابر	1880
مدرارا	قصر مولاي علي الشريف	تافيلالت	1881
أيت ناصر	زاوية سيدي أحمد بناصر	درعة	1882
تارودانت	تارودانت	سوس	1883
مراكش (المدينة)	مراكش	مراكش	1884
فاس (المدينة)	فاس	فاس	1885
أولاد عمرو	المقام الفوقاني	الدهرة	1886
غافايت	سيدي حمزة	الدهرة	1887
بني يزناسن	صفرو	الريف	1888
قلعية	بوحمزة	الريف	1889
بني ورياغل	تيزمورين	الريف	1890
آسفي (المدينة)	آسفي	مراكش	1891
دبدو (المدينة)	دبدو	الدهرة	1892
بني مكوش، بني يزناسن	القلعة	الريف	1893

كيفية تكوين الكلمات العربية والأمازيغية والنطق بها

إذا ما كانت هناك لغتان، خضعت كلمتهما لتشويه غريب من طرف الأوربيين، فهما بكل تأكيد العربية والأمازيغية. فمثلا عوضت الجزائر بدزاير ووهران بونهران والمغرب بمراكش وتونس بتونيس والممر الضيق بحلق الواد إلخ... فهل بإمكان الجميع التمييز بينهما؟

وما دمت أول من كشف مئات الأسماء الجغرافية الجديدة المتعلقة بالمغرب، فإنني أتمنى أن تحميني دراساتي المتخصصة من ارتكاب نفس أخطاء أولئك الذين بعدم تمكنهم من تعلم اللغتين العربية والأمازيغية، يسعون بشكل رديء ويكتبون بنفس الرداءة الكلمات الخاصة بهاتين اللغتين. ومن بين آلاف طرق التدوين المستعملة من طرف المستشرقين، فإنني لن أتردد في اختيار طريقة مؤلف " **محاولة في النحو القبايلي** "، العلامة المتواضع الجنرال هنوطو Hanoteau. وهذا التدوين هو الذي يبرز على كل حال في مؤلفاتي المتعلقة باللهجات الأمازيغية. واسمح لنفسي مع ذلك، بتقديم بعض التعديلات الطفيفة التي سأشير إليها في حينها. ولو كانت المطابع الوهرانية مجهزة بشكل أفضل، لكنت قد تمكنت، على غرار صديقي روني باصي René Basset [14]، من إدراج الحروف المخصصة لتمثيل الحروف الأمازيغية **tch** ، **j** ، **g** ، ضمن أبجديتي. لكن هذا الأمر صعب المنال. فصاحب المطبعة الجزائري الذي قد يطلب منه شراء هذه الحروف الطابعة الجديدة، سيصرخ محتجا وسيقدم أفضل التبريرات لرفضه. هكذا، سأضطر لتمثيل " تش " بـ " **tch** " و " ج " بـ " **j** " و " ق " بـ " **g** "؛ وكأن الأمر يتعلق تماما بجيم أو بكاف. غير أن التدوين الفرنسي سيسمح بالنطق الصحيح مع ذلك.

---

[14] – Cf. **René Basset**, *Manuel de langue Kabyle*, Paris, in – 12, 1887.

جدول يمثل الأبجدية العربية مع القيمة التي يعطيها لها العرب الأمازيغ.

الأحرف العربية	القيمة العددية
أ	1
ب	2
ت	400
ث	500
ج	3
ح	8
خ	600
د	4
ذ	700
ر	200.
ز	7
س	60
ش	300
ص	90

الأحرف العربية	القيمة العددية
ض	800
ط	9
ظ	900
ع	70
غ	1000
ف	80
ق	100
ك	20
ل	30
م	40
ن	50
هـ	5
و	6
ي	10

ملاحظـــات

لتفادي أي خلط، سأستعمل خط الوصل داخل نفس الكلمة كلما وقع الالتباس. مثلا، إن الحروف: t, th, kh, ch, dh, K ، ستكون متبوعة مباشرة بخط الوصل عندما يأتي بعدها حرف الهاء، مثال التهمة Ett-hma، أنهى AK-ha، أي نفخ على أصابعه، أدهم Ed-hem ، أي أسود، صهد ç-had (حرارة)، دهن D-han (زبدة مذوبة)، كهان K-hhen (تنجيم). وحينما يوجد حرف صوائتي voyelle فرنسي بين الهاء والحرف السابق عليه، فإن خط الوصل لا يستعمل مثل: اتهم tehem، صبوح çaboh (أليبنوس)، دهان Dehen (دس م) إلخ...

وسأنتهي من هذه الملاحظات الفونيتيقية والنحوية المملة، لكن المهمة، بالتأكيد على أنه من اللازم النطق بكل حروف الكلمات العربية أو الأمازيغيةمثلا: Tizemourin ستنطق تيزيمورين، Taroudante، ستنطق تارودانت، Mengouch مينـــگوش، ، Ait Angad أيت أنجاد، Aith sr'erouchchen أيث سغريروشن. وسواء كانت ch بسيطة أو مزدوجة، فإنها تنطق دائما che كما هو الأمر في الكلمة الفرنسية arche (سفينة) . وستحافظ G' و G على نطقها الحلقي أمام حركات مثل e, i, y, a, o ، مثلا Mglid ستنطق مـــگليد ، iger ؛ وسيظل حرف g صلبا كما هو الشأن في كلمات مثل: guider (أرشد)، guerre (حرب) Mag'rib (مـــگرب). أما حرف "س" S الموجود في الكلمات الفرنسية مثل sauver (أنقذ) savoir (معرفة) songer (فكر)، فيسمع دائما، سواء كان موجودا في بداية أو وسط أو عند نهاية الكلمة أو بين حرفين صوائتيين مثلا: Fas فاس تنطق مثل Face (وجه)؛ Tamsaman تنطق تمسمان، Bni Znassen بني زناسن إلخ... وبخصوص ou ، هذا الحرف الصوائتي المخصص لتمثيل الضمة العربية، فسيحتفظ بالمعنى الوحيد الذي يعطيه له الفرنسيون في كلمات مثل Cou (عنق)، Fou (مجنون).

وتعني المختصرات (A-B) و(B-A) العرب الذين تمزغوا والأمازيغ الذين تعربوا. فـــ (A) تعني عربي Arabe و (B) تعني أمازيغي Berbére وفي كل مكان تقريبا أوضح معنى الأسماء العربية والأمازيغية.

وهذه المهمة الدقيقة والخطيرة، تضعنا أمام صعوبات حقيقية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بأسماء محددة. لذلك، أرجو المعذرة عن الأخطاء التي ربما أكون قد ارتكبتها. وعلى أية حال. فليقذفني ذلك الذي لم يخطئ أبدا، بالحجرة الأولى.

المغــرب المجهــول

القســم الأول

اكتشــاف الريــف

قبائل الريــف

تاغزوت، بني بونصر، بني خنوس، بني سدات، متيوة، بني جميل، بني بوفراح، بني يطفت، بقيوة، بني ورياغل، تمسمان، بني توزين، تفرسيت، كزناية، لمطالصة، بني عمريث، بني مزدوي، بني ولشك، بني سعيد، بني بويحيي، قلعية، كبدانة، تريفة، أولاد ستوت، بني زناسن، بني محيو، مغراوة و بني بشير.

يستخدم المغاربة تداعيا ذهنيا لمساعدة الذاكرة في تعلم وحفظ أسماء أقاليمهم العشرة. وتتمثل هذه الطريقة في جمع هذه الأقاليم مثنى مثنى دون اعتبار لوضعيتها الجغرافية، مع جعل كلمة كل زوج مقفاة. مثلا: الريف والدهرة، البرابر والصحرا، جبالة والدايرة، الحوز ودرعة، سوس الحمرا. والدايرة هي مختصر دائرة فاس. أما الحوز فهو مختصر لحوز مراكش. وكلمتا الدايرة والحوز مترادفتان وتعنيان " الإقليم ". وكل أقاليم المغرب مستقلة تقريبا ولا تعترف إلا بالسلطة الروحية لسلطان فاس. ولم يكن الريف خاضعا أبدا؛ فهو يشكل جزءا من " بلاد السيبة " الشاسعة (أي المتخلى عنها من طرف السلطان)، البلاد التي يتجول فيها المرء بحرية والتي تشمل أربعة أخماس المغرب. أما الخمس المتبقي فيسمى بلاد المخزن (بلاد الحكومة) . وفي حين اتخذت الفوضى في بلاد السيبة شكلا جمهوريا إلى حد ما، يتميز نسبيا بقليل من الطغيان، إلا أنه لا يضمن أمن الأفراد، فإن أعوان السلطة في بلاد المخزن، بالمقابل، سيشعرون الرعايا بثقل سلطة لا ضابط ولا حد لها. فلا غرابة إذن، أن نرى القبائل المتمردة لا تعير أي اهتمام لممثلي السلطة، قياد الإمبراطورية.

فالريف المحمي بجباله الجنوبية وبالبحر، لم يكن ليخشى عاهلا بحرية له ولا جيش له تقريبا. ومع ذلك، فهو يرسل الهدايا إلى السلطان مثلما يرسلها الكاثوليكيون إلى البابا. وتحمل هذه الهدايا عند وصولها إلى فاس، اسم الضريبة، وبذلك يكون غرور الإدارة المغربية قد تم إرضاؤه. والقبيلة الوحيدة التي أقرت باستقبال بعض جنود السلطان، هي قلعية، وذلك بسبب نزاعها المستمر مع إسبانيا بمليلية. وما عدا ذلك، فإن المخزني (الجندي النظامي) يظل غير معروف.

قبائل الريــف

يتضمن هذا الإقليم ثلاثين قبيلة، تمتد إحدى عشر منها على طول البحر الأبيض المتوسط. والقبائل البحرية من الشرق إلى الغرب هي: طريفة، كبدانة، قلعية، بني سعيد، تمسمان، بني ورياغل، بقيوة، بني يطفت، بني بوفراح، بني جميل ومتيوة.

ونجد جنوب هذه القبائل، من الشرق إلى الغرب: بني زناسن، بني محيو، أولاد ستوت، بني بويحيي، بني ولشيك، تفرسيت، لمطالصة، كزناية، بني توزين، بني عمريث مغراوة، بني بشير، بني مزدوي، زرقت، تارجيست، بني سدات ، بني خنوس، بني بونصر، تاغزوت.[15]

وكل سكان هذه القبائل تقريبا، هم من الأمازيغ الذين يجهلون اللغة العربية. وتقدم لغتهم المحلية idiome ، المسماة تامازيغت، تنوعا كبيرا للهجات المتقاربة بعضها من البعض، باستثناء ما يتعلق بكبدانة وبني زناسن، اللتين تعتبر لغتهما المسماة زناتية، مختلفة نسبيا عن تامازيغت، وإن كان أصلها أمازيغيا.

وقد تم، فيما مضى، اجتياح طريفة وأولاد ستوت من طرف العرب الرحل. ويعتبر أمازيغيو الريف، القبائل الأربع الأخيرة: كبدانة وبني زناسن وطريفة وأولاد ستوت، غير ريفية، إذ أن لغة أهاليها وعاداتهم تجعلهم غير مؤهلين للمعاملة كقبائل ريفية، من طرف السكان الريفيين أصحاب لغة تامازيغت.

قبيلة تاغزوت

(المضيق، الالتحام) ، التسمية أمازيغية

لن أغير في شيء مسار محمد بن الطيب الذي دخل الريف لأول مرة عبر تاغزوت، وهي قبيلة جنوب الريف الغربي. وقد أقام في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات: ما بين 1888 و1890 في المرة الأولى، وعام 1893 في المرة الثانية. ففي سنة 1888 وأثناء عودته من رحلة بالدهرة، مر بالمنطقة التي تفصل هذا الإقليم عن الريف الغربي وبلغ قبيلة تاغزوت، بعد أن ترك

---

[15] – سأكرر دائما، بأنه يتعين النطق بكل حروف الكلمات الأمازيغية والعربية.

وراءه قبيلة كتامة (جبالة) التي سنتحدث عنها في كتابنا الثاني. وكانت أثوابه البالية وهيئته كدرويش جوال تثير، لدى كل من يراه، تعاطفا مشوبا بالشفقة. لذلك، كان من السهل عليه نسبيا، المرور من قبيلة إلى أخرى؛ وهي عملية محفوفة بالمخاطر دوما في المغرب.

وحينما يحظى المرء باستقبال جيد من طرف قبيلة مغربية، فإنه من الأفضل له الاستقرار دائما بها، لأن مغادرتها قد يجعله عرضة لاعتداء القبائل المجاورة المتحاربة فيما بينها باستمرار تقريبا. وبالنسبة لمحمد الراغب في رؤية الريف، فإنه لم يخش أبدا المخاطر التي يمكن أن يلاقيها في هذا البلد المجهول والموحش. لقد هرب من كتامة دون توديع مضيفيه السابقين وتوجه بجرأة إلى قبيلة تاغزوت، متبعا المجرى المنعرج للغدير الذي يحمل نفس الاسم. ودخل إلى قرية القلعة حيث لقي الترحاب في المسجد، ثم عمل فورا وكعادته، على دراسة البلاد والعباد.

وتحد تاغزوت جنوبا وغربا بقبائل إقليم جبالة. وهي تتألف من قسمين وهما: تاغزوت الفوقانية (العليا) وتاغزوت التحتانية (السفلى). ويمكن لكل قسم أن يجند أربعة آلف من العساكر المشاة fantassins، أي ثمانية آلف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ولأن التجربة أكدت لي بأن الدرويش يقطع أربعين كيلومتر يوميا، كمشّاء جيد، فقد كان من السهل عليه نسبيا، ضبط مساحة كل قبيلة وبالتالي كل إقليم. صحيح أن سيقان هذا الجوال الذي لا يكل، لا تتوفر على دقة وسائلنا في مسح الأراضي، ومن الطبيعي أن ترتكب بعض الأخطاء في تقدير المسافات، لكن الصحيح أيضا، هو أنه بواسطة هذا النظام الفريد الذي يمكن تطبيقه بالمناسبة، فإنني لم أحصل سوى على نسبة 30 كلم من الخطأ، ضمن خط ممتد على طول الساحل الريفي، من مصب واد كيس إلى قبيلة غمارة الجبلية..

وعندما نتصور بأن مساحة التراب الوطني الفرنسي نفسه، موطن الأنوار والعلم، غير معروفة بدقة تامة، إذ أن المساحات المقدمة في الوثائق الرسمية ما بين سنوات 1878 و 1886 تتراوح ما بين 52700680 هكتارا و52910373 هكتارا، فإنني أرجو ألا يؤاخذني النقاد المتشددون على غياب الدقة في تقسيمي الثلاثي لمساحة الأرض، المتميز ببدائيته وبنقصانه.

وتمتد تاغزوت على حوالي عشر كيلومترات طولا وعشر كيلومترات عرضا (ربع يوم من المشي في كل الاتجاهات). وينبع نهر تاغزوت ، وهو مجرى مائي جميل شبيه إلى حد ما بتافنا، من قمة جبل الأرز بأراضي بني بونصر. ويبلغ طول هذا النهر أربعين كيلومترا، كما توجد على جانبيه قرى وضيعات عديدة. وأحيانا يجري النهر داخل أودية ضيقة جدا. ويتم عبور مجراه القائم بين الصخور، على ست قناطر خشبية موجودة بقبيلة تغزوت وحدها. كما يساهم الماء الصافي والعذب، في دوران العديد من دواليب المطاحن على طول شطآن النهر.

وبخصوص الحيوانات الأليفة، لا نجد في كل تاغزوت سوى الأبقار والبغال، إذ إن المراعي لا تكفي للماعز ولا للخراف. لذلك يقوم الأهالي بعلف أبقارهم بأوراق الشجر. وحول كل الضيعات المحاذية لنهر تاغزوت، تمتد بساتين رائعة مليئة بالخضراوات. وهذه القبيلة الموجودة بأعالي الجبال كثيرة الأشجار وتتوفر الغابات أساسا على أشجار السنديان والعرعار والبلوط والأرز . أما البساتين فهي مليئة بأشجار الجوز والكروم المتسلقة. وقد عينت في خريطة خاصة بتاغزوت، الأماكن التي توجد فيها مناجم النحاس والقصدير والرصاص والفضة والذهب والحديد.

ويعيش هذان القسمان من تاغزوت في حالة حرب دائمة. وهذا الحقد القائم بين أشخاص من نفس الأصل، نابع من الاغتيالات المتكررة التي يرتكبها رجال هذا القسم أو ذاك. فالتاغزوتي الحساس والجامح جدا، يغضب لمجرد كلمة ويضرب إلى حد الموت كل من يشتمه، بل وكل من يعارضه.

وكأمازيغي العرق واللغة، فإن ملامحه متناسقة وطوله متوسط. وتعتبر أخلاقه منحلة، لأن مجاورته لجبالة، وهي أكبر منطقة لواطية بالمغرب، جعل ميولاته الجنسية شاذة. فالغلام giton ، هذا الشخص الحقير المسمى بالعايل في البلد، يشكل جزءا من الحريم Gynécée، وحتى النساء الشابات أنفسهن، يقبلن بهذه المنافسة المنفرة ولا يخجلن من الاعتراف بأن العايل يمنح المتعة للسيد، أحسن منهن. ولحسن الحظ، فإن هذا الجرح القبيح المتمثل في معاشرة الغلمان، ينحصر عند حدود جبالة. فهذه الممارسة مجهولة في الأجزاء الأخرى من الريف، البعيدة عن أكثر أقاليم الإمبراطورية الشريفة تهتكا. وفي المجلد الثاني، سنضطر إلى تحريك هذا المستنقع الذي يبدو محتكرا من طرف جبالة، لكن، لنترك ذلك جانبا الآن، ولنقل بأن الغلمان يباعون في أسواق تاغزوت مثل البهائم.

وتعتبر تامازيغت، وهي اللهجة الأمازيغية المتداولة بين التاغزوتيين، مختلفة بعض الشيء عن اللغات المحلية الأخرى بالريف. وهي تقترب كثيرا من زْوَاوَا Zouaoua القبايل الكبرى. وتدعي أسطورة استقدمها الدرويش من القبايل، بأن أصل الزواوا الجزائريين، من قبيلة تاغزوت نفسها، وأن أجدادهم هاجروا منها إلى جرجورا في زمن سحيق. وفضلا عن ذلك، فإلى يومنا هذا، ما زال التاغزوتيون والزواوا يمارسون نفس الأعمال والمهن. فهم باعة متجولون وصانعو أسلحة. وإذا ما كان العديد من الزواوا قد بدأوا يتكلمون العربية، فإن أهالي تاغزوت بالمقابل، لا يعرفون ولو كلمة عربية واحدة. ويمكن على ما يبدو، أن نجد لديهم مؤلفات محررة

بالأمازيغية، ومن بينها ترجمة لسيدي خَلِيلْ وللأحاديث النبوية. كما ينحصر أدبهم المحلي في الحكايات الشعبية والأشعار.

وتشتهر تاغزوت في كل المغرب بصناعتها للبنادق المغربية، المميزة، التي أصبحت عرضة للمنافسة القوية من طرف الأسلحة المستوردة من انجلترا وإسبانيا. ومع ذلك فإن المُكحلَة (البندقية) التاغزوتية ما زالت تشترى وتحظى بالتقدير من طرف قبائل الداخل التي لا يمكن للأسلحة الأوروبية أن تصلها، لأنها ستنهب قبل وصولها إلى وجهتها.

إن التاغزوتيين جميعهم تقريبا، هم بائعو أسلحة. فهم يصنعون كميات كبيرة من تلك السكاكين الطويلة الشبيهة بالخناجر القبايلية. كما أن بعض النجارين يتقنون صنع الصناديق الجميلة والصحون الكبيرة من الخشب (قصعة) وهياكل السفن إلخ... وكانت هناك محاولات في القبيلة لاستغلال المناجم الغنية للمنطقة، لكن بدون جدوى.

وقد احتكرت خمس زوايا مناجم الذهب والفضة، لكنها لم تستفد منها كما يجب. وينحدر شيوخ هذه الزوايا من سيدي محمد أخمريش الذي تلقى بركة الوالي الشريف مولاي عبد السلام.

ويوجد أيضا صانعو الأثاث الذين يشتغلون على الأرز والسرو بالخصوص، حيث ينجزون أثاث بيت متميز. وتمارس صناعة القطران من طرف عدد قليل من الأفراد الذين يحصلون على القطران والزفت بالطريقة التالية: يتم داخل مرجل مثقوب مثل الكسكاس (وهو القدر الذي يطبخ فيه الكسكس) تعريض الخشب الصمغي للبخار الناتج عن غليان الماء، ويوضع القطران الذي يسقط قطرة قطرة بغلاية أخرى.

وكإخوانهم في جرجورا، فإن أهالي تاغزوت يتجولون كبائعين في القبائل الأخرى، عارضين الجوز وقشرة شجر الجوز لتبييض الأسنان واللوز والمغازل والبارود والرصاص.

ورغم تميزها باستقلاليتها، إلا أن القبيلة تبعث إلى السلطان كل سنة بنادق جميلة. ولا يكلف هذا النوع من الضريبة أكثر من خمسة سنتيمات بالنسبة لكل فرد من أفرادها. ومن جهتها، فإن قبائل بني بوشبيت، بني بونصر، بني بشير، مرنيسة وزرقت، لا تؤدي أكثر من ذلك. فهي مثل تاغزوت، توجد في منطقة فقيرة نسبيا. وأغلب مداشرها مبنية فوق جحور حاوية للمعادن métallifères. وتزعم الروايات أنه في عهد السلطان الأكحل، كانت السلطة المركزية تشغل مناجم هذه القبائل. ويحكى أيضا أن دقيوس Docius شيد قرب كل منجم حصنا ما زالت آثاره بادية للعيان. ولا يعرف الأهالي كيفية استغلال ثرواتهم المعدنية، وهم يعلمون أن بإمكان النصارى الإستفادة منها، لكنهم يخشون من تأثير مجيء الأوروبيين على استقلالهم. فهم يفضلون الموت عوزا فوق منجمهم الذهبي، على أن يعرضوا حريتهم العزيزة للخطر.

وتعتبر الدار هي مسكن الريفي، وتتشكل في القبائل الجنوبية من طابق مغطى بالديس ampelodes mostenax وأحيانا بالجريد chamoerops himilis أو بالحلفاء stipa tenacissima. وفي الشمال يقطن أهالي القبائل البحرية بمنازل شاسعة، مبنية بالطين وذات طابق أو طابقين وسطح. و يخصص الداخل الرباعي الأضلاع المحاط بالشقق، كساحة واسعة حفرت بها مطامير لخزن الحبوب. وتستخدم هذه الساحة أيضا كزريبة للماشية؛ وفي الوسط توجد أربعة جذوع ضخمة للأشجار وضع فوقها برج عال من الخشب. وعلى قمة هذا البرج، يقف رب الأسرة حارسا، حينما يكون عدم الأمان سائدا بالخارج. فمن موقعه المرتفع، يتحكم في المحيط الخارجي ويعلن عن الخطر ويستقبل بطلقات البندقية أولئك الذين يريدون مهاجمته. ويوجد الفرن الذي يهيأ فيه الخبز وسط الساحة التي تنفتح عليها أبواب البيوت. ولا يتميز بيت الريفي بأية خاصية. فعلى طول الحيطان الأربعة المطلية بالجير عند الأغنياء وباللون الأسود عند الفقراء، توجد مصطبات واسعة وضخمة يصل علوها إلى متر، وتستخدم للجلوس نهارا وللنوم ليلا. وفوقها هناك رفوف متينة مثبتة بالحائط، توضع عليها الملابس وأدوات الطبخ والأسلحة إلخ...ولا وجود للمراحيض بالمنازل، إذ تقضى الحاجة في الحقول؛ لكن يمكن أن تجدها بالمقابل، في المصلى والمساجد. ويحاط كل مسكن، وبكثافة، بالتين الوحشي القديم العهد opuntica vulgaris ، وهو مصدر غذائي هام بالنسبة للمعوزين الذين يستهلكون بشكل مخيف، هذه الفاكهة ذات القشرة الشوكية الحمراء والمذاق الحلو الذي قد يكون بدون طعم، والذي يسميه العرب " كرموص النصارى ".

لنرجع الآن إلى الدرويش الذي تركناه بقرية القلعة. فقد ذهب رأسا كعادته إلى المسجد، حيث وجد مجموعة من الشباب المنشغلين بحفظ القرآن وتلاوته بصوت عال. ولم يكن لدخوله المسجد أي تأثير على الحاضرين. فقد جلس إلى جانب أحد الطلبة وشرع في تلاوة آيات القرآن الكريم معه. وسيبيت بالمسجد بعد تناول طعام العشاء مع زملائه الجدد. وفي الغد سيسمح له المعلم بمتابعة دروسه.[16] وهو ما يعني أيضا الحصول على الرتبة (الطعام والمبيت بالجامع). ويقدم الطعام من طرف السكان المحسنين الذين يعتقدون بأنهم ينجزون عملا صالحا، عبر الإنفاق مدة سنوات عديدة، على شبان منشغلين فقط بحفظ سور طويلة من القرآن، لا يفهمونها من جانبهم. وتقتضي الموضة الجبلية التي أدخلت إلى تاغزوت، أن يرافق كل طالب راشد، عايل، وهو عبارة عن خادم خسيس صالح لكل شيء ignoble factatum . ويبدو أن هذا الاحتياط يتم

---

[16] – إن المغاربة لا يهتمون بعمر الطالب، وسواء كان عمره عشر سنوات أو أربعين سنة، فهو يظل دائما تلميذا، طالبا للعلم. ولا يفقد هذه التسمية إلا عندما يصبح أستاذا أو عدلا أو عند توقفه عن متابعة الدروس

أخذه للحفاظ على عفة الشبان أبناء الأعيان. ولن يخرج الدرويش عن هذه القاعدة، فقد جلب معه من كتامة، غلاما لولاه لما سمح له المعلم بالبقاء بالمسجد والاستفادة من دروسه.

وساهم وجود معدن الذهب والفضة الذي كان الأهالي عاجزين عن استخلاصه، في ميلاد حمى قبالية cabalistique في القبيلة، سيشعر الدرويش نفسه بتأثيرها عليه. ففي تلك المنطقة، سيتعلم ذلك الفرع من السحر الذي يدعوه العرب " الخنقاطيرا Khank'atira "، وهو نوع من اللعب السحري يتم فيه تحويل الأشياء. ويؤمن المغاربة ومسلمو وهران كثيرا بالخنقاطيرا. وقد أكد لي أشخاص موثوق بهم، بأنهم رأوا بأم أعينهم تحولات مدهشة تمت في حضورهم. مثلا، يأخذ الساحر أوراقا يابسة ويخفيها تحت رداء، ويتلفظ ببعض الصيغ السحرية ثم يرفع الرداء، فتتحول الأوراق إلى إسفنج أو فطائر يتعين الإسراع بأكلها، لأن هذه المنتوجات تميل للأسف، إلى العودة لحالتها الأصلية. ويمكن لنفس الأوراق، وبإرادة الساحر، أن تتحول إلى قطع ذهبية أو فضية، وسيكون وجودها زائلا مثل الفطائر في حالة إذا ما لم يتم صرفها. هكذا، سيجد المغفل في الغد، الأوراق اليابسة بدل النقود الذهبية الجميلة التي وضعها البارحة في محفظته أو صندوقه. وسأكشف هنا سر " الخنقاطيرا المحولة "، التي أهديها إلى محبي المعارف الغامضة. وأخبرهم بأنني أتوفر على النص العربي للصيغة القبالية، وهو رهن إشارتهم. وإليكم الصيغة السرية التي قمت بترجمتها: " خذوا سبعة من رؤوس الخفافيش وسبعة من جلود الثعابين وأحرقوا كل ذلك. **خذوا سبع قطع من الدهان المستمد من تيس أسود، اسحقوها وخذوا سبع قطع من الشبة Alun البيضاء، اعجنوها داخل ماء الكرفس. طمروا كل ذلك، داخل ركام قديم من زبل الأسمدة يرجع تاريخه إلى ثلاث أو أربع سنوات، ثم أخرجوه بعد مرور واحد وعشرين يوما. ضعوه بعد ذلك في صندوق ستمسكون به أثناء العملية. آنذاك، انطقوا العبارة التالية التي يجب حفظها عن ظهر قلب وهي: يا ابن أبنائك، يا ابن أبنائك، أظهر معجزاتك.. أين هو سيد السحاب؟ اين هو الملك الذي توج رأسه بثعبان بمائة رأس والذي يحتوي فيه كل رأس على ألف وجه وكل وجه على ألف فم وكل فم على ألف لسان وكل لسان يذكر عظمة الله بألف لهجة مختلفة...أين أشين، شاشوشين، كحدوشين، أواشين، كعثوشين، إلواحين؟ بسرعة.. بسرعة..فورا ! فورا ! اسرعوا ! أسرعوا باستخدام هذه الأسماء في تحويل هذا الشيء (يتم ذكر إسم الشيء موضوع التحويل). أين هو العهد القائم بينكم وبين سليمان بن داو ود؟ اسرعوا قبل أن تسقط عليكم الصاعقة.. اجلبوا لي ما أمرتكم به. بارك الله فيكم ..."**

إن المغاربة هم أكبر الدجالين في العالم الإسلامي. فهم يستغلون بسهولة سذاجة إخوانهم في الملة وكذلك سذاجة الكافرين. وكم من الأوروبيين وحتى من الفرنسيين، كانوا ضحية هؤلاء

المكتشفين للكنوز والعارفين الذين يحققون أمام الرائي أحيانا، معجزات تؤثر بقوة على المعنويات المهزوزة لأولئك الذين يلجؤون إلى حيلهم " السحرية "..

إن جبال تاغزوت شاهقة، بحيث تتواجد الثلوج في قممها أثناء فصل الشتاء. وفي الأماكن المظللة للوديان العالية، تظل الثلوج قائمة في عز الصيف. وعادة ما يجري نهر تاغزوت ورافده نهر بني بوشيبت، أسفل الجبال، داخل وديان عميقة وضيقة. وبسبب الثروات المعدنية لبلدهم، فإن أهالي تاغزوت يزعمون بأن قبيلتهم كانت هي المنجم الذي انبثق منه كل النوع الإنساني. وفضلا عن ذلك، فإن تاغزوت، تعني في لهجتهم، المنجم والمكان المتوفر على كل شيء. وتحصى في هذه القبيلة حوالي خمس وأربعين قرية، تتضمن كل واحدة منها في المتوسط، مائة منزل.

القرى الرئيسية بتاغزوت

- أيت علي (أولاد علي) : 300 منزل؛
- زاوية سيدي محمد أخمرميش [17] ؛
- تازروث (التسمية أمازيغية) : (الصخرة الصغيرة)، 100 منزل؛
- القلعة (التسمية عربية)، 100 منزل؛
- القوى العسكرية: 8 ألف رجل من المشاة؛
- العدد المحتمل للسكان: 40 ألف نسمة.

ولا توجد بها طرق، بل فقط مسالك للبغال. التعليم الابتدائي قليل الانتشار. وفي سنة 1893 كان القايد هو المسمى : محمد أخمريش.

[17] – تنطق أخمليش (التسمية أمازيغية) في المناطق التي تتحول فيها الراء إلى لام : أخمليش، جمع إخمليشن، وتعني المبروك.

قبيلة بني بونصر

(أبناء النصر)، (التسمية عربية).[18]

تحد غربا بتاغزوت (الريف) وجنوبا ببني بوشيبت (جبالة) وشرقا بزرقث (الريف) وشمالا ببني خنوس (الريف). وتمتد على عشر كيلومترات طولا ومثلها عرضا (ربع يوم من المشي في كل الاتجاهات). وتشغل مع بني خنوس وبني سيدات أعلى قمم جبال صنهاجة بالريف. كما أن الثلوج التي تتساقط بكثرة على هذه القمم، تجبر الأهالي على السكن داخل بنايات واطئة وضخمة. وتوجد القرى في قلب الغابة. ويكون فصل الصيف معتدلا وعليلا بل باردا أحيانا، إذ يضطر الأهالي في ليالي شهر يوليوز إلى إشعال النار للتدفئة. أما المياه فهي موجودة في كل مكان، في الينابيع والجداول. وعلى قمة جبل الأرز، يبدو المنظر البهي لقرية تمديث ذات الخمس مائة منزل تقريبا. وقد أدى منبع وافر المياه وسط البلدة إلى انبثاق واد تمديث. وجبل الأرز شاهق جدا وهو مكسو بغابة من الأشجار، نجد من بينها أشجار الأرز الثمينة. وتنمو على جنباته الكروم وأشجار الجوز وهو يختفي تحت غطاء نباتي أخضر. ونجد في القبيلة الكثير من الماعز والأبقار. أما الزراعة الرئيسية في الأودية، فهي زراعة الشنتي (وهو نوع من البر الأبيض) والعدس. ويستهلك الأهالي بكثرة، النواة الحلوة للأرغال Argal. وهذه الأخيرة هي شجيرة بحجم شجرة الفستق. وتشبه فاكهتها الفول السوداني، بحيث يتم طحنها ويستعمل الدقيق المحصل عليه، في صنع الخبز والكسكس والزميتة (الدقيق المستمد من القمح المحمص والذي يبلل في الماء ليؤكل) والحريرة (التي تطبخ بالفلفل والثوم). وفاكهة الأرغال سوداء، شديدة الحلاوة. وأغلب البساتين مكسوة بالبصل والذرة والفلفل واليقطين.

وكتجار متجولين فإن أهالي بني بونصر يبيعون في تجوالهم، الجوز واللوز والمغازل والقطران والزفت إلخ... وقد يقايضون هذه المواد بالصوف.

وما يصدرون أيضا " الصامت "، وهو هلام العنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف هذه الفاكهة، ونظرا لقساوة الطقس، فإن العملية تتسم بالصعوبة. ونرى في كل القرى قدورا موضوعة خارج المساكن، يتم تحضير الهلام فيها. وإليكم الوصفة: يعصر العنب الناضج ويطبخ العصير الموضوع في القدر، ثلاث مرات، وبعد كل طبيخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد

---

[18] – طبعا، أنا أحافظ هنا على التسميات المحلية دون تصحيح ما يمكن أن يعتبر خطأ بالنسبة إلى النحو العربي. هكذا، فإن بني بونصر يجب أن تكتب بالعربية الفصحى: بنو أبي نصر. وانا أقدم هذه الملاحظة للمرة الأخيرة.

ذلك . وينجز الهلام حينما يصبح العصير الذي خفض إلى الثلثين بفعل التبخر، مخثرا وحلوا كالعسل. أنذاك يسكب في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى ما لا نهاية. ويؤكل هذا الهلام بتذويبه في الماء. ويستمتع الأطفال كثيرا بشرائح الخبز بالهلام الخالص. أما الصامت المسكر enivrant، وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. ويستهلك الصامت الكحولي بكثرة عند جبالة.

إن الصوف الذي يتم جلبه من طرف الباعة المتجولين، يستخدم من طرف النساء لصنع الجلابيب التي تباع في أسواق القبيلة. ويقوم الرجال من جهتهم، بصنع البارود والرصاص ومقابض البنادق المصنوعة من شجر الجوز. ولهذا سميت الجبال الصنهاجية بالريف " صنهاجة السرا " أي صنهاجة خشب البندقية. ويلبس أهالي بني بونصر جلابيب مخططة بالأبيض والأسود، أما النساء فيلبسن الحايك. ويتكلم جميعهم الأمازيغية، وتحديدا تمازيغت القحة. ولا تتحجب النساء؛ فأخلاقهن طيبة. وهن اللواتي يشتغلن بالفلاحة ويستخدمن المعاول، لأنه يستحيل في العديد من الأماكن، حرث هذه الأرض الوعرة. كما أنهن يحصدن ويمارسن البستنة ويقمن برعي الماشية، وبالتالي يجد الرجال أنفسهم في راحة تقريبا. وتتفرع قبيلة بني بونصر إلى ثلاثة أقسام وهي: الربع الفوقاني [19] ، بني حمايد وتمديث. ويمكن لكل قسم أن يجند 500 رجل من المشاة، وهو ما مجموعه 1500 رجل بالنسبة لكل القبيلة. وتتوفر هذه الأخيرة على الكثير من الطرائد وعلى بعض الحيوانات المتوحشة. ويأتي عرب الداخل عند بني بونصر لمقايضة زرعهم بالجوز واللوز والعنب والنشوق والقنب الهندي للتدخين. ونجد في القبيلة أيضا الكبار câpres والزعتر thym و الحرمل Peganum harmala وفليو pouliot والبطاطس.

ولكل قبيلة ريفية قاضيها؛ ويقتصر دوره على تدبير معاملات أفرادها. فهو يحرر عقود الزواج والبيع والطلاق ولا يهتم أبدا بالعدالة الجنائية في بلد لا توجد فيه أية سلطة معترف بها. وسنتحدث فيها بعد عن التنظيم الإداري لهذا الشعب المتمرد.

وهناك أمر غريب، وهو أن الصابون غير معروف عند بني بونصر، لأن القبيلة غنية بالطين المنظف للأثواب Terre à foulon، وهو نوع من الطين الأبيض الذي يكون رغوة ويزيل الأوساخ عن الغسيل بشكل جيد. وتوجد كل قرى بني بونصر وعددها 50 تقريبا، على جوانب واد تمديث وواد تاغزوت. وهناك فسحات كبيرة بين المنازل، كما أن عدد المساجد كبير، وهي تستعمل كمكان إقامة للغرباء وللطلبة الذين يحظون بضيافة مجانية وطيبة.

---

[19] – يعني الربع القبيلة في الدارجة المغربية. وهذه الكلمة المتبوعة بالفوقاني والتحتاني، تشير إلى أن الأمر يتعلق بالإسم الحقيقي لهذا القسم من القبيلة، الذي استحال علي معرفته.

القرى الرئيسية لبني بونصر

- تاهرانت (التسمية أمازيغية / عربية)، 300 منزل؛
- تامديث (المساء) (التسمية أمازيغية) 500 منزل؛
- بيزازن (القذرون) (التسمية أمازيغية)، 300 منزل.

القوة العسكرية: 1500 من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 7500 نسمة والبلدة جبلية بدون طرق وتحيط بها الغابات من كل جانب. ولها نفس قائد القبيلة السابقة. أما التعليم الابتدائي فهو قليل الانتشار، وبالمقابل فإن الاغتيالات كثيرة في تلك الربوع.

قبيلة بني خنوس

(أولاد الخنزير الصغير)

إن هذه القبيلة الموجودة فوق قمة الجبل، لا تتلقى أبدا زيارة الغرباء، بل يقال في الريف، بأن السلطان يجهل وجود بني خنوس. ففي كل مكان، توجد صخور ضخمة ومنحدرات جبلية خطيرة وغابات شاسعة وقطعان من القردة.

وحينما وصل الدرويش عند هؤلاء المتوحشين، أحيط من طرف الأهالي وتم جسه وتفتيشه بدقة؛ لكنه لم يتعرض لأي أذى. وقد تم حمله إلى جحر يستخدم كمسكن وحصل على مئات الحبات من البلوط الحلو كتغذية. وبينما كان رحالتنا يمضغ هذه الثمار بصعوبة، نظرا لصلابتها؛ دخلت عليه مجموعة من الخنازير الأليفة وهي تصدر أصواتا مزعجة، تحمل دلالة مع ذلك. وبقفزة واحدة وقف الدرويش واضطر رغما عنه، إلى التخلي لضيوفه الجدد عن الجزء الأكبر من الثمار التي لم يجد الوقت الكافي لأكلها. وسيلاحظ بأن هؤلاء الأهالي القليلي الورع، يربون الخنازير مع الماعز. ويعيش الجميع في نفس الكهف، في غاية الانسجام، بما في ذلك رب الأسرة الذي يسمن بفعالية، وبواسطة ثمار البلوط، هذه الخنازير الصغيرة التي يستطيب لحمها المسلوق. إن الفرد من بني خنوس لا يغادر غابته أبدا. فهو يزرع للاستهلاك الخاص، أنواع الكرنب والنشوق والكيف. وبهذه القبيلة الرهيبة التي لا يجرؤ أحد على المغامرة بزيارتها، يسقط ثلج غزير. هكذا، وبعد قضائه لثلاثة أيام بين هؤلاء المتوحشين، سيسرع الدرويش بالابتعاد عنهم، وقد اشمأز منهم ومن طعامهم الرديء. فهو بقي بين ظهرانيهم تلك المدة ليتأكد من أن

لهجتهم هي تامازيغت وأن قبيلتهم تمتد على عشر كيلو مترات طولا ومثلها عرضا وأنها تتضمن قسمين: الواد وثازروث (الصخرة الصغيرة) وما مجموعة خمس قرى. أما قوتها العسكرية فتتحدد في ألف رجل من المشاة. ولا يوجد فيها أي متعلم؛ أما مسالكها فهي وعرة جدا ولا توجد بها أية طريق.

قبيلة بني سداث [20]

هي قبيلة صغيرة تمتد على 10 كيلومترات من جميع الجهات. وتحد شمالا بمتيوة وجنوبا ببني خنوس وشرقا بزرقت وغربا بإقليم جبالة. وتوجد ثلاثة أقسام بالقبيلة: أذرار (الجبل)، إخمليشن (المباروكون) وأزيلا. وفي المجموع هناك ستون قرية في كل واحدة منها مائة منزل تقريبا. وهي بلدة جبلية بشكل كبير، تحيط بها الغابات والمنحدرات والشلالات والجداول من كل جانب. وتكون مكسوة بالثلوج في فصل الشتاء. لذلك، فإن الأهالي يدخرون المؤونة عند نهاية فصل الربيع وفي الصيف. وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية الخريف، مما يجعل المسالك غير مستعملة. وتوجد فيها الطرائد بكثرة، وهي تشكل الغذاء الرئيسي للسكان ويتم الحفاظ عليها لمدة طويلة. ومن بين حيواناتها البرية نجد الفهد والضبع والخنزير، وغالبا ما يتغذى الرعاة بهذا الحيوان الأخير. ويستخدم البلوط الحلو والأرغال في صناعة الخبز. كما يوجد العسل بكثرة، لكن مذاقه مر، لأن النحل يلقح أزهار بخنينو bekhnenou (بلغة تامازيغت) أو أساسنو (بلغة زواوا). وهذا لا يمنع الأهالي من التلهف عليه. وتوضع الخلايا داخل المنازل بسبب قساوة الطقس.

وما أن دخل الدرويش إلى أراضي بني سيداث، حتى بادره شيخ التقى به في الطريق بالقول: " ياصاحبي، إنك هنا في بلاد السيبة. فلا تقل لأحد بأنك جئت من تاغزوت، لأنك ستقتل حينئذ وستجرد من أمتعتك ". وافترق الرجلان ثم استمر الدرويش في مشيه. وفجأة شاهد بالقرب منه مجموعة من الأفراد مستلقين على الأرض، صامتين ومصوبين بنادقهم نحوه؛ واعتقد في البداية بأنهم رعاة. وسيتوقف أحدهم موجها إليه الحديث بالأمازيغية.

- iouachou ou territ fellanegh esselam ? (لماذا لم تسلم علينا؟)

---

[20] - أصل الكلمة مشكوك فيه. وقد قيل لي بأن هذه القبيلة سميت كذلك، لأن الثلج والضباب يحيطان بها ويسدانها من كل جانب. وإذن، فإن سيداث هذه الكلمة العربية الممزغة، صدرت عن الجذر سد بمعنى أغلق وأقفل بشكل منيع.

- الدرويش : a oulidi, our zrir' had (ياعزيزي إنني لم أر أحدا)
- الرجل: anisik kedj ? (من أين أتيت ؟)
- الدرويش : Nekki d akthami (أنا من كتامة)

عند هذه الكلمات وقف جميع الرجال صائحين : kedj d'athar'zouthi (أنت من تاغزوت). وقال له الشخص الذي يبدو هو الرئيس:

- Tikhret fellas. Ath k'echchether'. Itskiddib ! Netta d'azouggar' . Aith tar'zouit d'izouggar'en am netta.

(ابتعدوا عنه. سأسلبه أمتعته. إنه يكذب.. فهو أشقر. وكل أهالي تاغزوت هم شقر مثله). وسيضيف: " اخلع ملابسك يا ابن النصراني ".

بعدها، سيصوب بندقيته نحو الدرويش صارخا: " ألم تخلع ملابسك بعد؟ " ولن يسمع محمد أكثر من ذلك. فقد ألقته يد قوية أرضا وجردته برمشة عين من كل ملابسه. وقد فقد من جراء ذلك، جلابتين وزوجا من النعال وأربعين سنتيما وغطاء رأسه، أي أربع أو خمس طواقي بيضاء موضوعة الواحدة فوق الأخرى ومحاطة بعمامة. لكن السؤال هو: لماذا كان كاسيا بهذا الشكل الفاخر، وهو الذي كان يسافر عادة بأسمال بالية؟

وقد طالب الدرويش بنعليه لكن دون جدوى، ولم يترك له سوى قميصه. ولما ألح على استرجاع النعلين (لأنهما كانا جديدين تقريبا)، قيل له بقسوة : Sousem a ner' ak ner'res (أسكت وإلا نبحناك).

ويكون الهواء في هذه الجبال الشاهقة باردا، كما تهب رياح قوية جدا. وقد أحس الدرويش الذي ترك لحاله بقميص من القطن فقط ، بالتأثير المؤلم لريح الشمال الباردة، حيث بدأت أسنانه تصطك بفعل ذلك. وظل يمشي عله يدفأ قليلا، دون أن يدري أين توجد قرية تِزْدَمْتْ التي يقصدها. وعندما سأل أحد الرعاة عن موقعها، كان الجواب هو: " اتبع نفس الطريق وحينما تصل إلى قمة الجبل سترى القرية. لكن احتط من الثلج فهو يوجد بكثرة هناك ". وفي الطريق، التقى محمد براع آخر يغني ويعزف على آلة المندولين فسأله: " هل هناك ثلج على الطريق؟ " ولأن الآخر شخص ماكر، فقد ارتأى أن يخادع هذا الرحالة صاحب القميص وقال له: " كلا، كلا، لا يوجد هناك ثلج ". وسيستمر الدرويش في صعود الجبل مطمئنا إلى كلام الراعي. وعندما وصل إلى قمة الجبل، رأى بأن الجانب الشمالي لهذا الأخير مكسو بالثلج عن آخره. ومن المؤكد أن تزدميث توجد عند السفح في عمق أحد الوديان . لكن كيف السبيل إلى اكتشافها وسط الأشجار وهذا الرداء الأبيض الناصع؟ وبدأ الهبوط، وكلما تقدم في المشي غاصت رجلاه في الثلج. ولأنه كان يرتدي قميصا فقط، فقد كاد أن يموت من البرد. وكان يمشي بحذر مخافة السقوط في إحدى

الهاويات. ولم يكن يعرف مكان وجوده وبدأ ييأس من النجاة؛ آنذاك سمع نباح كلب. ويبدو أن هذا النباح كان صادرا من عمق الوادي الذي لم تتمكن عيون الدرويش المتعبة من رؤيته على بعد مئات الخطوات منه. وكان اللون الداكن للأشجار واللون الأسود للأرض يشيران إلى أن الثلج لم يعد موجودا بهذا الوادي السعيد والمعتدل الذي يتعين بلوغه قبل حلول الظلام.

وسيقوم الرحالة بمجهود أخير، عندما شعر بأن الأرض المبللة، هذه الأرض المرغوب فيها التي انحسر عنها الثلج، قد أصبحت صلبة تحت أقدامه؛ وهو ما كان يتمناه منذ ساعات. وفي نفس اللحظة ستظهر له بعض المنازل المنعزلة وسط أشجار عالية. لقد كانت تلك هي تزدميث وها هو قد نجا.. وجر قدميه إلى أن وصل إلى باب المسجد حيث سقط منهوكا. وقد دهش طالب كان خارجا من المسجد، من رؤية شخص بقميص واحد في هذا الطقس البارد. وعلى الفور، سيرجع إلى المسجد وسينادي رفقاءه قائلا: Aouith ed timessi . As nud dél tafgirth adizzizen (اشعلوا النار. سنصنع له شعلة يتدفأ بها)، وانهمك كل الطلبة في العمل. وبعد قليل أشعلوا نارا عظيمة من خشب البلوط ستساهم حرارتها القوية في إنعاش الدرويش المسكين بشكل أسرع مما كان يريد. فقد تم تقريبه كثيرا من النار إلى درجة أنه كاد أن يحرق حيا بعد أن كان سيموت من البرد. وسيترك هذا اليوم العسير أثرا لا يمحى من ذاكرة محمد. وحتى وهو يروي لي هذا الحدث، كانت أسنانه تصطك وكان يلعن بقوة من سلبوه أمتعته والراعي المنحوس الذي دله على الطريق.

هكذا، سيحيط طلبة تزدميث بمحمد، وعندما رأوا علامات الانتعاش بادية على وجهه أدخلوه المسجد. وستوضع أمامه سلة صغيرة مستديرة من الدوم، مليئة بالبلوط المشوي والساخن. وبعد ذلك، سيقدم له صحن مليء بماسنو المخلل بالملح والهندية المشرحة والعسل الحاد المذاق والزامبو (ثمرة الأرغال المشوية) والشنتي (الزرع الأبيض) والفول والسرغو. وسيشاركه الطلبة طعامه، حيث سيغمسون أصابعهم في العسل ليضعوها بعد ذلك في الزميت (الدقيق المشوي). وبعد الانتهاء من الأكل، ستقدم لمحمد ألبسة ملائمة وسيعين له ركن بالمسجد للنوم الذي سيخلد له الجميع.

وفي الصباح، عندما استفسر الدرويش عن مكان إقامته، كان الجواب كالتالي: " إنك توجد في دشيرة (قرية) ذَرْوتانْ المسماة أيضا تزدميث. وبما أنك شركي (من الشرق)، فأنت مطالب قبل الذهاب إلى أي مكان آخر، بزيارة قبر سيدي محمد نجيمون، أشهر ولي في بني سيداث، وهو مدفون في قلب الغابة، وكان يعيش في القرن التاسع وحقق العديد من الكرامات ".

لا ننسى، في هذا الإطار، بأن المغرب ملاذ حفدة الرسول محمد (ص)، هو الجزء من العالم الإسلامي الذي يوجد به أكبر عدد من الأولياء. وتستدعي سيرة كاملة لحياة الأولياء، عمر باحث وخمسين مجلدا in-octavo .

ومن بني سيداث، يمكن الإحاطة بالبحر الأبيض المتوسط الذي تظهر صفحته الزرقاء من بعيد. ويعتقد أهالي هذه القبيلة جازمين بأن كل سفينة مسيحية تمر على مرأى قبر سيدي محمد دجيمون، الموجود على الجانب الشمالي من الجبل الذي يقابل البحر، تتكسر وتتهدم وتغرق في بضع دقائق.. وهناك كرامة أخرى لهذا الوالي: ففي أحد الأيام، جمع حيوانات الغابة المتوحشة وخاطبها قائلا: " لا أريد أن يضيع أعزائي من بني سيداث وقتهم في حراسة مواشيهم. وستذهب الماعز والأبقار والحمير والبغال إلى الغابة بدون حارس، ويمنع عليكم مهاجمتها وأكلها ". ومنذ تلك الفترة، دأبت المواشي على التجول بحرية داخل الغابة في أمان تام. وعندما يقبل الليل، تعود إلى منازل مالكيها. وتشكل الأبقار استثناء لهذه القاعدة، فهي تعيش في حالة توحش إن صح التعبير، في الجبال؛ لكن حينما يريد الأهالي استخدامها أو بيعها أو أكلها، فإن القبض عليها يتم بسهولة. ولا تمتلك القبيلة جيادا، لذلك يتم إخصاب إناث الخيول عن طريق جياد مستقدمة من المناطق المجاورة. وتحكي أسطورة أن ابن آوى، الراغب في عصيان أوامر الولي، أراد مهاجمة معزة سيداثية، وعلى الفور، أحاطت به القطعان من كل جانب، وقضي عليه بضربة قرن مميتة. وقبل موته، أمر الوالي المبارك سيدي محمد دجيمون أتباعه بإقامة وعدة (حفلة إحسانية) كل خميس قرب ضريحه. وإذا ما كانت هناك كرامة، فإنها تتمثل في اتباع السيداثيين بدقة، وإلى يومنا هذا، لأوامر السيد. وسيستغل الدرويش أحد أيام الخميس لزيارة الولي، وأثناء دخوله الضريح سيندهش أمام بنائه العظيم وزخرفته الداخلية، العدد الكبير من الزائرين الحاملين معهم أضحياتهم. ويلج الأمازيغيون الضريح وهم مدججون بالسلاح كالجنود؛ بجلابتهم السوداء والقصيرة التي تصل إلى الركبة وسراويلهم الضيقة التي لا تتجاوز الركبة أيضا. ويضعون أشرطة من شعر الجمال حول رأسهم العاري ويتوشحون ببندقية بوشافر المستقدمة من تطوان. ذلك هو المظهر المثير لهؤلاء الجبليين المتوحشين الذين ما أن يدخلوا ضريح السيد، حتى يفرغوا بنادقهم في الهواء. وبعد كل طلقة يصيح البراح: " مرحبا بالقبيلة الفلانية " وبعد الزيارة يخرج المحاربون ويقفون بشرفة أمام مدخل الضريح ويخرجون سكاكينهم الحادة من أغمدتها ويشرعون في ذبح أضحياتهم التي يسيل دمها ساخنا على الأرض، مرددين العبارة الخاصة بهذه المناسبة. آنذاك فقط، يضعون أسلحتهم . وبالتدريج، يمتلئ السوق الذي يقام حول الضريح. ويجب على الرجال أن يدخلوه بدون سلاح، ولا يستردون بنادقهم الموضوعة داخل الضريح، إلا عند

رجوعهم إلى منازلهم بعد انتهاء الوعدة. وتكون هذه الأخيرة مناسبة لاستهلاك فظيع للكسكس واللحم والحلويات إلخ... ويجد الفقراء الذين تقام الوليمة من أجلهم، متعة كبيرة في ذلك. ومن جانبه، فإن الدرويش الذي تستهويه الأطعمة الفاخرة التي يتناولها بانتظام في ضريح الولي، سيستطيب المكوث بقرية تزدميث. ولأن زياراته للولي أصبحت متكررة ومظهره الورع أصبح مقنعا، فقد اقترح عليه بعض الأهالي بأن يكون حارسا لذلك المكان المقدس. غير أن فضوله الطبيعي ورغبته الملحة في التنقل منعاه من قبول هذه الوظيفة المريحة، مفضلا عليها رغبته في الاكتشاف. وبعد شهر، سيغادر القرية، متجولا داخل القبيلة، حيث كان ينام كل ليلة بقرية جديدة، ويتلقى في كل مسجد الضيافة التي تعتبر واجبا مقدسا لدى كل سكان المغرب. وفي هذه المنطقة، يسود الأمان نسبيا. فالسيداثيون هم أناس صارمون، لا يكذبون إلا نادرا ولا يمزحون أبدا. وهم متقوقعون حول ذواتهم، لا يريدون زيارة جيرانهم ولا أن يقوم جيرانهم بزيارتهم. ولأنهم بعيدون عن الساحل، فإنهم لا يعرفون التصدير ولا الاستيراد ويجهلون كل أنواع السكريات والشاي والقهوة والسكر والقطنيات الأوروبية. ففي هذه المنطقة لا يعرف اليهودي ولا النصراني. والزراعة السائدة لديهم هي زراعة القطن والكيف والنشوق. ويستهلك الأهالي الكيف والحشيش، وأيضا الأفيون ونباتا يدعى الكبار [21]، يتوفر على خصائص مخدرة. ويدخن النساء الكيف مثل الرجال ويرتدين ملابس صوفية. ويتشكل الطعام الرئيسي للقبيلة من البيصار[22] والكسكس بالفول والعدس والجلبانة (البزلاء) وقشرة شجر الأرز التي يشبه مذاقها، لحم الحيوانات، عندما تطبخ بشكل جيد. ويعتبر الحلزون طعاما مرغوبا فيه ويأكله الرعاة النهمون نيئا، بمعية البلوط الذي لا يقشر بالكامل .

وفي إحدى جولاته، فوجئ محمد بن الطيب برداءة أحوال الطقس واختبأ تحت شجرة بلوط quercus ballota، غير بعيد عن حظيرة يرتفع منزل وسطها . وكان الثلج يتساقط بكثرة وبدأ يغطي جسد الدرويش. في تلك الأثناء، خرج شيخ من ثقب بسياج الحظيرة وسأله بتمازيغت: Manis tchouchedh (عن أي شيء تبحث ؟) وسيجيبه الدرويش : k'imer' oua ha (إنني جالس هنا فقط). وسيتم الحوار التالي بينهما، وهو الحوار الذي أترك للدرويش مسؤولية نقل اللهجة السيداثية الخالصة التي تم بها.

- الشيخ: atad'fedh r'er taddarth innou ? (هل ستدخل إلى منزلي؟)

---

21 – وهي كلمة شبيهة بكلمة كبار câpre، لكن الأمر لا يتعلق بثمرة شجر الكبار.

22 – انظر مؤلفنا " أساطير القبايل الكبرى "، الجزء الثالث، الأسطورة 23 والبيت الذي استشهدنا به وهو: 'irouh ad immas ad' icich abiçar وملاحظاتنا بخصوص هذه الأكلة.

- الدرويش : ia llah (هيا بنا) . وسيقتفي الدرويش خطى الشيخ ليدخل معه البيت، حيث سيجد الأسرة منشغلة بشي القنافذ والأرانب (inisyin d'iouthal) وسيشاركهم طعامهم. وعند الانتهاء من الأكل خاطبه الشيخ : ? Ekhser' akoucher' illi , màna anisik chekk
(إنني أريد أن أهديك ابنتي، لكن من أين أتيت أنت؟)

- الدرويش: Gelh' akama ouroumi (من أراضي النصراني)

- الشيخ: tàjiben yi medden enni (هؤلاء الناس يعجبونني)

- الدرويش: ? Mar'er (لماذا؟)

- الشيخ: Ljdoud enner' d'ifranciyin (لقد كان أجدادنا فرنسيين).

وإثر ذلك نهض الشيخ وأخرج كتابا من داخل صندوق وعرضه على الدرويش قائلا:

- lektab agi fellas arbà lek'roun , thira ines tafrancist. Tamourth a n aith seddath oufrancis; H'acha souffer'en ten aith Merin d'aith ouattas. Ina ik'imen d'ououlen d'imselmen.

(هذا الكتاب عمره أربعة قرون، وهو مكتوب بالفرنسية، وقد كانت بلاد بني سيداث هاته، بيد الفرنسيين؛ لكنهم سيطردون منها بواسطة بني مرين وبني وطاس؛ والذين بقوا منهم أصبحوا مسلمين)

وإذا ما صدقنا محمدا، فإن شعورا بالتعاطف ينتظرنا في هذه القبيلة. وأنا أفضل تصديق ذلك، بدل الذهاب بنفسي للتأكد من هذا الأمر. ولم يفكر الدرويش الذي انفصل عن غلامه منذ زيارته لقبيلة بني بونصر، في مسايرة مشروع الزواج المقترح من طرف الشيخ. فقد وعده بالرجوع، لأنه لم يجرؤ على رفض هذا الاقتراح. وسيتوغل في الغابة، كي لا يظهر مرة أخرى أمام هذا الصديق والحفيد المزعوم للفرنسيين.

القرى الرئيسية لبني سيداث

- **تدارث** (الدار)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا، محاذية لنهر أزيلا.
- **إخمليشن** (المباركون)، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب نهر أزيلا.
- **الزاوية**، التسمية عربية، 50 منزلا، على نهر أزيلا.
- **تيزنميث** (الحزمة)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا على نهر أزيلا.
- **الخميس**، التسمية عربية، 20 منزلا.
- **القلعة**، التسمية عربية، 10 منازل.
- **سيدي بلقاسم**، التسمية عربية، 50 منزلا.

القوى العسكرية 2500 رجل من المشاة، عدد السكان المحتمل 12500 نسمة. المسالك خاصة بالبغال. البلد مليء بالمنحدرات ومغطى بالغابات. التعليم القرآني منتشر بما فيه الكفاية. في سنة 1893 كان قائد القبيلة هو سي محمد أخمريش. وكانت القبيلة مستقلة تماما .

قبيلة مثيوة

(الضخمة) – التسمية أمازيغية –

يمكننا أن نتابع على الخرائط مسار الدرويش خطوة خطوة. فقد انطلق من القبائل الجنوبية للغرب الريفي، متقدما ببطء نحو الشمال، دون الابتعاد عن حدود جبالة. وها هو قد وصل الآن إلى القبيلة البحرية الموجودة في أقصى غرب الريف. وتشكل متيوة الحد الفاصل بين هذا الإقليم وجبالة، ويجب أن يكون هذا الحد متماسكا، لأن البلد يتوفر على جوانب ضعيفة خصوصا بالساحل. وبالفعل، فليس هناك أي حاجز طبيعي من جانب البحر، بين غمارة ومتيوة. فغمارة، هذه القبيلة الجبلية القوية، الأكبر من متيوة مساحة وسكانا، تهاجمها من حين لآخر، مما يضطر المتيويين للإستعانة بالمقاتلين الريفيين المدركين لمخاطر هذه الهجومات.

وتمتد متيوة على ساحل من عشرين كيلومترا، وتتوغل جنوبا على مدى يوم من المشي (أربعين كيلومترا). وتحد غربا بغمارة، القبيلة الجبلية، وشرقا ببني جميل (الريف) وجنوبا ببني سيداث (الريف) وشمالا بالبحر الأبيض المتوسط. وتشتمل على خمسة أقسام هي: أيت مَحمد على جانب البحر بمحاداة غمارة؛ تيثولا (الحفر) المؤدية شمالا إلى البحر وعلى مستوى الجنوب الغربي إلى جبالة؛ أيت عبد الله، وهو قسم بحري أيضا يحادي بني جميل؛ بني علي بالوسط، ثم الربع الفوقاني بالجنوب. ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام أن يجند 1200 رجل حامل لبندقية، أي ما مجموعه ستة آلاف من المشاة بالنسبة للقبيلة كلها.

ولكونها تشكل الحدود الغربية للريف، المنغمسة في البحر الأبيض المتوسط، فإن متيوة تكتسي أهمية خاصة. فهي تستخدم فعلا كممر بين الريف وإقليم جبالة. ولا يمكن لتلالها القليلة الارتفاع، أن تشكل حاجزا في نفس أهمية الجبال الشاهقة لقبائل الريف الجنوبي. فعبر هذه الطريق أو من خلال القبائل البحرية لشرق الريف، يجب أن تتغلغل فيالق الجنود التي تريد احتلال الرِيف. فالحاجز الكثيف من الصبار الذي يبدو أن متيوة وضعته قصدا بينها وبين جبالة، لا يشكل سدا منيعا بالنسبة للجيوش الحديثة. لذلك فنحن سنصيب إذا ما قمنا في البداية بإخضاع القبائل البحرية وبعد ذلك بمحاصرة سكان الريف الجنوبي داخل جبالهم. وطبعا، فإنهم سيظهرون

مقاومة شديدة في حصنهم الطبيعي المشكل على طول الخط الجنوبي، من سلسلة جبال الأطلس المنيعة.

وقبل أن يفارق مضيفيه بدارُوتان، تلقى محمد منهم جلابة من الصوف وزوجا من النعال الجديد وحايكا وشيئا من المال يقدرب 2,25 فرنكا. وسيقوم بجولة طويلة بالقبائل المحاذية لجبالة قبل أن يعود إلى الريف، قادما من قبيلة غمارة الجبلية وعابرا قبيلة متيوة. ومن غمارة إلى قرية القلعة بالريف، يتشكل الساحل من سهل مموج بصخور عظيمة لا يمكن لأحد تجاوز أمواجها البازلتية، اللهم إذا تعلق الأمر بطائر أو بالأرجل السريعة للماعز. وتسمى طريق العمالقة هاته: " السلوم ". وسيضطر الدرويش الذي ترك عن يساره، ميناء تاكموت الصغير والمعروف أيضا بإسم الجبهة، إلى أخذ الطريق المتجهة جنوب أيت محمد، قادما من غمارة، ليتفادى الجروف الصخرية للسلوم. وبعد أن سلك هذه الطريق الجانبية، وصل بعد يوم من المشي، إلى قرية القلعة. ويتعلق الأمر بميناء بحري صغير، يعرف في البلد باسم مرسى سيدي فتوح ويقع على جانبي نهر تيفولا حيث يوجد مصبه. وبإمكان السفن الكبيرة الرسو بهذا الميناء. وقد أقيم بالقلعة حصن يزود بالمؤونة من طرف أقسام قبيلة متيوة. وعشية وصوله إلى القلعة، استقبل الدرويش كالعادة بحفاوة داخل المسجد، حيث وجد الطلبة وبعض الرحالة الغرباء. وهناك انتظر بأناة حلول موعد العشاء. ففي الغرب (المغرب) برمته، لا يتعشى الناس إلا بعد أداء آخر صلاة في المساء (صلاة العشاء) وذلك حوالي التاسعة ليلا. وما أن نادى المؤذن للصلاة حتى امتلأ المسجد بحشود من الشباب والشيوخ والطلبة والشرفاء الذين جاؤوا لأداء صلاتهم دون التخلي عن بنادقهم (كلايط) الإنجليزية المصدر. وهذا المشهد لشعب مسلح يقيم صلاته، دفع الدرويش إلى الاستنتاج بأن الثقة غير سائدة بين هؤلاء الورعين. وسيتحقق من ذلك لاحقا. وبعد الصلاة، جاء الطعام المنتظر محمولا من طرف بعض الرجال الذين يرافقهم حوالي ستين فردا حاملين بنادقهم معهم. وقدم لضيوف المسجد، الدجاج والسمك والعسل والزبدة وخبز الشعير؛ إذ لا يعرف خبز القمح، فمن متيوة إلى نيمور Nemours لا يزرع القمح إلا لماما، إن لم نقل إنه لا يزرع البتة.

وبعد الانتهاء من الطعام، رجع الأفراد الستون إلى منازلهم، حاملين الصحون الفارغة. ولم يبتعدوا سوى مائة خطوة، حتى سمع دوي تراشق بنيران البنادق. ومع ذلك، فإن نقاشات وضحكات ضيوف المسجد، لم تنقطع تقريبا. وسيقول أحد الحاضرين بنوع من اللامبالاة: " اسمعوا.. هناك تقاتل بالخارج ". وبعد برهة، جاء من أخبر الطلبة بأن اثنين من حاملي الصحون قتلا وسط القرية من طرف أعدائهم الشخصيين. فتساءل الدرويش المتعود على العادات المسالمة للطلبة: " أية قبيلة هاته يتم فيها التراشق بنيران البنادق بهاته السهولة؟.." وسيجيبه أحد

الطلبة: " لكم أنت ساذج (غشيم) .. ألسنا في الريف؟ وهل هناك ريفي واحد مات موتة طبيعية؟ فكلهم يموتون بفعل الحديد والنار. وتقام عليهم صلاة الجنازة بسرعة، إذ يعلن أحد الأشخاص بأن فلانا مات وقد قتله فلان. فلنصل عليه وندفنه ونترحم عليه ". وسيضيف الشاب المتكلم وهو ينهض: " طبعا هذا ما سنقوم به ". وبالفعل، خرج الجميع من المسجد بما في ذلك الدرويش وتم الالتحاق بمنزل القتيلين. وكانت مصابيح ضعيفة تنير الجثتين اللتين تم غسلهما وتكفينهما بسرعة، مع ترك الرأس مكشوفا. وسيقدم أصحاب البيت العسل والزبدة والخبز للطلبة، كما سيشاركونهم الطعام دون أن يبدو عليهم أي حزن. وقد سألهم محمد : " لماذا لا تبكون ؟ " فأجابوا: " لقد قاموا بقتل غيرهم " . ومرت الليلة في صلاة وأكل وشرب؛ إذ لا يعتبر السهر بجانب ميت أمرا محزنا في كل ربوع الريف، على الأقل بالنسبة للطلبة الذين يجدون فيه مناسبة ممتازة لإشباع بطونهم مع ربح بعض السنتيمات كأجر على السور القرآنية التي ترحموا بها على الميتين.

وعند الصباح، غادر الدرويش القلعة باتجاه سوق الاثنين الذي يقع وسط القبيلة بقرية سيدي ابراهيم. وقد شرع في تسلق مجموعة من التلال والجبال الصغيرة المليئة بالقرى، تاركا البحر وراء ظهره. وعلى مدى البصر يمتد التين الوحشي (كرموص النصارى) الذي يغطي التلال والوديان بكتلته الخضراء الداكنة. ومع ذلك ، توجد بعض المسالك الضيقة داخل هذه الغابة المتفردة. ورغم أن الفصل كان صيفا، فإن هواء البحر كان ينعش الجو ويهب دون توقف. واستمر الدرويش في ترحاله دون استعجال متنقلا من قرية إلى أخرى، دارسا البلد وعادات وأعراف سكانه. إن أهالي متيوة هم من عرق أمازيغي يتحدثون جميعا بتامازيغت وقليل منهم يعرف اللغة العربية. وهم شجعان وميالون كثيرا إلى الاقتتال ويعيشون في استقلال تام. وفي كل مكان تقريبا، من قرية إلى أخرى ومن منزل إلى آخر، تجد عداوات رهيبة. وفي كل يوم، تسفك دماء أفراد القبيلة بسبب الاقتتال. وغالبا ما تلتقي شبابا في العشرين من عمرهم وقد وسمت أجسادهم بندوب ناتجة عن طلقات الرصاص أو ضربات السكين. ويتميز المتيوي ببنية قوية مثل خنزير. ورغم فظاظته وطبيعته الشرسة، فإنه يحافظ على تقاليد حسن الضيافة، بحيث يتنازع الأهالي فيما بينهم على الضيف. وقد عاين الدرويش يوما، معركة منتظمة كان السبب في نشوبها مسافر أجنبي تنازعته عائلتان. وقتل من جراء النزاع ثلاثة رجال واستصحب المنتصرون معهم الضيف الغريب إلى المصلى الموجودة بعزوتهم. ويطلق إسم العزوة في الريف، على العشيرة الصغيرة المشكلة داخل كل قرية من منزلين أو ثلاثة منازل متحدة فيما بينها. ولكل عزوة مصلاتها الخاصة بها. وقد يحدث أحيانا أن تتنازع عزوات القرية الواحدة فيما بينها، لذلك فإن الرجال لا يخرجون إلا ليلا، وإذا ما ظهروا نهارا، فإن الرصاص المنطلق من العزوات المجاورة

سيوقفهم على الفور. بالمقابل، فإنه بإمكان النساء التحرك في الأزقة متى شئن دون خطر على اعتبار أن المهادنة التامة والأبدية تخصهن وحدهن لا غير. وهن يذهبن إلى منابع المياه وإلى الغابة والحقول دون خوف.

ويضطر أرباب العائلات المعرضون لمثل هذه المخاطر إلى تشغيل الأجانب لزرع حقولهم وحراسة مواشيهم. ويحظى هؤلاء المرتزقة بالاحترام مثل النساء. ففي متيوة، كما هو الحال في كل الريف، لا يعلن رب العائلة عن سفره حينما ينوي القيام بذلك. فهو يسافر خلسة أثناء الليل، متسللا بين الحيطان. وما أن يغادر القرية حتى يسرع المشي في الخلاء وحتى داخل الغابة إن أمكن. وسيجد نسبيا بعض الأمان عند ما يصل إلى أراضي القسم المجاور، لكن أي أمان؟ فغابة بوندي Bondy ، تعتبر مقام السلام والأمن والسعادة، مقارنة بالريف. ولهذا السبب فإن الرحالة عملة نادرة في المغرب، إذ يجب أن يكون المرء مدفوعا بسبب وجيه، إلى مغادرة قريته أو مدينته أو دواره.

وقد تحصل الهدنة من حين لأخر بين العزوات والقرى المتجاورة، لكنها لا تدوم طويلا على العموم. وفي متيوة، لا يخشى الغرباء شيئا، إذا ما كانوا يرتدون ثيابا ذات لون مغاير لثياب سكان البلدة الذين تكون جلابيبهم سوداء أو مخططة بالأبيض والأسود. وهذه الحصانة لا تخص سوى الغرباء المقيمين بالمساجد.

وكل قريب أو صديق يحظى بضيافة عائلة ما، يمكن أن يتعرض لنفس المخاطر التي يتعرض لها أفراد هذه العائلة.

والمرأة المتيوية جميلة. وهي ترتدي نوعا من القماش الأبيض يسمى **الرهيف** وتحمل في رجليها نعالا حمراء وتزين كواعبها ومعاصمها بقلائد وأسورة من الذهب أو الفضة. وتكتمل هذه الزينة بخرص الأذن الثمينة وذات الحجم الكبير وبتاج مذهب أو مفضض وبعقود مثقلة بقطع اللويز الذهبية أو بقطع من الفضة وبشوكات فضية تجمع أطراف الرهيف على الصدر. ولا ننسى خواتم الذهب والفضة التي ترصع أصابع اليد. وتهيمن قطع النقود الفرنسية والاسبانية على العقود، وبالمقابل فإن النقود المغربية نادرة. ولا تستعمل النساء الحجاب بتاتا، فهن يخرجن سافرات الوجوه.

وتتزوج العذراوات في سن مبكرة، ما بين عشرة أعوام وأربعة عشر سنة، وهن يكلفن أزواجهن ثمنا باهضا نتيجة صفقة مع الأب أو الوصي الشرعي. وتصل قيمة القبيحات إلى 500 فرنك ومتوسطات الجمال ما بين 1000 و 1500 فرنك، أما الجميلات فما بين 4000 و 5000 فرنك، إضافة إلى جهاز العروس والحلي. ويطلب الخطيب الذي يكون مرفوقا بثلاثة أو أربعة

أشخاص من أقربائه، يد الفتاة ويستفسر عن قيمة المهر من أبيها أو وصيها. وطبعا ، فإن المعنية بالأمر لا تستشار أبدا. وإذا ما قبل الطلب، فإن الأب أو الوصي يخرج مع الزوج الموعود وأقربائه، متجهين جميعا صوب قاضي القبيلة الذي يحرر عقد الزواج. بعد ذلك، يرجع الخطيب إلى منزله لتهيئ حفل الزفاف . ويقوم، حسب ما تسمح به ثروته، بذبح ما بين بقرتين إلى ست أبقار. وإثر ذلك، تطبخ جبال من الكسكس وتملأ جرات عن آخرها بالحليب وتهيئ أخوات وخالات وأم العريس أكواما من " المسمن " (الفطائر) الغارقة في بحر من العسل. وعندما يصبح كل شي جاهزا، يجمع العريس أهالي القرية ويدعوهم للأكل والشراب. وبعد الظهر، يتوجه مئات من الرجال المسلحين ببنادقهم وقد شدوا أحزمتهم بقوة، وكأنهم ذاهبون إلى معركة، صوب منزل الفتاة مشيا على الأقدام. وهناك يضعون بين يدي أب العروسة، المهر المتفق عليه، ثم يضعون هذه الأخيرة فوق بغلة مسرجة بشكل أنيق ويعطون إشارة الانطلاق بطلقات مشتركة من بنادقهم.

وتوضع الفتاة المحجبة وسط الموكب الصاخب الذي تعلن طلقات بنادقه المستمرة، من بعيد، عن قرب وصوله. وفي منزل العريس، تبدا النساء في الزغاريد بشكل قوي عند سماعهن لطلقات البنادق. وما أن يظهر الموكب حتى يسرعن للقاء العروسة، حيث ينزلنها من السرج ويرافقنها إلى منزلها الجديد ويمكثن معها داخل غرفتها إلى أن ينتصف الليل، آنذاك، ينسحبن ويتركنها لوحدها. وسيتم إخبار العريس الذي ظل بالخارج، يلهو ويطلق رصاص بندقيته مع أصدقائه، بأن موعد اللحظة المهيبة قد حانت، وتقوم بهذه المهمة الإخبارية، امرأة مسنة مخصوصة لهذه المناسبة. إثر ذلك، سيبتعد عن أصدقائه خلسة، لملاقاة زوجته. وسيضع فوهة بندقيته بفتحة حددت لهذا الغرض، حيث سيعلن الوميض المتبوع بدوي الرصاص، لسكان القرية، بأن الفتاة لم تعد بكرا. هكذا، سيستقبل الخبر بالزغاريد الحادة التي تستجيب لها طلقات البنادق. وفي الوقت الذي يظل فيه العريسان داخل الغرفة، يستمر الضيوف في الاحتفال طيلة الليل حيث يغني الرجال والنساء بالتناوب، منشدين أهازيج قديمة ومرتجلين لأخرى جديدة. وتعتبر زغاريد النساء الحاضرات، كمكافأة على هذه الأشعار المتقنة. وعند الفجر، يرجع الضيوف الذين امتلأت بطونهم إلى مساكنهم مع الاتفاق على الالتقاء في عرس مقبل.

طبعا، فإن زواج الأرامل والمطلقات لا يتم بنفس بهرجة زواج العذراوات، فهو يمر بهدوء وبتواضع ويتناسب مع وضع تلك التي فقدت أكبر جزء من قيمتها، أي بكارتها. وفي جميع الأحوال، يتم الاهتمام ببطون الضيوف الذين يهرعون إلى هذه الحفلات بكثرة.

وميزة المرأة الريفية أنها ولودة، وغالبا ما ترى امرأة محاطة بسبعة أو ثمانية أطفال؛ بل يتم ذكر نساء أنجبن 15 طفلا وطفلة. ويعتبر رجال ونساء هذا البلد الرهيب العائلات المتعددة الأفراد، كمنة إلاهية. ولا ينتظر هؤلاء الجبليون الأشداء، كما هو الحال في أوروبا غالبا، أن يكون الرجل قد خارت ثلاث أرباع قواه، ليتم تزويجه. فالريفي يتزوج وهو صغير السن، ما بين 15 و 20 سنة.فأي اختلاف هذا، بين شاب قوي البنيان ومتين كثور، وطالب الزواج من أجدادنا من أربعين سنة، والذي يساوي إنهاكه الجسدي، انهياره المعنوي.. ولا يحب الريفيون النساء العاقرات، بل يطلقوهن بعد انتظار سنتين أو ثلاث سنوات، مع إظهار احتقارهم لهن. ومن الأرجح ألا تتزوج سيئة الحظ هاته بعد ذلك، فهي تعيش في كنف أبويها اللذين يشبعانها شتما ويخضعانها لأشق الأشغال. ولن يكون مصيرها شبيها بمصير المراة الأوروبية الكسولة، وأقصد بذلك الدعارة. فهذا الجرح في بلداننا المتحضرة نادر الوجود في الريف، إذ لا يمكن للمرء أن يمزح بشرف النساء هناك.

لقد سبق لي أن قلت بأن كل القبائل الريفية مستقلة ولا تعترف بتاتا بسلطة سلطان فاس. ومع ذلك، فقلعية تتوفر على حصن يتواجد به أفراد من الجيش النظامي وتؤدي الضريبة بانتظام. وهذا هو مجال خضوعها. ولكي لا أعود ثانية إلى هذا الموضوع، سأوضح كيف تختار متيوة وباقي قبائل الريف الأخرى، القياد عندما يستدعي الأمر ذلك.

فالقياد الريفيون هم موظفون غير مستقرين، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لوزرائنا، وهم معرضون أكثر منهم، لسلاح مواطنيهم: إذ يتم انتخابهم ثم إعفاؤهم بسهولة مدهشة، بل ويتم إبادتهم بسهولة أكبر. وعندما يموت القايد، موتة طبيعية أحيانا وعنيفة في غالب الأحيان، أو يتم إعفاؤه من طرف الأهالي، فإن أمر انتخاب قايد آخر يخضع للإجراءات التالية: يشكل أعيان القبيلة الرئيسيون الجماعة، وهي أعلى هيئة في القبيلة، شبيهة بنقابة قوية، ويجتمعون بالمسجد أو بسوق يحضره الناس بكثرة. ويكون أفراد الجماعة قد اتفقوا مسبقا على إسم القائد المنتخب والذي لا يمكن أن يكون إلا فردا منهم لأن أعرافهم لم تكن ديماغوجية بحيث تسمح باختيار الشخص الذي سيشغل أهم وظيفة من أسفل المراتب الاجتماعية. هكذا، فإن الجماعة تعين أحد أعضائها كبديل للقايد الراحل. وستحرر عقد التسمية الذي ستتم المصادقة عليه شكليا من طرف السلطان. وسيتجه الشخص المعين، مرفوقا بهذا العقد، إلى فاس أو مراكش حاملا معه ما بين 1500 و2000 فرنك، قيمة الهدايا المخصوصة لصاحب الجلالة الشريف. لكنه لا يسافر لوحده، بل سيرافقه أربعة أو خمسة من أصدقائه القدامى، المكلفين بمراقبة القايد الجديد وحراسة محفظته. وتفاديا لكل مغامرة لا تحمد عقباها، فإن هؤلاء الأصدقاء الأوفياء، سيتكلفون بحمل المال، هذا

العبء الثقيل الذي يتشكل في الغالب من قطع 100 سنتيم. وسيأخذ الوفد المدجج بالسلاح طريقه على ظهر البغال؛ وإذا ما حصل أن سقط في كمين ، فإنه يرجع إلى القبيلة خالي الوفاض، بعد أن يكون قد ترك للصوص، الهدايا والألبسة والبغال وفردا أو أكثر من أفراده. أما إذا وصل بأمان إلى فاس أو مراكش، حيث يتواجد الإمبراطور، فإن أول ما يقوم به هو التوجه إلى باب القصر الملكي. وسيخبر أمناء القصر بوصوله وبرغبته في المثول بين يدي العاهل. غير أن هؤلاء الأمناء لا يعيرون الوفد أي اهتمام، إلى أن يقتطعوا جزءا من المال المخصص للسلطان. وإذا ما حاول أعضاء الوفد عدم الاستجابة لهذه المعاملة المتنفذة، فإنهم لن يروا السلطان أبدا، كما أن هذا الأخير لن يعلم أبدا بأنهم ينتظرون مقابلته عند باب قصره. وعند تلبية رغبة الأمناء، يتم إدخال أعضاء الوفد حفاة إلى قاعة الانتظار. وسيأتي الحاجب ليطرح عليهم بعض الأسئلة من قبيل: من أين أتوا وماذا يريدون؟ وهذا الشخص الذي يكون في العادة أحد أقرباء السلطان ومن الغنى بحيث لا يرضى بالهدايا الصغيرة التي يأتي بها الجبليون الفقراء، سيدخل إلى قاعة العرش وسيفتح الباب على مصراعيه معلنا بأعلى صوته: " إن بني كذا قد وصلوا..". ويكون السلطان، الذي تم إخباره من قبل، جالسا على مقعد مرتفع. وسيقوم بإشارة تحمل معنى: " دعهم يدخلون". هكذا سيسير القايد الجديد خلف الحاجب باتجاه القاعة. وسيحيي الأمير على الطريقة المغربية، أي بتقبيل رؤوس أصابع يده اليمنى، وهي حركة مؤدبة معروفة تحت إسم " بندق". من جهته، فإن السلطان سيرد على هذه التحية بمثلها. آنذاك، سيتقدم الموظف الموعود من العرش بنوع من الرهبة، لأن حارسين خاصين للسلطان يحيطان به ويشهران سيفهما ويبديان ملامح قاسية. وسيتحدث أحد هذين الماردين بصوت قاطع، طالبا من القادم الجديد، الجلوس على مقعد موضوع أمام السلطان بالقرب من العرش. وهو ما سينفذه القايد، مقدما عقد تسميته دون أن ينبس بكلمة.

وسيتناول الإمبراطور العقد، ثم سيسلمه لأحد الوزراء الجالسين بجانبه، شيئا ما إلى الوراء، على مقاعد أقل ارتفاعا وأبهة من مقعده؛ حيث سيبدأ الوزير بقراءة العقد بصوت عال. عندئذ سيخاطب السلطان القايد، سائلا إياه عن قبيلته وأعيانها وحالة سكانها والمحاصيل والمواشي. ولإنهاء اللقاء، سيقوم بإشارة من يده، سيقترب الحاجب على إثرها من القايد قائلا: " نوض آسي " [24] (انهض يا سيدي).

وعلى الفور، سينهض القايد. وإذا ما كان عارفا بقواعد البلاط الشريف فإنه سيرجع بالقهقرة، اما إذا كان جاهلا بها، فإنه سيدير ظهره للشريف، إلا أنه لن يلام على ذلك، بل سيكتفي

---

[24] – كلمة سيدي اختصرت في سي. وهذا دليل على الشغف بالختان.. أما " أ " التي تسبق سي ، فهي إضعاف للمقطع الصوتي " يا ".

الحاضرون بابتسامة ساخرة من فظاظة هذا الخشن. بعد ذلك، سيصطحب الحاجب القايد إلى قاعة الاجتماع (طحطحة) المخصصة لاجتماعات القياد في مرحلة محددة من السنة. هكذا، سيكون أمام القايد متسع من الوقت للنظر بإعجاب إلى الزرابي الجميلة والستائر الفاخرة التي سيقدم عنها فيما بعد وصفا متخيلا أمام أصدقائه المشدوهين.

إثر ذلك، سيستقبل السلطان أعضاء الوفد واحدا بعد واحد، ثم يصطحبهم الحاجب تباعا إلى قاعة الاجتماعات حيث سيجدون القايد المعين. في نفس الآن، سيقدم آخر عنصر ضمن الوفد، الهدايا إلى السلطان، حيث سيضعها قرب العرش قائلا: " هذه هدية القايد " وسيعود لملاقاة أصحابه. آنذاك سيفتح الحاجب باب القاعة على مصراعيه وسيكون أعضاء الوفد متواجدين بمكان لا يروا السلطان من خلاله، مثلما لا يراهم بدوره. وسيحدث في قاعة العرش مشهد هام وعظيم، لم يسبق للأوروبيين أن عاينوه من قبل.ذلك أن العاهل ووزراءه الجالسين على مقاعدهم، سيرفعون أياديهم مجتمعة قرب وجوههم وكأنهم يقرؤون كتابا؛ وسيرددون بصوت عال الفاتحة، مضيفين إليها بعض الابتهالات والدعوات لفائدة القايد وأعضاء الوفد وقبيلتهم.

وستقدم هذه الدعوات المكتوبة على ورقة، إلى الحاجب الذي سيلتفت صوب الغرباء ، بعد أن كان نظره مصوبا إلى قاعة العرش، وسيشرع في قراءتها.

عندئذ سيدرك أعضاء الوفد بأن الاستقبال قد انتهى وسيغادرون القصر. فإذا كانوا في فاس، فإن ضريح المولى إدريس هو الذي سيكون مكان مأواهم ومبيتهم؛ أما إذا كانوا في مراكش، فإنهم سيقيمون في ضريح سيدي بلعباس السبتي. وفي الصباح، سيرسل السلطان إلى القايد الجديد طابعا من الذهب أو الفضة، حسب أهمية الشخص وقبيلته. ويحمل الطابع النقش التالي: "إن فلانا هو قايد القبيلة الفلانية، طوعا أو كراهية." وسيرفق ذلك بثوب فاخر وبجواد رائع. هكذا سيقفل القايد راجعا ومعه عشرة فرسان نظاميين (مخزنية) مكلفين بمرافقته إلى القبيلة، من أجل جلب الضرائب التي لم تؤد بعد. وسيأخذ الوفد طريقه إلى الريف، مع هذه القوات المساعدة الخطيرة التي سيقيم أفرادها عند القايد ويصبحون منفذي أوامره الانتقامية. وعند رؤية المخزنية، تسارع القرى بتقديم الهدايا إلى القايد المنتخب الذي وافق السلطان على اختياره. وسيقوم هؤلاء المخزنية بجولات داخل القبيلة مستقرين بالبلدات التي يشكون في معاداتها للقايد وملقين القبض على أعدائه الشخصيين المتهمين بعدم أداء الضريبة. وبعد شهر أو شهرين من العيش على هذا المنوال، سيرجع المخزنية إلى حاميتهم بعد أن ملؤوا بطونهم وأثقلوا بالهدايا، وسيقدمون للسلطان جزءا ضئيلا من الأموال التي جمعوها، إذ أن أغلبها سيذهب إلى جيوبهم أو جيوب القايد ومناصريه.

إن رئيس الأهالي المحروم من مساعدة المخزنية ، سيحكم بمساعدة " الصف "؛ وسيقترف كل أنواع الانتهاكات والتجاوزات، إلى أن يأتي اليوم الذي سيقتل فيه أو يجبر على الاستقالة، لأن عدد الرافضين له سيكون قد ازداد، كما أن الفئة المشايعة له ستكون قد ضعفت. وسيطن " الصف " المنتصر عن الشخص البديل؛ ويمكن لهذا الاختيار أن يحظى أو لا يحظى بموافقة السلطان، كما يمكن لهذا الأخير أن يتلقى بعد شهور من الحدث، خبر إقالة القايد المعين أو قتله بخناجر أعدائه، وذلك عن طريق الصدفة.. وهنا سيستخدم لباقته لإعادة القبيلة المتمردة إلى جادة الصواب، وأحيانا ما ينجح في ذلك؛ إلا أنه يضطر أحيانا أخرى إلى انتظار سنوات عديدة قبل أن يعود إليه أبناؤه الضالون وتصل مساهماتهم الضريبية. وهو لا يحظى بتعاطفهم إلا بعد أن يكثر من الشكاوي في رسائله المطولة التي يعاتب فيها هؤلاء المسلمين الفاترين الذين لم يلتزموا بأحد المبادئ الأساسية للقرآن الكريم. وسيبرز بالمناسبة ميزته كحفيد للرسول، وهي حجة لا تقاوم وسيكون لها تأثيرها على القبائل الأكثر استقلالية.

هكذا، ستأخذ الهدايا طريقها من جديد إلى فاس أو مراكش وستعلن الوكالات الأوربية للعالم المندهش، بأن صاحب الجلالة الشريف، قد جلب بالقوة، ضرائب هذه القبيلة المتمردة أو تلك..

طبعا إن الريفي لا يلتزم بالأداء المنتظم للضريبة التي يعتبرها كهدية إلى حفيد الرسول، أكثر من اعتبارها كرسوم إلزامية. وفضلا عن ذلك، فإن الحصص المدفوعة quotes-parts تكون ضئيلة؛ فهي تحدد من طرف الجماعة وفق إمكانية كل واحد، ولا تتعدى أبدا، حتى بالنسبة للأغنياء، 10 إلى 15 فرنكا في السنة. أما حصة الفقير من كل ذلك، فهي ضعيفة ولا تتعدى بضعة سنتيمات. وللأسف، فإن القياد وأعضاء الجماعة لا يشبعون وهم غير عادلين لأنهم يعفون الموالين لهم من كل ضريبة، ويثقلون كاهل خصومهم بالرسوم. وهو ما يفسر الاضطرابات المتواصلة بالقبائل الريفية وعدم احترامها لعاهل لا يستطيع حمايتها من جشع القياد المخزنيين أو المستقلين.

لذلك ترى بعض القبائل تتخذ القرار الحكيم المتمثل في إدارة نفسها. فهي تعين جماعة تكون ملزمة بعدم تحصيل أية ضريبة. وينحصر دور هذه الجماعة في قمع مرتكبي الجنايات والمخالفات وفي تمثيل القبيلة على مستوى العلاقات الخارجية وفي إصدار أحكام الإعدام في اللحظات العصيبة. وللأسف، فإن أعضاء هذه الجماعة ليسوا بمنأى عن الارتشاء. فممارسة السلطة تذهب بصواب هؤلاء الذين انتخبهم الشعب. لذلك فهم سيتفقون فيما بينهم لإثقال كاهل الشعب الفقير بالضرائب. وستكون الثورة عليهم آنذاك ضرورية لإزالة نفوذهم المستخدم بشكل

سيء. وستكثر الخصومات والانتقامات والاغتيالات وتصل الفوضى إلى ذروتها. وهذه هي اللحظة السيكولوجية المنتظرة من طرف السلطان. فبفضل مناوراته ومناورات بعض مناصريه، سيفرض أحد أتباعه على القبيلة المتمردة التي أنهكتها الفوضى وسيجلب الضرائب المستحقة من قبل، وهي مهمة صعبة وخطيرة بالنسبة للقايد الجديد.

ولا يوجد أي نوع من الإدارة بالريف، بحيث لن تندهش إذا ما علمنا بأن السلطة القضائية نفسها مجهولة. ويعتبر الطالب الذي حظي بلقب القاضي مجرد كاتب عمومي يستخدم قلمه لتسجيل بعض الأحداث العامة، كالزواج والطلاق وعمليات البيع والشراء. ولأن قمع الجنايات والمخالفات لا يوكل لأحد بعينه، فإن أقارب الضحية هم الذين يتكلفون بعملية الانتقام. فعلى امتداد الريف، يعتبر الأخذ بالثأر أمرا قائما باستمرار. لكن حينما تأخذ الجريمة لبوسا فظيعا أحيانا، فإن الجماعة هي التي تأخذ المبادرة، وويل لذلك الذي سيكون هدفا لمتابعتها؛ إذ سيطارد كوحش جريح وسيحكم عليه بالعيش في الغابة إلى الأبد أو الهجرة. هذا إذا لم يتم قتله في إحدى النزعات. وستصبح ممتلكاته عرضة لنهب أعضاء الجماعة الذين يأخذون القسط الأوفر، تاركين لباقي أفراد القبيلة المساكين، بعض الأسمال البالية. وقد روى لي ريفي من بني بوغافر، وهو قسم من قلعية، حكاية ذات مغزى بهذا الخصوص. فأخوه الذي اتهم ظلما بارتكاب جريمة، قبض عليه من طرف أعضاء الجماعة وأعدم رميا بالرصاص بمنزله، وسط أفراد أسرته المرعوبين. وفي الليلة الموالية، سيأخذ الراوي كل أقربائه من النساء والأطفال وسيختبئ بالغابة حيث سيشرع في عملية إبادة لقاتلي أخيه. وستكون الحصيلة هي: مقتل ستة من أبناء عمه وسبعة عشر من أعدائه. وكان هو الرجل الوحيد من العائلة الذي بقي على قيد الحياة. وبالرغم من أن بندقيته قتلت ثمانية أفراد من أعضاء الجماعة، إلا أنه لم يقو على البقاء بالقبيلة. وسيرحل إلى مليلية وبعدها إلى وهران، بحثا عن العمل والأمان. وهو ينتظر منذ عشر سنوات، الفرصة المواتية للعودة ثانية إلى دياره؛ وما زال خاضعا لتأثير الفكرة التي مفادها أنه لن يموت قبل توجيه رصاصات بندقيته إلى آخر أعدائه».

ومنذ بضع سنوات، ظلت متيوة بدون قايد. فهذه الجمهورية الصغيرة تدير شؤونها بنفسها بالاعتماد على ممثلين للأهالي، منتخبين داخل كل قسم. ولا يجتمع أعضاء الجماعة الرئيسية المكونة من ممثلي مختلف الأقسام إلا في اللحظات العصيبة؛ حيث يتم الحسم في أمور السلم والحرب والذعائر والطرد. وطبعا فإن لكل قرية جماعتها الصغيرة الخاصة بها.

ورغم استقلاليتها المطلقة؛ فإن قبيلة متيوة ترسل من حين لأخر، بعض الهدايا إلى السلطان. وهي هدايا مقدمة إلى حفيد الرسول وليست إقرارا بالخضوع لسلطة الإمبراطور الذي لا يخشى الريفيون بتاتا، سلطته الدنيوية.

وعلى الحدود الغربية من القبيلة، غير بعيد عن البحر، توجد مناجم الذهب والفضة. ويرجع ذلك إلى كون متيوة محاذية لغمارة، وهي المنطقة التي يبدو أن الطبيعة حبتها بأغنى الثروات المعدنية في العالم. ولا يعرف سكان متيوة، مثلهم مثل جيرانهم، جهة الغرب، استغلال هذا المعدن الثمين. وهناك غدير ذو أهمية لا بأس بها، وهو واد تيثولا الذي ينبع من الربع الفوقاني ويتبع مجراه من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقلعة، حيث يتشكل ميناء صغير.

القرى الرئيسية بمتيوة

- تاكموت (المحاطة بالصخور)، (التسمية أمازيغية)، قرب البحر 100 منزل.
- القلعة أو سيدي فتوح (التسمية عربية)، قرب البحر 100 منزل.
- تيثولا، على الغدير الذي يحمل نفس الاسم، 100 منزل.
- سوق الاثنين، وهو المكان الذي يقام فيه أكبر سوق بالقبيلة.
- تزيارث (كرمة العنب)، (التسمية أمازيغية) ، 100 منزل.

القوى العسكرية، 6000 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان 30 ألف نسمة. وهناك حوالي 60 قرية. التعليم القرآني قليل الانتشار.

قبيلة بني گميل (جميل) [24]

وهي قبيلة بحرية، تحدها متيوة غربا وبني بوفراح شرقا وزرقت جنوبا، وتمتد بحرا على مدى عشرة كيلومترات، كما أن عمقها بالداخل يمتد على مدى عشرين كيلومترا تقريبا. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي مصطاسة بالشمال، إشاويين بالغرب وأيت علي بالشرق. ويشكل هذان القسمان الأخيران جنوب القبيلة.

---

[24] – من الكلمة العربية جميل التي تحولت فيها الجيم إلى گاف.

إن سكان تزيارث لم يفلحوا في منع الدرويش من زيارة بني گميل. وقد بذلوا كل جهودهم في إقناعه بأن هذه القبيلة توجد في حالة حرب مع متيوة، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل. والشيء الوحيد الذي كان يقلق محمد بن الطيب، هو الجلابة المتيوية التي كان يرتديها، إذ كان لديه إحساس بأن هذا اللباس الوحيد الذي يمتلكه، قد يثير له القلاقل عند جيران المتيويين.

وعند الفجر، سيغادر تزيارث متجها صوب الشمال الشرقي، وقد كانت كل المنطقة من جانبي الحدود بين متيوة وبني گميل مقفرة. فقد هجر السكان منازلهم هربا من ويلات الحرب. وكانت المحاصيل المهجورة تتعفن في عين المكان والفواكه الطازجة ملقاة على الأرض. وبجانب المنازل الفارغة كانت خلايا النحل مليئة بالعسل وتنساب منها على العشب خيوط ذهبية سيغمس الدرويش أصابعه بداخلها لمرات عديدة. وكانت الحيوانات المتوحشة قد استقرت بهذه الضيعات المهجورة، حيث أن بنات آوى والثعالب والخنازير كانت تعبر الأزقة باطمئنان وتدخل المنازل دون أن تعير اهتماما لرحالتنا الذي كان يحاول أن يخيفها بصراخه، وهو نفسه غير مطمئن لردود أفعالها. وعند الظهر سيرى فوق تل، بلدة صغيرة مبنية على جانب منحدر باتجاه الشمال الشرقي. وأسفل المنحدر هناك غدير، نتجت عنه بركة مليءة بالطيور العابرة. وكانت أشجار الفواكه ممتدة على مدى البصر. وأمامه، على بعد كيلومترين، كان البحر الذي لم يره الدرويش إلا مرتين أو ثلاث مرات عبر ممرات الصبار، ينفتح بشكل شاسع على الشمال. ولم تكن البلدة الصغيرة سوى مصطاسة، عاصمة بني گميل. وسيتجه محمد رأسا إلى الأمام، نازلا عبر التل. وبعد مائة خطوة، سيسقط في كمين نصبه له ما بين 100 و 200 فردا، لابسين جلابات سوداء. وكان هؤلاء الأشخاص مستلقين على العشب، تحت ظل الأشجار ومسلحين ببنادق إنجليزية. وفوق رؤوسهم العارية تماما، كانت توجد جهة اليمين، خصلة من الشعر مقسمة إلى ثلاث ضفائر طويلة بشكل عجيب. وحول جذر هذه الخصلة المسماة گطاية، كان جلد الشعر محلوقا بعناية.

وعند رؤيتهم للدرويش بجلابته المتيوية ذات الخطوط البيضاء والسوداء، صاحوا بالعربية: " إنه متيوي، فلنقتله ". وانقضوا على الرحالة، بحيث صوب أول المقتربين منه، بندقيته إلى صدره. عندئذ سيقول الدرويش: " لا بأس ". وعلى الفور سيرفع الرجل فوهة بندقيته. فهاتان الكلمتان السحريتان عربيتان وتعنيان بأنه لا بأس هناك. وفي الريف، خصوصا لدى بني گميل فإن معناهما هو: أنا صديق ولا أضمر أي شر. وسيقول الرجل لأصدقائه الذين التحقوا به: " إنه صديق، فهو ليس من متيوة ". وقد أسرع محمد بتأكيد ذلك، معلنا بأنه كان مجرد ضيف على هذه القبيلة. وسيخضعه رؤساء المجموعة لاستنطاق مطول، له علاقة بنوايا أعدائهم والقوى التي يتوفرون عليها قائلين: " لقد سمعنا بأن متيوة حليفة غمارة ستهاجمنا عما قريب. لكن حدودنا

محروسة بشكل جيد. فنحن، سكان مصطاسة نراقبها من الشاطئ إلى حدود إشاويين، وهؤلاء يراقبون ما تبقى إلى حدود زرقت". وسيطمئنهم الدرويش قائلا بأن الميتيويين الآمنين في ديارهم لا يفكرون بتاتا في مهاجمتهم. إثر ذلك، سيناوله أحد الرؤساء قطعة خبز مليئة بالعسل وسيخاطبه قائلا: " اذهب، ها أنت الآن في أرض مسلمة وليس لديك ما تخشاه. فقبيلتنا غنية ومزدهرة وتحب الغرباء. أما أهالي متيوة فهم نصارى ". وسيترك محمد هؤلاء المحاربين ليتابع طريقه إلى حين وصوله إلى واد بني كميل. وباستثناء البركة التي تحدثنا عنها، فإنه لم تكن في الغدير ولو قطرة ماء واحدة.

هكذا، سيعبر محمد مجرى النهر الصخري الذي رسمه الشلال، ليصل بعد ذلك إلى بلدة مصطاسة المبنية على ضفته اليمنى. غير أن جلابته المتيوية ستثير فضول الرجال والنساء والأطفال الذين سيجتمعون حوله وسيفحصونه قائلين: " إنه متيوي ". لكن رحالتنا سيسرع الخطى باتجاه المسجد متخذا هيئة الدرويش المخبول إلى حد ما وسيبتعد عن الحشد الذي اعتقد بأنه رجل مجنون. ومعلوم أن المجانين يحظون لدى كل المسلمين بعطف كبير وباحترام عميق، لأن جنونهم لا يؤذي أحدا على العموم.

فالإدمان على الكحول الذي يعتبر مصدرا للعديد من النوبات الجنونية العنيفة عندنا، غير معروف في الريف.

وبعد تخلصه من الفضوليين الذين تحول عداؤهم فجأة إلى احترام، دخل الدرويش المسجد. وكان حوالي 50 طالبا من كل الأعمار، يجلسون القرفصاء على حصائر، ويتلون آيات قرآنية بأعلى صوتهم. وسيقوم اثنان منهم بتقديم سلة مليئة بخبز الشعير، كانت متبثة بالحائط، إلى الرحالة الذي كان قد انزوى بزاوية بالمسجد، فور دخوله. كما سيحضر طلبة آخرون لأطعمة موضوعة بصحون من الطين الذي تم تلميعه، وتتضمن الدجاج والبيض والعسل والزبدة. ولم يحصل أي تبادل للكلمات، بل سيترك الدرويش أمام طعامه، يأكله كما يشاء. وبعد انتهائه من الأكل، طلب منه إخبار الحاضرين، من أي بلد هو. وسيعلن محمد بأنه ريفي، دون الإشارة إلى موطنه الأصلي. ولأنه رغب في تغيير جلابته، فإن الطلبة سيأتون له على الفور بجلابتين بلون أبيض وهو اللون المميز للضيوف. وبذلك سيتخلى الدرويش عن جلابته المتيوية مصدر كل مشاكله، وبعد أن حظي بالتغذية والمبيت بالمسجد، سيتفرغ لمعاينة بلدة مصطاسة على مهل. وهذه البلدة تستحق اسم المدينة، لأنها في حجم مدينة مستغانم. لكن يا لها من مدينة قذرة. فالدرويش نفسه اشمأز منها كثيرا، وهذا أقل ما يقال عنها. تصوروا معي، أزقة ملتوية مليئة بزبل الأسمدة وبالقاذورات وبجانبها بالوعات مليئة ببول الحيوانات. وتنمو شجيرات التين

الوحشي وبعض النباتات المعمرة وسط النفايات البشرية، مما يجعل حركة المرور صعبة. أما الحيوانات الميتة، فتتعفن تحت أشعة الشمس وتزيد الجو نتانة. ورغم ذلك، فإن جو المدينة ليس مضرا بالصحة، لأن هواء البحر يهب بانتظام من العاشرة صباحا إلى السادسة مساء، حاملا معه الروائح النتنة والفظيعة.

وتوجد بمصطاسة طائفة يهودية. وهذه أول مرة، منذ مغادرتنا لتاغزوت نلتقي فيها بممثلين عن هذا العرق البئيس الذي تمكن من التغلغل في كل المناطق، بما في ذلك عند ألد أعدائه، أي المسلمين. والغريب في الأمر، أن يهود مصطاسة ليسوا مجتمعين داخل " الملاح "، كما هو الشأن في المدن المغربية الأخرى؛ إذ أن مساكنهم لا تختلف بتاتا عن مساكن الريفيين. فهي منتشرة في كل مكان، لكنها في ملكية المسلمين، لأنه لا يمكن لليهودي أن يمتلك شبرا من الأرض ولا مسكنا في الريف برمته. فهو يقتصر على تخزين الأموال باستمرار وعلى جمع قطع الذهب التي يخفيها تحت الأرض، دون أن يستفيد منها كما يستفيد من أمواله في البلدان التي يسود فيها الربا. فهو لم يعمل فقط على اختراق الساكنة المغربية الأكثر تعصبا في العالم، بل وجد السبيل لكي يكون محميا من طرفها أيضا. وقد استعمل لذلك وسيلة بالغة الذكاء، حيث جعل من نفسه يهودي المسلم. ومعنى أن يكون يهودي المسلم، هو أن يكون رهن إشارة هذا الأخير جسدا وثروة. وهي حالة وسطى بين العبودية والتبعية vasselage ، تعطي للسيد الحق في ضرب تابعه اليهودي بل وقتله أحيانا دون تعرض للعقاب في حالة السرقة والتمرد والخيانة وشتم الرسول ومحاولة اغتصاب أو إغراء مسلمة. ويمكنه أن يشغله وأن يمنعه من الزواج وأن يجبره على الطلاق وأن يفرض عليه زوجة ما وأن يطمع في ابنته أو زوجته، وأخيرا أن يرسله في رحلة لقضاء أغراضه الخاصة.

وكتعويض عن ذلك، فإن لليهودي الحق في أن يكون محميا من طرف سيده الذي يجب عليه الدفاع عن ثروة وأسرة وشخص تابعه، ولو أدى حياته ثمنا لذلك. ونحن نندهش حينما نجد هؤلاء اليهود، في تلك المناطق النائية من المغرب، وقد نجحوا في العيش وسط سكان مسلمين قساة بإطلاق، لا يحتملون مجيئ أي غريب إلى ديارهم، حتى ولو كان مسلما مثلهم؛ ومع ذلك، فهم يتحملون هؤلاء الساميين sémites المنيدين والماكرين. ويجب كتابة مجلد لتفصيل القول في الاحتقار الذي يتلقاه اليهودي المغربي حيث توجه إليه أقذع الشتائم وأفظع الإهانات، بشكل دائم، دون أن يعير لذلك اهتماما. ويجد الأطفال المسلمون لذة سادية في فرار العمالقة الإسرائيليين الملتحين الذين يتعرضون للرشق بالحجارة من طرفهم. ورغم أن آباءهم يمنعونهم بشدة من القيام بهذا اللعب الهمجي، إلا أنهم يعودون إلى فعلتهم حالما يغيب هؤلاء الآباء.

واليهودي مطالب دوما بأن يدعو المسلم " يا سيدي "، وهو مجبر على خلع نعليه والمشي منحنيا وبسرعة، عندما يمر أمام المسجد.

وتتضمن مدينة مصطاسة خمسة مساجد، كما يتوفر مسجد واحد من بينها على صومعة مرتفعة هي بمثابة مرصد للمراقبة، يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى خليج سيدي الحاج سعيد الذي يقع على بعد مئات الأمتار بالشمال الغربي. ويوجد فوق البرج، مدفع عتيق، صدئ وذو حجم كبير، وجهت فوهته صوب البحر. طبعا، فإن أكبر السكان سنا، لم يسبق لهم أن سمعوا صوته، لكنهم يفتخرون به مع ذلك، بحيث أن طلقات أقوى مدرعاتنا لا تساوي شيئا بالنسبة إليهم، أمام وجود هذا الوحش الحديدي.

ويستخدم خليج سيدي الحاج سعيد كميناء بمصطاسة، وهو يستقبل مياه واد بني گميل في فصل الشتاء، وهذا السيل الجارف يجف تماما في الصيف. وعلى جانب البحر، بمحاذاة الموج، ينتصب قبر الولي الذي منح اسمه إلى الخليج. ويتعرض هذا المدفن الذي تعلوه قبة جميلة إلى حد ما، لضربات الأمواج العاتية أثناء قيام العواصف القوية.

إن ضاحية مصطاسة هي عبارة عن سهل مغطى بأشجار الفواكه والتين الوحشي. ويمتلك أهالي أيت علي وإيشاويين جبالا غابوية صغيرة. وللأسف فإن الصبار ينتشر كثيرا هناك. كما نجد بالقبيلة الكثير من أشجار التين والعنب. ويتم بالأساس زرع الشعير والفول والعدس. أما القمح فهو غير مطلوب بذريعة أنه يضعف من يتناوله، في حين أن الشعير يمنح القوة والجرأة لمستهلكه.. وعلى الحدود الجنوبية، يصنع هلام العنب بكثرة. وفي كل مكان، توجد الماعز والأبقار والبغال والحمير وقليل من الجياد. ولا تجند القبيلة سوى 3 آلاف رجل، لكنها غالبا ما تنتصر على متيوة التي توجد معها في حالة نزاع مستمر. ولهجتها هي تامازيغت، غير أن العربية تهيمن بمصطاسة وبعض القرى وسط القبيلة. ولتفسير هذا الوضع المثير، يزعم الامازيغيون بأن أهالي بني گميل وبني بوفراح، هم حفدة الموريسكيين الأندلسيين، ولذلك مازالت العربية تستخدم في بعض بلدات هاتين القبيلتين؛ ويدعي سكان هذه البلدات بنوع من السخرية " مكركبين الرأس "، أي أصحاب الرؤوس المدورة و المحدودبة.

ولا يعترف أهالي بني گميل بسلطة السلطان، فهم يعينون ويقيلون القايد بسهولة مدهشة. ويحدث أحيانا أن يظلوا بدون رئيس لعدة سنوات، آنذاك، تكون الجماعة هي المسؤولة عن تدبير شؤون القبيلة. وهم مسلمون غير ورعين، إذ لا يؤدون الصلاة أبدا ويكتفون بصوم رمضان فقط.

وقد وقعت للدرويش مغامرة عجيبة بمصطاسة. ذلك أنه كان موجودا بالصدفة بجوار منزل يهودي إسمه مشيشو. وفي تلك اللحظة فتحت يهودية في سن الكهولة الباب، وعند رؤيتها

لمحمد، صاحت باتجاه زوجها: " يوجد يهودي بالباب وأعتقد بأنه حاخام ". وبالفعل، فقد كان الدرويش بوجه المسيح المحاط بخصلات طويلة على صدغه، يشبه حاخاما حقيقيا. وسيأتي مشيشو بنفسه إلى باب الدار قائلا باحترام: " الشلام عليكم يا أهل الإشلام " [25] وسيجيبه الدرويش الذي كان متيقنا بأن قصد كلامه لن يفهم، قائلا: " السيلام عليك " (أي لتسقط عليك الحجارة، وبمعنى آخر لتكن عرضة للرجم). وقد نطق بكلمة سيلام (حجر) سريعا وليس بكلمة سلام. وذلك كما اقتضت عادة بعض العرب في استعمال هذه الكلمة، حينما يخاطبون كفرة غير مسلمين، بالعربية.

وسيلاحظ الحاخام المزعوم فور إدخاله إلى المنزل، بأن هذا الأخير ليس أنظف ولا أوسخ من مساكن المسلمين. وهو مصبوغ من الداخل بطريقة غريبة، فالحيطان ملونة بأشكال متنوعة، من اللون الوردي إلى القرمزي المتوهج، مرورا بألوان عديدة. وسيجلس الدرويش فوق حصيرة، مع كل أفراد الأسرة (الرجل والمرأة والأطفال) حيث سيتم تناول كعكة المخروط بالعسل. وعندما سئل محمد، من أي بلد هو قادم، أجاب بأن يهود أصيلا يفتخرون به كمواطن وكأخ لهم في الملة. وسيتم الإلحاح عليه بالاستقرار بمصطاسة لتعليم أبناء الجالية الإسرائيلية. إلا أنه سيطن بأنه ملزم بالذهاب إلى أصيلا أولا، واستشارة الطائفة اليهودية بهاته المدينة. وسيطرح عليه سؤال أخير، يتعلق بمعرفة ما إذا كان ينتمي إلى قبيلة بنيامين أو يهودا. ولن يتردد الرحالة في الإجابة بأنه من قبيلة يهودا. فقد كان يعرف بأن هذه الأخيرة غير ممثلة بشكل كاف في المغرب، في حين أن أبناء بنيامين كثيرون في هذا البلد. ولم تتوقف المضيفة الورعة والمسرورة باستقبالها حاخاما في منزلها، وهو شرف كبير يرغب فيه كل اليهود المغاربة، عن تقبيل ثياب وأيادي الداعية الطيب. فقد أحاطته بعناية فائقة وأشبعته أكلا، مؤاخذة عليه عدم إقباله على الطعام وسائلة إياه إن كان طبخها قد أعجبه. وقالت له في الأخير: " ياسيدي، إن أنت بقيت معنا، فإن ابنتي ستكون خادمتك وزوجتك ". وسيجيب الدرويش باقتضاب: " سأبقى ". ولأن مشيشو كان مضطرا للخروج، فقد اختار دجاجة للعشاء. ورغم صفته كحاخام، فإن محمدا لم يرد قتلها بيده، معللا ذلك بأحد الأسباب. وفي الواقع، فقد كان يخشى أن يفتضح أمره بعمل أخرق تثير شكوك هؤلاء الناس السريعي التصديق. وعند غروب الشمس، عاد مشيشو إلى المنزل وطلب من الدرويش إقامة الصلاة. غير ان محمدا الذي كان يجهل العبرية سيتخلص من هذه الورطة، بحديثه الجريء عن عادة مزعومة لدى أبناء يهودا، قائلا: " إن أبناء يهودا لا يجب عليهم أن يترأسوا شعائر الصلاة

---

[25] – إن اليهود الناطقين بالعربية، يحولون السين شينا، وهو ما يبرز قوميتهم. وفي هاته الجملة يجب أن تنطق "سلام" بدل " إشلام "

عند الغرباء الذين يستقبلونهم ". ولأن مشيشو كان يجهل عادات قبيلة لا ينتمي إليها، فإنه صدق كلام الرحالة وترأس بنفسه الصلاة. حيث وقف أمام الحائط ووجهه إلى الشرق صوب القدس. ووقف كل أفراد الأسرة ومعهم محمد، خلفه صفا واحدا. وانطلقت الصلاة. ولم ينبس الدرويش بأية كلمة وظل يلاحظ الوضع، وكان صوت اليهودي المنتشي يرتفع ثم يليه صمت طويل. ويبدو وكأنه يعد شيئا على أصابعه. وهناك كلمتان تتكرران ، تمكن محمد من ظبتهما وهما: موسى وهارون. وبعد الانتهاء من الصلاة تعشى الجميع وناموا مختلطين فوق الزربية الوحيدة الموجودة بالمنزل. وكان الدرويش موجودا بين طفل ومضيفته الورعة التي لم تتوقف عن شكر الإله، على اليوم المبارك الذي عاشته. ولأن الرحالة غير مهذب بطبعه، فقد أدار لها ظهره هامسا: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "؛ وهي عبارة ينطق بها المسلمون عندما يحدق بهم خطر كبير. وبدون شك، فقد حقق له الإله دعوته، إذ أن السيدة مشيشو ستغط في سبات عميق بعد فترة قصيرة. وعند الصباح، وكان اليوم هو الجمعة، قال محمد لمضيفه، بعد تناول الشاي: " اتركوني أذهب إلى سنادة لزيارة قبر عمي " [26] وسأبحر بعد ذلك من باديس إلى أصيلا. وهناك سأطلب من الطائفة اليهودية السماح لي بالمجيئ هنا لتعليم الصغار. غير أنني خجول بإخباركم بأنني لا أملك قلما واحدا للإبحار بالمركب ". وسيمنحه مشيشو خمسين فرنكا، ثم سيغادران معا الدار، وكانت اليهودية تتبعهما وهي تبكي. وكل جمعة، كان علم أخضر يرفرف فوق صومعة المسجد الكبير. ولأن الرحالة أراد أن يعرف آراء يهود الريف حول المسلمين وديانتهم، فإنه سيشير بيده صوب العلم متسائلا: " ما شأن هذه الراية؟ " وسيجيبه اليهودي: " إنها تشير إلى أن يوم الجمعة هو يوم حداد بالنسبة للمسلمين ". وقد كان يكره التلفظ بكلمة " جمعة " . كما أن منظر العلم والمسجد كان يثير أعصابه؛ لذلك فقد أدار ظهره وهو يدمدم: " إن المسلمين يخالفون أوامر الله.. فقد كان عليهم أن يرتاحوا يوم السبت كما أمر بذلك الرب الخالد، غير أنهم اختاروا الجمعة كي لا يشتغلوا ..". واستمر هذا النقاش طويلا حول نفس الموضوع. وهو ما أظهر للدرويش كيف أن اليهودي المغربي يمقت كل ما ليس بإسرائيلي. وسينتقل رحالتنا فيما بعد إلى دبدبو وصفرو وسط الغيتوهات، دارسا عن قرب هذه الكائنات العجيبة التي تقاوم سوء النية العالمي، منذ قرون.

هكذا وبعد توديع مقتضب لمضيفه، سيصعد محمد واد بني گميل ثانية، وسيعود إلى وهران لقضاء ليلته، وهي قرية من خمسين منزلا، تقع جنوب مدينة مصطاسة على الغدير الذي يحمل نفس الإسم. [27]

---

[26] - انظر قبيلة بقيوة والتفاصيل حول المقبرة اليهودية الوحيدة في الريف.

[27] - « *Les bni isguen (Mzab)* » , p.40 , Article oran, in 8 , Oran, 1895

القرى الرئيسية ببني گميل

- مصطلسة (انظر أعلاه)؛
- وهران (الإظهار)، التسمية أمازيغية (انظر أعلاه)؛
- سيدي بوزيد، جنوب وهران على واد بني گميل، 100 منزل؛
- إشاوين، جنوب سيدي بوزيد على واد بني گميل، 100 منزل؛
- تامرطلست، جنوب إشاويين، 10 منزل.

القوى العسكرية: 3 آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة. المسالك خاصة بالبغال؛ وهناك سهل بالشمال وتلال صغيرة غابوية بالجنوب. التعليم الابتدائي غير منتشر بما فيه الكفاية. وهناك بالقبيلة حوالي خمسين قرية صغيرة لم أتمكن من التعرف عليها.

قبيلتا زرقث (التسمية عربية أمازيغية)
وتارجيست (المثلجة) (التسمية أمازيغية)

لبث الدرويش شهرا واحدا ببني گميل. وفي صبيحة أحد الأيام الخريفية الجميلة، غادر قرية إشاويين متوجها جنوبا نحو سوق السبت، وهو سوق كبير بأحد أقسام زرقث، يدعى منطقة علال. وانطلاقا من إشاويين ستصبح المنطقة رائعة؛ إذ أن العديد من القرى التي لا تفصل بينهما سوى مسافة قصيرة، تختفي وراء الخضرة. وفي كل مكان تجد الحدائق والبساتين التي تقي أشجارها من أشعة الشمس الحارقة. وتجري وديان من الماء البارد والصافي في كل مكان. كما أن الأرض المسقية بشكل وافر، تسمح ببروز مروج صغيرة مغطاة بالأزهار. وتستقر آلاف الطيور فوق أغصان الأشجار حيث تختلط أصواتها الحادة بصخب الشلالات الصغيرة المتواجدة بكثرة في هذه المنطقة الغنية. وتشكل أشجار الجوز والعنب والبلوط واللوز والسفرجل والمشمش والتفاح والإجاص والأرز والأس والرمان والدفلى والخروب والتوت الوحشي، القاسم المشترك للنباتات المشجرة في كل المنطقة المتواجدة بالجبال الشاهقة الجنوبية للريف. وتقع قبيلة زرقث داخل مرتفعات جبل الأرز الذي ترتفع أعلى قمته وسط القبيلة تقريبا في قسم زرقت بالذات. إن المنظر العام لهذه السلسلة الجبلية يتبدى كلما ابتعدنا من بني گميل، أي من البحر. وتمتد سلاسل

جبلية صغيرة على كل الجهات، مشكلة العديد من الوديان العميقة، المأهولة بالسكان والمزروعة بشكل جيد، كما هو الأمر في القبايل. وتجد بعض القرى المعلقة على القمم أو المتدلية على جنبات هذه السلاسل الجبلية. وأعلى قمة بجبل الأرز هي من العلو، بحيث تحتفظ بالثلج على مدار السنة، بما في ذلك خلال الصيف؛ ويقترب علوها من علو جبال جرجورا.

وعند الغروب، دخل الدرويش إلى قرية علال؛ وهي قرية كبيرة من حوالي 100 منزل، معلقة على جنبات أحد المرتفعات العديدة لجبل الأرز.

وتختفي هذه المنطقة تقريبا، تحت الأشجار. وكان سكان علال منهمكين في تجفيف التين والفلفل والطماطم، على شبكة معدنية مغطاة بأوراق الفستق واللزاز. وبعد أن استقر بالمسجد، حيث استقبل بحفاوة؛ لم يعلن محمد كالعادة عن موطنه الأصلي، بل اكتفى بالإجابة على الأسئلة المطروحة عليه بهذا الصدد قائلا: " من هنا واها " (من هنا، ذلك كل ما في الأمر) وهي صيغة سحرية، ميزتها أنها تشبع فضول كل المغاربة. ومرد هذا التحفظ هو الحقد القائم بين القبائل، بل وبين القرى. وهو مقبول في كل المغرب، إذ لا واحد من الأهالي يعلن عن إسمه الحقيقي أو إسم قبيلته. وحتى في الجزائر التي لا يمكن للمغاربة أن يخشوا فيها أحد، فإنهم يحيطون أنفسهم بهالة من الغموض، بفعل عادتهم القديمة. فبعد مرور أكثر من سنة على استقراره بوهران، كان الدرويش بالنسبة لإخوته في الملة بقرية الأهالي، مجهولا مثلما كان الحال في أول يوم من وصوله. فأمام السوسيين كان يقول بأنه من سوس؛ وأما الريفيين كان يقول بأنه ريفي؛ وسيفتخر أمام أهل فاس بكونه فاسي. كما سيعتبره زواوا القبايل الكبرى واحدا منهم، حيث سيدعونه " ولد البلاد ". فمعرفته العميقة بالشمال الغربي لإفريقيا سمحت له بالانتساب إلى مختلف الأصول. ومع ذلك، فقد افتضح أمره في إحدى المرات؛ فحينما دخل إلى مقهى مغربي يجتمع فيه العديد من مواطنيه المزعومين،عامله الزواوا كأخ، غير أن أفراد من سوس احتجوا على ذلك، معتبرين أنه من بلدهم " تمازيغت ". وسيثور الريفيون معتبرين بأنه ولد بالريف. وأمام هذه الورطة، سيعلن الدرويش بأنه من تونس، وبما أنه يسافر كثيرا، فإنه يعتبر نفسه إبنا لكل المناطق التي زارها. وسيكون هذا المبرر مقنعا للجميع. أضف إلى ذلك، أن ميزته كدرويش صاحب بركة، لا تسمح بمؤاخذته على هذا الأمر البسيط.

وغداة وصوله إلى قرية علال، التحق محمد بجماعة من الطلبة المتوجهين إلى سوق السبت المسمى أيضا سوق تارجيست، رغم أنه يوجد في أراضي زرقت. وهذا السوق هام جدا، فهو مكان التقاء وتبادل بين أهالي قبائل عديدة. وقد جرت العادة، قبل دخول السوق، أن يقوم الجميع بزيارة لقبر ولي المنطقة سيدي بوثمين. والضريح المقام عند مدخل السوق هو عبارة عن

بناية ضخمة مربعة ومتوجة بقبة كبيرة، تلمع بلاطتها المصنوعة من الخزف البراق والمتعدد الألوان، تحت أشعة الشمس. وفي كل يوم سبت، يكون فناء الضريح مملوءا عن آخره؛ حيث يلتقي أهالي زرقث وتارجيست وبني يطفت وبني ورياغل وبني مزدوي، مع جبالة بني عياش ومرنيسة وبني بشير. ويتميز الأهالي بلباسهم وخصوصا بأسلحتهم . فالريفيون يملكون بنادق ورصاصات من صنع إنجليزي و إسباني ، أما جبالة فهم مسلحون ببنادق مغربية مصنوعة بتاغزوت، القبيلة الريفية التي تحدثنا عنها من قبل. وتتزاحم الحشود داخل الضريح متهافتة على مرقد الولي الذي يستقبل أعدادا هائلة من هؤلاء الأشخاص الخشني الطباع. وتوضع كل البنادق على الأرض، حيث توجه فوهتها صوب الحائط ويتم تجميعها حسب كل قبيلة. وتعتبر جريمة القتل المرتكبة داخل هذا المقام الذي لا تنتهك حرمته، بمثابة عمل تدنيسي. وسيقوم الزوار، وخصوصا الحافظون للقرآن، بتلاوة السورة 67 التي تبتديء بـــ « **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير**». (يقصد مولييراس هنا ، سورة الملك).

وحول الضريح يقوم المحسنون والورعون بذبح الخراف والماعز والدجاج ويهيؤون صحونا ضخمة من الكسكس؛ ويقدم كل ذلك إلى حارس الضريح الذي يضطر بدوره إلى إطعام الزوار الذين يأتي بعضهم للتبرك ويأتي أغلبهم لملأ بطنه مجانا. ويجمع المقدم (حارس الضريح)، إضافة إلى ذلك، المال الذي يضعه الزوار بصندوق مثبت بجانب القبر. وقد تثير هذه العطاءات حسد الحاسدين، لو ظل المقدم يقوم بهذه المهمة المربحة ولم يتم تبديله كل سنة.

إن الهضبة الشاسعة التي يقام عليها السوق، يمكنها بالكاد أن تتسع للخيام ولدكاكين الباعة وللحيوانات العديدة ولحوالي 15 إلى 20 ألف رجل، يجتمعون عادة كل سبت. وأحيانا ما تحدث نزاعات ومعارك بالبنادق، بين أفراد مختلف القبائل المتناحرة والذين يجدون أنفسهم وجها لوجه. وجميع هؤلاء الزوار الأشداء، يأتون ويعودون على الأقدام أو على ظهر البغال. ونادرا ما نجد بضعة جياد وسط هذه الحشود. ولأن المغرب هو بلد الأثمنة الرخيصة، فإننا لن نندهش عندما نرى بسوق السبت مثلا، أن قنطار الشعير يساوي فرنكين وأن معزة تساوي فرنكين وخمسين سنتيما وأن ثورا سمينا ثمنه 25 فرنكا وثمن دجاجة كبيرة 20 سنتيما وأن 24 بيضة تباع ب 24 سنتيماإلخ...

ولا توجد أية امرأة بسوق السبت. ففي الريف، وباستثناء قلعية والقبائل الشرقية، يكون دخول الأسواق مخصوصا للرجال وممنوعا على النساء. وبالمقابل، فإن للنساء أسواقهن الخاصة بهن، وهي ممنوعة منعا كليا على الرجال.

وأثناء حضور الدرويش وبينما كان سوق السبت في أوج حركته، تنازع أفراد من بني ورياغل وبني مزدوي. وسيسرع الناس بإجلاء المكان، حيث بدأت البنادق الإنجليزية والإسبانية تفعل فعلها ، مما أدى إلى سقوط عشرة من المتنازعين. وعلى مسافة محترمة من ساحة المعركة، كان الناس يتبضعون دونما أي تأثر بالطلقات النارية وبالصرخات. وعند انتهاء المعركة، أخذت كل قبيلة مكانها الخاص بها. وسيقضي محمد ليلته تحت قبة الضريح، رفقة العديد من الأمازيغيين؛ حيث سيقدم لهم الحارس الذي يوجد مسكنه على مقربة من الضريح، طعاما وافرا يتضمن الكسكس واللحم والفواكه. وقد اتفق الجميع على أن يوم السوق كان هادئا أكثر مما هو معهود، إذ في العادة، كانت تنشب أربع إلى خمس معارك، يسقط على إثرها ما بين 50 و 60 من القتلى.

وتشمل زرقت على أربعة أقسام وهي: أغماض (التسمية عربية أمازيغية وتعني المكان المحاصر وسط الجبال)، زرقت، علال وبلحكم. وهذان الإسمان الأخيران عربيان؛ ويعني الأول من يسقي مرة ثانية؛ أما الثاني فهو اختصار لكلمة ابن الحكم.

وليست تارجيست بأكبر من الأقسام المذكورة. ورغم أنها قبيلة قائمة بذاتها، إلا أنها تعتبر قسما من أقسام زرقت التي تربطها بها روابط متينة. فهاتان القبيلتان المحاطتان بالقبائل الريفية الأخرى، تجندان 4 آلاف من المشاة.

ويتمتع الأهالي في كل مرتفعات جبل الأرز بمناخ معتدل حتى في الصيف وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية أكتوبر وتتوقف في شهر ماي وتكون مصحوبة بالثلوج والبرد grêle في أعلى القمم. والأوبئة نادرة في هذه المنطقة الجميلة؛ وكان من الممكن أن يصل السكان الأشداء إلى آخر مراحل الشيخوخة، لو لم تكن الخناجر والرصاصات توقف مسار حياتهم في وقت مبكر. ومع ذلك، يمكن أن نلتقي بعض المسنين الذين بلغوا الثمانين والذين نجوا من كمائن أعدائهم بمعجزة. وفي كل مكان، يتم استقبال الغرباء المسلمين بحفاوة. ولا ينتشر التعليم القرآني، أي الأولي، إلا بشكل ضئيل. وتشير الخرائط إلى وجود أماكن تعج بمناجم الذهب والفضة والرصاص والشبة والكبريت والتي لا يستغلها أحد. ويوجد منبع من المنابع الهامة لنهر ورغة إلى الجنوب تقريبا من زاوية سيدي عبد الكريم. كما تشير بعض الأساطير إلى أن أهالي زرقت وتارجيست من أصل فرنسي. فهل يرجع ذلك إلى كون هذه المنطقة اللطيفة، شبيهة بمناطقنا الألبية الجميلة؟

- علال، 100 منزل؛
- سيدي بوثمين، 100 منزل؛
- زاوية سيدي عبد الكريم، 50 منزلا.

وتوجد بالقبيلتين حوالي 100 من القرى الصغيرة. وكان قايد المنطقة في السنين الأخيرة، هو شريف يسمى عبد الكريم الوزاني. غير أن سلطته الدنيوية والروحية لم تكن ذات أهمية.

القوى العسكرية: 4 آلاف من المشاة: عدد السكان المحتمل 20 ألف نسمة. وتعتبر زرقت بلدة الجبال الشاهقة لكن القليلة الانحدار. أما تارجيست فهي بلدة الجبال المتوسطة العلو، والمتوفرة على مسالك عديدة.

قبيلة بني بوفراح

بعد عشرين يوما قضاها في اكتشاف زرقت وتارجيست، تابع الدرويش طريقه نحو الشمال. وسيرجع إلى بني گميل حيث سبق للأهالي أن تعرفوا عليه. وبمصطاسة احتفى به زملاؤه بالمسجد ونهوه عن الذهاب إلى بني بوفراح، قائلين بأنه من المحتمل أن يسلب من أمتعته وأن يقتل بجبل بوخشخاش الذي يفصل بين القبيلتين. وسيحكون له أشياء فظيعة حول ما يقوم به قاطعو الطريق المتحصنون داخل مغارات هذا الجبل الذي ينتصب كحائط بين بني بوفراح وبني گميل، ممتدا على خط مستقيم من الجنوب إلى الشمال حتى البحر، بحيث تنغمس بقايا مرتفعاته في البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن مرفأ سيدي الحاج سعيد. ومع ذلك ، فإن الدرويش سيغادر مصطاسة وسيتجه صوب الشرق، عبر مسلك للبغال مواز لشاطىء البحر وغير بعيد عنه. وكان يسمع صوت الأمواج التي ترتطم بالرمل، بالرغم من أنه كان يسير في الغابة ولا يستطيع رؤية البحر إلا من خلال الفجوات التي يمر منها. ويمكن القول بأن سادة بوخشخاش، وهم مجموعة من الأوغاد المنتمين إلى عدة قبائل ريفية، كانوا منشغلين في مكان آخر، لأن محمدا لم يلتق أي واحد منهم في طريقه. ومن أعلى قمة هذا الجبل الرهيب، سيتمكن من رؤية سهل مليء بالقرى ويتعلق الأمر ببلدة قوبيعة. وسيسرع الخطى تاركا وراءه جبل بوخشخاش المرعب الذي يسميه أمازيغيو المنطقة " الجبل الذي يتم اقتسام المؤونة في طريقه – adrar adeg bet'tour aâouin " مع قطاع الطرق طبعا.

وسيصل بعد ذلك إلى بلدة قوبيعة (القبرة الصغيرة) والمتواجدة على بعد مئات الأمتار من البحر ومن خليج لِلّيش الصغير (إسم لنبات الأذريون المنتمي إلى صنف النباتات المركبة). وعلى مسافة قريبة من الساحل، تقع جزيرة لليش، وهي عبارة عن صخرة مكسوة بالصبار. وأمامها على اليابسة، بني مسجد كبير، يستخدم كمكان للمراقبة من طرف مئات من الريفيين المدججين بالسلاح.

وتمتد قرية أوقّني (السهل) الكبيرة، داخل الأراضي، الموجودة جنوب قوبيعة، وهي مكسوة بغطاء أخضر، حيث أن صومعة المسجد تتجاوز بقليل الأشجار العالية.

وتتضمن قبيلة بني بوفراح ثلاثة أقسام وهي: قوبيعة بالشمال الغربي، أوقني بالشمال الشرقي والربع الفوقاني (بمعنى أن إسمه مجهول) بالجنوب. وكل المنطقة مكسوة بمروج رائعة وشاسعة تتخللها بساتين مزروعة بشكل جيد، توجد بها أشجار الفواكه المتنوعة. وهناك منابع مائية وافرة تسقي البلدة التي هي عبارة عن سهل ممتد الأطراف. وفي كل مكان يزرع الشعير والبطاطس والخرطال والفول والكيف. كما توجد الأبقار والماعز والبغال بكثرة.

وبالقرى، هناك تهافت على حفظ القرآن؛ وقد أصبحت اللغة العربية التي كانت مقتصرة على بعض المتحذلقين، منتشرة بشكل كبير، وهي تسير نحو الحلول محل الأمازيغية. وعلى عكس العادة المعممة لدى الريفيين والمتمثلة في حلق الوجه، فإن بني بوفراح يسدلون لحاهم في الغالب ويتجولون برؤوس عارية ومحلوقة، إلا من القطاية التي سبق أن تحدثنا عنها. ويلبس الرجال جلابة سوداء، وهم أناس شجعان وكرماء وميالون إلى التحصيل الدراسي بشكل كبير. وتمتد قبيلتهم على مدى عشرين كيلومترا تقريبا (نصف يوم مشيا) من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

القرى الرئيسية ببني بوفراح

- **قوبيعة**، 200 منزل؛
- **أوقني**، 200 منزل؛
- **سيدي علي أوشعيب**، 300 منزل.

وهناك أيضا حوالي أربعين قرية متفرقة هنا وهناك بدائرتي أوقني والربع الفوقاني وأربع إلى خمس قرى فقط بقوبيعة.

القوى العسكرية، 3 آلاف من المشاة، المنطقة سهلية تماما. عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة.

قبيلة بني يطفت

(المسكون بالخناق) ، (التسمية عربية وأمازيغية)

تمتد هذه القبيلة على مدى عشرين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، وعشرة كيلومترات من الشرق إلى الغرب. وهي محاطة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني بوفراح وشرقا ببقيوة وجنوبا بزرقت وتارجيست. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي: سناذة (المسند أو الملجأ) (التسمية عربية وأمازيغية)[28] وبني محمد وأوفاس؛ وهاذان القسمان الأخيران يشكلان سلسلة من التلال الصغيرة الممتدة من الشمال إلى الجنوب؛ أما اسناذة فهي عبارة عن سهل، وهي مدينة حقيقية تشمل ما بين 700 إلى 800 منزل وتسود فيها اللغة العربية، في حين تهيمن الأمازيغية في القسمين الآخرين. ويلوث واد باديس المليء بالدفلى والمحاط بالبرك ذات المياه الآسنة، المنطقة، ويكون سببا في انتشار الحمى. ومع ذلك، فإن الأرض تكون خصبة في الأماكن التي لا تتواجد فيها شجيرات التين الوحشي، إذ نجد حقول الفول والشعير وبعض المواشي كالخراف والأبقار وأيضا البغال.

وتقدم قبيلتا بقيوة وبني يطفت، يوميا وبالتناوب، عشرة حراس مكلفين بمراقبة حركات وتحركات الإسبانيين الجاثمين على صخرتهم المسماة Peñon de Velez . ويمنع على هؤلاء الأوروبيين وطأ اليابسة بأقدامهم. وبالمقابل، فإن الريفيين بإمكانهم الذهاب إلى Peñon المسمى عندهم جزيرة باديس، حيث يشترون كل ما يعرض هناك. وهم ملزمون بالإبحار صوبها دون سلاح، إذ يتركون بنادقهم بمقر الحراسة الريفي الموجود على أرضهم. ويبلغ حقد الامازيغيين للإسبان درجة يرفضون معها بيع الأطعمة والمياه لأعدائهم ولو كان وزنها ذهبا. وفي أحد الأيام قرر محمد زيارة باديس وأبحر رفقة أربعة أو خمسة طلاب من بني يطفت، بقارب يقوده أربعة جدافين. وقد أعفي كضيف، من اداء العشر سنتيمات اللازمة للعبور إلى الجزيرة. وغير بعيد عن الشاطئ، كانت تتراءى صخرة باديس الجرداء التي تلطمها الأمواج باستمرار.

وبعد نزولهم من المركب، سيتقدم المسلمون الخمسة إلى باب القلعة وسيخضعون لتفتيش دقيق. وبما أنهم لم يكونوا مسلحين، سيسمح لهم بدخول القلعة المحصنة التي توجد بها أزقة ضيقة

---

[28] – هذه الكلمة عربية في الأصل ولكنها تمزغت. ولربما كانت سناذة أيضا كلمة أمازيغية تعني مخض barrater
انظر كتابي:

Légendes et contes merveilleux de la grande Kabylie, p.230, et le vers Send ir'is etc… in 8, paris, 2° fascicule, 1894.

مليءة بالجنود الإسبان وبعض المنازل الخاصة وكباريهات ومتاجر وبعض الأشخاص ذوي السحنات المخيفة؛ وهذه هي الأمور التي أثارت رحالتنا أثناء زيارته لهذه الجزيرة؛ هذه الصخرة النائية التي لا توجد فيها حفنة من تراب ولا قطرة ماء. فالحامية تتلقى من إسبانيا المياه والأطعمة، وكان من اللازم جلب الرمال والأحجار لبناء الحصن والمنازل الخاصة. أما داخل القلعة، فليست العلاقة بين الإسبان والريفيين على ما يرام، ذلك أن الأمازيغيين يشتكون من فظاظة المتحكمين في الجزيرة والذين يتجنبون تعلم ولو كلمة بالعربية أو الأمازيغية. ولحسن الحظ ، فإن العديد من الريفيين يتكلمون الإسبانية بطلاقة، بل غالبا ما يذهبون إلى إسبانيا لشراء الأسلحة والأقمشة القطنية والصابون والسكر والشموع إلخ... وإذا ما صدقنا محمد بن الطيب، فإن كل البضائع المعروضة هناك تباع بثمن بخس جدا. والإسبان مصيبون في ذلك، لأنهم بهذه الطريقة سيتحكمون في جزء كبير من التجارة بالمنطقة. ولو كانوا أكثر لطفا وتأدبا في علاقتهم بالأهالي، لكانوا قد حققوا منذ زمن طويل سيطرتهم السياسية والتجارية على الساحل الريفي.

وقد أقام الأمازيغيون مركزا للجمارك وآخر للحراسة على اليابسة، في المكان الذي كانت توجد فيه المدينة الهامة المعروفة في التاريخ تحت إسم باديس. وتقول رواية محلية أن الإسبان عندما احتلوا الجزيرة شرعوا في تدمير هذه المدينة المشهورة بواسطة المدافع. آنذاك سيؤسس السكان في عمق اليابسة، القرية الكبيرة الحالية، المسماة سناذة وسيمنعون النصارى من السيطرة على المدينة المدمرة. وتحكي الأسطورة أيضا، بأن حصن جزيرة باديس شيد من طرف الإسبان في ليلة واحدة.

إن أهالي بني يطفت وبقيوة يمقتون هؤلاء المحتلين الأوروبيين. وكلما وجهوا أنظارهم إلى الجزيرة الملعونة، تلفظوا بأقذع الشتائم طالبين من الله أن يعينهم على رمي هؤلاء الكفار الدخلاء، الذين يودون التهام أحشائهم، في البحر. وهم لا يطيقون، كما يقولون، أن تظل السفن الأوروبية راسية، في ما يدعونه بتفخيم، مرسى باديس. وإذا ما طال المقام بالسفن في هذا المرسى، فإنها قد تتعرض لطلقات نارية من موقع الحراسة الأمازيغي.

وكانت باديس القديمة عبارة عن مدينة كبيرة. ويمكن أن نعاين آثارها المختفية وسط شجيرات الصبار التي تملأ السهل. وعلى انخفاض أرضي، أقام المسلمون ضريحا مخصوصا لسيدي بويعقوب، وهو ولي من أولياء القرون الوسطى؛ يحظى بالتقديس في الريف. وتبرز صومعة عالية داخل هذه الآثار، وسط شجيرات التين الوحشي. وقد مكنت خسوفة الأرض من إخفاء هذا البناء عن أنظار الإسبان الذين حاولوا مرارا هدمه بمدافعهم. ولأنهم كانوا مضطرين لإطلاق نيران مدافعهم عشوائيا فإنهم لم يتمكنوا أبدا من إيصال ولو قذيفة واحدة، داخل الضريح

المحمي من طرف ظل سيدي بويعقوب. والأمازيغيون مقتنعون بأن وليهم لن يسمح لأية قوة خارجية من الاستيلاء على هذه الأرض المقدسة.

وليست باديس هي المكان الوحيد ببني يطفت، الذي لم يبق منه سوى الأثار، فعلى امتداد هذه المنطقة توجد آثار أخرى تشتمل على نقوش بحروف غير معروفة لدى سكان البلد. وحسب ما هو معروف هنا، فإن آثار الماضي هاته، تسمى بنيان دقيوس Decius أو النمرود. وقد أكد لي بعضهم أن هذه الآثار مازالت قائمة وهي مزخرفة بنقوش وكتابات ضخمة. ورغم حقدهم غير المبرر على المرحلة الوثنية القديمة، إلا أن الريفيين لم يفكروا أو لم يريدوا لحسن الحظ، الانشغال بتدمير هذه البقايا الثمينة لحضارة انقرضت.

وتوجد باسناذة المقبرة اليهودية الوحيدة في الريف برمته. وهي بعيدة عن المدينة، على مساحة شاسعة مبلطة، إن صح التعبير، بالشواهد الحجرية Pierres Tumulaires التي تم جلبها بثمن باهض من تيطاون (تطوان). وهي مليئة بالكتابات العبرية وجاهزة كي توضع على القبور. ويحمل إسرائليو قلعية موتاهم إلى سناذة ، مسافة ثلاثة أيام مشيا . ويتم ربط التابوت على ظهر بغل ، ثم يتحرك الموكب الجنائزي مرفوقا بالمخازنية (الجنود النظاميين). ويسير أهل الميت من الذكور في الجنازة على الأقدام بملابس معبرة عن حالة حزنهم الشديد. لكن يمنع عليهم أن يقلقوا راحة المسلمين بعويلهم وأنينهم.

وبالشمال، على مرمى بندقية من سناذة، يوجد حصن متين، شيد من طرف السلطان مولاي سليمان (1795 – 1822). وما زال يتوفر على مدافع كان هذا الأمير قد أرسلها إلى الأماكن المعرضة للخطر داخل إمبراطوريته. وهذه القطع المدفعية التي تعود إلى القرن الثامن عشر، لم تعد صالحة منذ مدة. ومع ذلك، فلا زالت هياكلها تهدد مرسى باديس.

ووسط آثار هذه المدينة القديمة، وعلى رمال الشاطئ، وحتى تحت ركام أوراق الصبار المتعفنة، يمكن لأقدام الإنسان أن تصطدم بكتل الصلب المهجورة التي كانت في وقت ما، أفواها نارية مريعة. ويرقد بعضها الذي يمكن رؤيته تحت الماء، فوق صخور بحرية، كشاهد صامت على كوارث الماضي. وللتعويض عن لامبالاتهم، سيتهم الريفيون إسبانيي Peñon de velez بكونهم استأجروا أمازيغيي الساحل، هؤلاء الإخوة المزعومين، كي يثبتوا هذه النفايات الحديدية القديمة، التي لم تعد صالحة لشيء ، اللهم لعرضها في أحد المتاحف.

ولأن وجود الإسبان يشكل خطرا دائما، فإن تحالفا دفاعيا سيتم عقده بين بقيوة وبني يطفت وبني بوفراح. وبمقتضاه، فإن جماعة واحدة تدير القبائل الثلاث، وهي مكونة من عشرين فردا: عشرة من بقيوة وخمسة من بني يطفت وخمسة من بني بوفراح. وتوزع حقوق الجمارك

المحصلة بباديس على القبيلتين الأولى والثانية، أما أفراد بني بوفراح، فيكتفون بما يستخلصونه من مركزهم بقوبيعة.

إن بني يطفت مستقلون؛ ومنذ سنوات عديدة أعفاهم السلطان من إرسال الهدايا التقليدية وذلك حتى يظل حقدهم اتجاه الإسباني متأججا. ويقطن قاضي القبيلة بسنادة.

القرى الرئيسية ببني يطفت

- مدينة سنادة، 800 منزل؛
- باديس، 10 منازل؛
- الرايس، 10 منازل؛
- سيدي الحاج محمد، 10 منازل؛
- تازوت (شجيرة ذات أزهار صفراء)، التسمية أمازيغية، 10 منازل؛
- الحاج عمران، 10 منزل؛
- تاليوين (المنابع) ، التسمية أمازيغية، 10 منازل؛
- الحاج بوبكر انتاع أوفاس، 20 منزلا.

وتوجد بالقبيلة حوالي عشرين قرية أخرى.

القوى العسكرية 6 آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 30 الف نسمة. ولا توجد أية طريق، لكن هناك مسالك في كل مكان. التعليم القرآني منتشر في كل مكان، خصوصا بسنادة.

قبيلة بقيوة

(الجرينة) ، (التسمية أمازيغية)

تشمل قبيلة بقيوة كل المساحة الممتدة على شاطئ المتوسط من باديس إلى خليج iguer ayyache ouadda غرب شبه الجزيرة التي تنتهي عند رأس الموريسكي؛ ومن الساحل الشمالي إلى بني عميرث جنوبا. فهذه القبيلة تمتد على مسافة عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب وأربعين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب. وعلى امتداد هذه المسافة لا يوجد ماء جار، لأن العيون نادرة جدا.

ومع ذلك، فإن المنطقة تتضمن حقولا شاسعة من الشعير والفول، وأيضا العديد من القرى. وباستثناء بعض التموجات الأرضية من الشمال إلى الجنوب، فإن بقيوة تعتبر أرضا منبسطة حيث ينمو الصبار والحلفة. ويتعلق الأمر بسهل ممتد الأطراف بشكل كبير، تفصله في بعض الأماكن مجاري شلالات قديمة، أصبحت جافة، وتعبره قطعان عديدة من الأبقار والماعز. وقد شيد السكان لأنفسهم صهاريج عميقة داخل منازلهم وخزانات كبيرة محفورة في الصخر أو في الأرض التي لا تنفذ إليها الماء، من أجل توفير المياه لحيواناتهم.

وعلى الشاطئ، يمارس الأهالي صيد السمك بواسطة شباك وصنانير وخراطيش من مادة متفجرة، يصنعونها بأنفسهم؛ علما بأنهم حفدة قراصنة الماضي ومنهم من يقوم حاليا بالقرصنة عندما تكون الفرصة مواتية. وهم يتوفرون على زوارق كبيرة، لا يعرف مصدرها، تستخدم للصيد ولعبور البحر. ويطارد هؤلاء القراصنة القوارب والمراكب الشراعية الصغيرة التي تقترب كثيرا من الشاطئ، مستعملين الأشرعة أو الجذف.

وقد روى لي صاحب يخت بخاري صغير منذ بضع سنوات، كيف سولت له نفسه مناوشة زورقين ريفيين بين باديس ورأس الموريسكي. وفي لحظة معينة، ضعفت سرعة يخته؛ فاقترب منه الأمازيغيون الذين كانوا يجذفون بقوة، وكاد هذا السلوك المتهور أن يودي بحياة صاحبه، لأنه ما أن شعر القراصنة بأن المركب انطلق بسرعة أكبر، حتى اطلقوا عليه وابلا من الرصاص مر بمحاذاة هذا المسافر الجريء.

والرجل في بقيوة مشهود له بالبطولة التي لا تضاهي. فهو مهاب الجانب من طرف كل جيرانه. ويرتدي جلابة سوداء قصيرة جدا وسروالا من القطن الأبيض يصل إلى ركبته ونعلين مصنوعين من الحلفة. ويشد وسطه بحزام من الجلد مليء بالرصاصات والمسدسات والخناجر وهو يشبه أعتى المحاربين القبايليين ببندقيته التي لا يفارقها ورأسه العاري وضفيرة شعره المسترسلة وراء ظهره. ورغم أنه مسلم فاتر، يصلي قيلا ولا يغتسل إلا نادرا، فإنه بالمقابل، يطبق قواعد الضيافة بطريقة صريحة وودية. وهو لا يتوفر على مكر ودهاء العربي؛ إنه يمثل الأمازيغي الصارم الذي لا يعرف المزاح ويكره النفاق والكذب. وهو قاس أحيانا إلا أنه يظل دوما صريحا وواضحا وعنيفا.

ومما لا جدال فيه، فأن أنوز المطلة فوق تل يمتد البصر من خلاله إلى السهل المجاور والبحر، هي بمثابة مدينة. فعاصمة بقيوة هاته، بأزقتها الواسعة والقذرة وحزامها الكثيف المكون من أشجار الصبار المحيط بها من كل جانب، هي ملتقى تجار وطلبة كل القبيلة. فهناك تتم أهم المبادلات التجارية في كل الساحل، بعد مليلية طبعا. وداخل المنازل الموجودة بالمدينة وعددها

700 تقريبا، تعيش ساكنة تتجاوز3 آلاف نسمة. ففي هذه المتروبول البقيوية التي يفتخر بها الأهالي، يوجد كل شيء: متاجر ودكاكين مليئة بالبضائع ومقاهي تستهلك فيها كميات كبيرة من الشاي الانجليزي الذي يساوي سنتيما للفنجان ومطاعم تأخذ رائحة سمكها المقلي بخناق المارة. ويبدو وكأن هذه المدينة المشيدة من طرف الموريسكيين الأندلسيين، قد بنيت خصيصا بذلك المكان العالي لمراقبة ساحل الإمبراطورية، عبر مدخل الميناء المتوسطي الضيق.

ويوجد العديد من الطلبة بالمدينة. كما أن اللغة المتداولة هي تمازيغت الخالصة المنتشرة من بقيوة إلى بني سعيد بالساحل، مخترقة الجنوب حتى كزناية. إنه قلب الريف البعيد عن الخارج والذي لم يسبق له أن تأثر باللهجات المغربية الأخرى. وتمازيغت بالنسبة للعرب هي الريفية ويدعونها أيضا الشلحة. وهذه الكلمة الأخيرة تنطبق دون تمييز على كل اللهجات الأمازيغية. ويشار إلى الأمازيغ بالاسم العربي المشترك شلوح ومفرده شلحي. وقد تولدت عن هذه الكلمات أخطاء شنيعة تضمنتها مؤلفات الأوروبيين الخاصة بالمغرب. وستعاني الاثنوغرافيا والجغرافيا والكتابة الإملائية، مرة أخرى من جهل المؤلفين الذين كتبوا صفحات طويلة حول شعب يجهلون كلا من لغته وعاداته.

وقد سجلت بعض الاختلافات اللهجية dialectales بين القبائل التي تستعمل فيها تمازيغت الخالصة. ولا تتعلق هذه التباينات إلا ببعض الكلمات المتداولة بشكل كبير. وإليكم بعض الأمثلة:

الكلمات العربية	بقيوة	بني ورياغل	بني سعيد	بني ولشك	بني توزين
غدا	Thiouchcha	Aitcha	Taitcha	/	/
أطفال	Ih'ramen	Ih'ramouchen	inouyba	Ih'louloumen	/
بيض	ihimedjdjarin	Thimeddarin	Thimerrarin	Thimellalin	Thichemrarin
مسحوق	Aberkan	Aberchan	Abaroud	Abertchan	Aberkan
الآن	Roukha	Rekhthou	Rouk'a	Louk'a	lek'kou

فرغم مظهره كبلد جاف، فإن تراب بقيوة آهل بالسكان، بحيث تجند القبيلة تسعة آلاف من المشاة. كما يسمح وجود العديد من الطلبة بأذوز وبالقرى الكبيرة ، بازدهار الطب الشعبي. فالطالب يكتب على قصاصات من الورق، عبارات لا يعرفها غيره. وهذا " الحجاب " الذي يباع في الحالات العصيبة بثمن باهظ، يطوى داخل جيب جلدي ويتم وضعه على العضو المصاب.

ولا يكون تدخل هؤلاء المعالجين المثيرين للضحك، غريبا ولا بسيطا على الدوام. فقد رأينا الجريئين من بينهم، يقومون بعمليات جراحية مؤلمة. ولحسن حظهم، فإن المرضى يقبلون الحجاب طواعية ويرفضون العمليات الجراحية، وبصرامة في غالب الأحيان . وفي الحقيقة، فإن الطبيب غير موجود في الريف، ذلك أن المناخ صحي بشكل عام، ويعتبر الحرز (الحجاب) دواء الريفي المريض، وأحيانا ما يحقق الإيمان العميق بمفعوله، بعض المعجزات.

وقد سمحت مجاورة بني ورياغل الذين يعطون للموسيقى قيمة كبيرة، بجعل أهالي بقيوة شغوفين بالأنغام، أو بالأحرى بأصوات اللتين منتشرين بكثرة وهما : الناي القصبي والطبل.

وتحظى بقيوة باستقلال مطلق، فهي تعين وتقيل قيادها الذين يديرون شؤون القبيلة، تحت المراقبة التامة لأعضاء الجماعة. وهؤلاء الأعضاء يتميزون عن الأشخاص العاديين بجلابتهم السوداء وبشريط من شعر (وبر) الجمل، موضوع حول رؤوسهم. وقد قيل لي بأن بعض المؤلفات المكتوبة بالأمازيغية، والموجودة في بعض المكتبات، تشير إلى الأصل الروماني لأهالي بقيوة. وهذا لا يمنع القبيلة من التوفر على عدد كبير من الأولياء والصلحاء. ويمكن إحصاء 110 مزارا فيما يتعلق بأولياء القبيلة وحدهم. أما الحيطان الصغيرة المبنية بالحجر والتي تشير إلى مرقد أحد الصلحاء، فلا حصر لها.

القرى الرئيسية بقبيلة بقيوة

- **يمقرانن أو إمقرانن** (الكبار) (التسمية أمازيغية)، 20 منزلا؛
- **أنوز** (الضخم) (التسمية أمازيغية)، 700 منزل؛
- **تيقجذيت** (العمود) (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا؛
- **بوسكور** (من له الحجل) (التسمية عربية و أمازيغية)، 10 منزل؛
- **إقر عياش وادا** (الحقل السفلي لعياش)، 100 منزل؛
- **إقر عياش وفلا** (الحقل الفوقي لعياش)، 100 منزل؛
- **تافنسا** (فانوس) وهذه الكلمة مأخوذة عن اللفظة اليونانية φανος، التي تعني المصباح وهي مدينة من 500 منزل، تنافس أنوز في التجارة والدراسات القرآنية.
- **بوجحموم** (من له الشحارير) (التسمية عربية)، 50 منزلا؛
- **تاقلعيت** (القلعة الصغيرة) (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا؛
- **تيقنيت** (الطبقات) (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا؛
- **سيدي محمد أمقران** (الكبير)، 50 منزلا؛

- سيدي عمر، سوق الإثنين الكبير، 50 منزلا؛

- إزمورن (شجر الزيتون) (التسمية أمازيغية)، 500 منزل. وهذه المدينة الصغيرة محاطة بغابة من أشجار الزيتون. أما التجارة فمحدودة بها؛

- سيدي مالك، 50 منزلا. وفي كل يوم سبت، يقام بهذه القرية سوق مخصص للنساء فقط.

وهناك حوالي 20 قرية أخرى متفرقة بالقبيلة.

القوى العسكرية تسعة آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 45 الف نسمة. السهل ممتد في كل مكان. وتتألف بقيوة كما هو مثبت في الخرائط من ثلاثة أقسام وهي: أنوز شمالا وتيقجنيث وإزمورن جنوبا. ويعيش في هذه القبيلة العديد من المتمردين الإسبان الذين نجوا من المحاكم الإسبانية. وسنتحدث عنهم بتفصيل عندما نكون في ضيافة بني ورياغل.

قبيلة بني ورياغل [29]

بدخولنا إلى أراضي بني ورياغل، ننتقل من سهل عار وهو سهل بقيوة، إلى بلد أقل انبساطا، مغطى بنبات وافر. وقد كانت المفاجأة غير سارة بالنسبة للدرويش على حدود القبيلتين، حيث تم سلبه أمتعته من طرف ثلاثة أوغاد، اعتقدوا أنه من بقيوة وخاطبوه قائلين: " Agger ibek'kouyin khef sen ai netcheuch " (إننا نبحث فعلا عن أشخاص من بقيوة، اخلع ملابسك).

وبما أن الرحالة كان مترددا في نزع ملابسه، أضاف قطاع الطرق قائلين: Hak'k sidi bou khiyar, ama our theksedh erkesoueth rekhthou h'acha ma 'nenr'itch

(وحق سيدي بوخيار، إن لم تنزع ملابسك فورا، فإننا سنذبحك بكل تأكيد)

---

[29] – إن الأمازيغيين الذين استشرتهم حول أصل هذه القبيلة، لم يفيدوني في شيئ. فالبعض يزعم بأنه تقليص لكلمة ourier'li (لم يسقط)، وآخرون يفيدون بأنه جمع لكلمة er-r'oul (الغول). (كلمة عربية وأمازيغية). أما الريفيون الذين يحولون اللام غينا (ra) فإنهم ينطقونه ouriar'er. والجذر رغل موجود في العربية، لكنني لن أقف على هذا الأصل، مثلما لن أقف على الأصول السابقة.

وسيلبي محمد أوامرهم، بحيث لن يتركوا له سوى قميصه (التشامير). وعندما رآه بعض الأهالي بعد ذلك، في تلك الحالة، سألوه عن الذين فعلوا به تلك الفعلة؛ وبعد سماعهم لتفسيراته، غابوا مدة زمنية للبحث عن المجرمين، غير أنهم سيعودون بعد ذلك، معلنين بأنهم لم يجدوا أحدا. وسيتابع محمد طريقه، إلى أن وصل إلى قرية كبيرة من ألف منزل وهي أجدير.

إن أجدير الواقعة على جانب منحدر، تتوفر على خمسة مساجد،وكان أكبرها هو المسجد الذي لجأ إليه الدرويش طلبا للضيافة وللملابس. وتتلى في هذا المسجد خطبة الجمعة (وهي الصلاة الجماعية التي تقام على شرف العامل). وتقابل الواجهة الأساسية لهذا البناء، حجرة النكور، وهي جزيرة جدباء، محتلة من طرف الإسبان مثل Peñon de velez ، وذلك منذ أكثر من ثلاثة قرون. وقد لقبت حجرة النكور من طرف الإسبان بالحسيمة Alhucemas (الخزامى)، وهي كلمة مستعارة من العربية مع تحويل بسيط إذ أصبحت الخزامى هي الحسيمة.

وفي ساحة المسجد الكبير، تتراكم كرات المدافع والقذائف التي وجهت صوب أجدير من طرف المحتلين الحاليين للحسيمة. ولم يفكر الأهالي في الرد بقذائفهم العتيقة الموجودة هنا وهناك، بالأزقة أو خارج القرية. وتوجد بباب المسجد ثلاثة مدافع ذات فوهات متفاوتة الحجم. أما المساكن المختفية وسط شجيرات التين الوحشي، فهي متباعدة بعضها عن بعض. ويرجع هذا الوضع إلى الشعور العدائي القبلي الذي يكنه الفرد من بني ورياغل لجيرانه الذين يعتبرهم من أخطر أعدائه. لكن يمكن تفسير هذا الوقع أيضا بعشق الفضاء الشاسع وكره كل ما يضايق العادات المقترنة بالإستقلالية.

إن الأراضي التي تقيم فيها القبيلة شاسعة جدا، فهي تمتد على مسافة ستين كيلومترا تقريبا من الشمال إلى الجنوب وعشرين كيلو مترا من الشرق إلى الغرب. وتوجد تمسمان على يمينها وبقيوة على يسارها؛ وبالشمال يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي يغوص في عمق الأراضي ليشكل الهلال الرائع لمرسى المجاهدين Marsat Imjahden ، المسمى من طرف الإسبانيين: خليج الحسيمة. وبالجنوب، نجد القبائل الريفية التي يمكن قراءة أسمائها على الخرائط.

ذلك هو الإطار الذي يحدد بني ورياغل، الذين اشتهروا بفعل موقعهم الجغرافي، بكونهم يمثلون الدم الريفي الخالص واللغة الريفية الخالصة.

وتتوفر هذه القبيلة العظيمة على 11 قسما وهي: أجدير من جذرة، أي ما تبقى من جذور (تحلل)، التسمية عربية؛ أيت موسى وعمر (التسمية عربية وأمازيغية)، إمرابضن (المرابطون) (التسمية عربية وأمازيغية)، أيت حذيفة (التسمية عربية وأمازيغية)، أيت زيان

(التسمية عربية وأمازيغية)، أيت عبد الله (التسمية عربية وأمازيغية)، كمون (التسمية عربية)، أيت ونرار (أبناء الجبل) (التسمية أمازيغية)، مشكور (التسمية عربية)، تيزمورين (أشجار الزيتون) (التسمية أمازيغية). وينطلق هذا التعداد من الشمال إلى الجنوب، وكل قسم من هذه الأقسام يجند ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف بندقية، بمعنى أن مقاتلي بني ورياغل يشكلون في المجموع 40 ألف مقاتل تقريبا، مسلحين جميعهم ببنادق إنجليزية وإسبانية ذات طلقات متكررة.

إن بني ورياغل قبيلة كثيرة الحركة وهي جموحة وغير قابلة للترويض indomptée et indomptable وتعيش في فوضى تامة. ونادرا ما تهاجم القبائل المجاورة لها، غير انها تعيش حالة حرب داخلية واقتتال أخوي Fratricide بين قسم وآخر وقرية وأخرى ومنزل وآخر. ونادرا ما يغادر الرجال منازلهم بسبب الاعتداءات المتكررة، لذلك فهم يضطرون إلى التخلي عن المعاملات التجارية والفلاحية والرعي. ولحسن الحظ، فإن النساء هن اللواتي يعوضن الرجال، حيث يراقبن بدقة عالية، المرتزقة الأجانب الذين يأتون إلى القبيلة طلبا للشغل.

والورياغلي إنسان صلب لا يقبل المهادنة ويتحمل بصعوبة حضور المسلمين، عربا كانوا أم أمازيغ، إلى قبيلته من أجل التجارة أو الدراسة. وهو يكن كرها دفينا لليهودي الذي لن يخطر بباله أبدا المجيء يوما إلى هذه القبيلة المرعبة.

وقليل من الأفراد يصلون إلى سن الشيخوخة. فهؤلاء الإخوة الأعداء، يحصد بعضهم بعضا قبل أن يغزو الشيب خصلات شعرهم الطويلة. وقليلا ما نجد شابا لم يثخن جسده بالجراح. وسيشعر المقاتل بالعار، إذا لم يكن قد أردى خمسة أو ستة أشخاص ! فالورياغلي يواجه الموت برباطة جأش؛ ولا يعني الموت بالنسبة إليه شيئا. لذلك، فهو يعتبر حياة الغير لا أهمية لها، فهي مثل حياة ذبابة. وعندما يموت رب العائلة، موتة عنيفة أو طبيعية، فإن موته يكون مناسبة للاحتفال تقريبا؛ إذ يقيم أفراد عائلته مأدبة فاخرة، يدعى إليها كل الحاضرين للجنازة. ويحتفى على الخصوص، بالطلبة الذين يسيرون في الموكب الجنائزي وهم يرددون أبيات البردة، تلك القصيدة العربية في مدح الرسول.[30]

---

[30] – ومطلع القصيدة هو:

أمن تذكر جيران بذي سلم ﴿﴾ مزجت دمعا جرى من مقلة بدم.

وقد أنجز بلسي MR. Basset ترجمة جيدة لها (باريس، لورو، 1894)، وهي الترجمة التي قمنا بتحليلها بشكل عام. أنظر بهذا الخصوص:

Bulletin de géographie et d'archéologie de la province d'oran, fascicules LXII et LXIII, Juillet à Décembre, 1894.

وكمتزمتين غير متسامحين، فإن هؤلاء الرجال المرعبين لا يسمحون بوجود شخص ما بالصدفة أو بأي شكل آخر، قرب زوجاتهم، فحينما يصادف المرء إحداهن، وجب عليه أن يبتعد عنها دون النظر إليها، وإلا تلقى طلقات بنادق أهلها. ولهذه الغيرة ما يبررها، لأن المرأة الورياغلية جميلة جدا؛ وحتى الرجال أنفسهم وسيمون، فهم يحلقون وجههم عن آخره، ورأسهم أيضا، باستثناء الضفيرة الوطنية التي تسترسل تارة وراء ظهرهم وتارة على صدرهم. وتقام في كل أسبوع سبعة أسواق بالقبيلة: سوقان يوم الإثنين وواحد يوم الثلاثاء واثنان يوم الأربعاء وواحد يوم الخميس وآخر يوم السبت؛ وهذا السوق الأخير مخصص للنساء فقط.

ومع أشخاص غير متساهلين مثل بني ورياغل ، فإن كل تبادل وكل تجارة، لا يمكن أن يتما إلا إذا ما منحت للتجار الغرباء ثلاثة أيام من الهدنة في الأسبوع يكون وجودهم فيها غير معرض للخطر نسبيا. وحينما تنشب معركة بالسوق، وهو ما يحدث في الغالب، فإن البراحين يسارعون بالنداء: " على الغرباء مغادرة السوق". وسيفهم الجميع دلالة هذه الكلمات إذ يهرب الغرباء تاركين أهالي البلد يقتتلون فيما بينهم بضراوة لا مثيل لها.

وهذه العادة المفيدة للأجانب، توجد أيضا ببقيوة وبقبائل ريفية أخرى. ويتوفر كل قسم على قايد خاص به، منتخب من طرف الجماعة. ويتم الحصول على مصادقة السلطان شكليا على هذا الانتخاب، بحيث يتلقى بالمناسبة زيارة وهدايا الرئيس الجديد. بعدها، سيرجع هذا الأخير إلى قبيلته مرفوقا ببعض الجنود النظاميين (المخازنية) المكلفين بتحصيل الضرائب التي لم تؤد جزئيا أو كليا. وسيستغل القايد حضور هؤلاء الجنود ليمارس انتقامه ويقوم بشتى أنواع الابتزاز . وما أن يعود المخازنية من حيث أتوا، حتى يصبح القايد مجرد شخص عادي، يسهر فقط على سلامة شخصه. والملابس ببني ورياغل شبيهة بتلك الموجودة ببقيوة؛ إذ يرتدي الرجال والنساء ملابس صوفية، مصنوعة ومصبوغة داخل القبيلة.

ويستدعي تواجد الإسبانيين بصخرة النكور، تجنيد بني ورياغل في كل شهر، لمائة حارس مكلفين بمراقبة هذه الصخرة الملعونة. وتقدم الأقسام الإحدى عشر رجالها بالتناوب؛ حيث يقضي المقاتلون ثلاثين يوما على شاطئ البحر بخيامهم وأسلحتهم وكل أفراد عائلتهم. وهم يراقبون حركات وتحركات أفراد الحامية الإسبانية، ويكونون على أهبة لصد كل محاولة إنزال قد يقوم بها الإسبان بخليج المجاهدين. وقد سمي الريفيون خليج الحسيمة بهذا الإسم، لأن آلاف الأبطال المسلمين المجاهدين سقطوا تحت ضربات الكفار. ويعتبر هذا المرفأ المروي بدماء كل هؤلاء المجاهدين، كأرض مقدسة وكمحج للزوار الأتقياء. وأثناء كل تغيير للحراس، يقدم

- ملحوظة المترجم: يتعلق الأمر طبعا بقصيدة البردة الشهيرة، للإمام البصيري

الوافدون الجدد أضحيات مهيبة، على قبور المجاهدين المدفونين بالساحل. ومن بين هذه القبور المباركة نجد: سيدي الحاج سعيد، سيدي محمد أبركان وسيدي داوود، الذين ماتوا، منذ زمان، وهم يقاتلون من أجل الدفاع عن معتقداتهم. إنهم مجاهدون imjahden كما يقول الريفيون الذين اختزلوا هذا الإسم المستعار من العرب. وهناك قبب صغيرة تشير إلى المكان الذي نقل فيه هؤلاء المجاهدون إلى مثواهم الأخير.

ويتألف المركز الأمازيغي الواقع على شاطئ البحر قبالة الصخرة الإسبانية، غير بعيد عن أجدير، من بناية كبيرة هي عبارة عن ثكنة ببيوت عديدة ومن مسجد. وكل من الثكنة والمسجد محميان بكثبان من الرمل، تحجبهما عن أعين الأعداء المتواجدين بصخرة النكور. ويتوفر الريفيون على حوالي مائة من المدافع القديمة غير المستعملة. وهم يتهمون الإسبان طبعا بتثبيت هذه الآليات غير الصالحة بواسطة إخوة مزعومين، تم استئجارهم لهذا الغرض. ويستخدمون بنادقهم ذات الطلقات المتعددة بمهارة، حيث يطلقون الرصاص وراء كثبانهم الرملية، ذلك الحاجز الطبيعي الذي وضعه الإله الطيب عن قصد، كما يقولون ، لإبطال تأثير القذائف المنبعثة من مدافع الأعداء.

إن خليج المجاهدين المحمي من الرياح الشرقية والغربية ينتهي عند رأسين وهما: Cap quilates و Cap des maures. والسؤال المطروح هو: هل من الممكن مستقبلا استعمال هذه البوتقة الشاسعة التي تنفتح بشكل كبير على ريح الشمال، عندما تحل الحضارة المتسامحة محل التعصب؟

وتوجد صخرة النكور، هذا السجن البحري الرهيب، على مرمى بندقية من المركز الأمازيغي القائم باليابسة. ويمنع منعا كليا على الريفيين بيع أي شيء للإسبان الذين يظلون على الدوام محاصرين بصخرتهم. غير أن بإمكان الأمازيغيين غير المسلحين أن يذهبوا إلى الجزيرة الصغيرة للتبضع. ولا يستقبل الريفيون سوى الفارين من الجندية أو السجناء الإسبانيين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والذين يفضلون الحياة بالريف على البقاء بالصخرة المرعبة. ويفر أغلبهم، عابرين المسافة سباحة أو بواسطة قوارب يملكها الأهالي. وما أن تطأ أقدامهم اليابسة حتى يرفعوا أكفهم إلى السماء، معلنين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، بطريقة ركيكة، وسيكون هذا الأمر كافيا لإنقاذهم، إذ أن الريفيين لن يعملوا فقط على حمايتهم من كل اعتداء، بل سيمنحونهم بكل سرور، الملابس والمال. وسيخصص لهم منازل مريحة وحقل يفلحونه بكل حرية. وإذا ما أراد أحدهم الزواج، فإن الخبر ينتشر بالقبيلة، وعلى الفور يسرع الأشخاص الأكثر

ثراء باقتراح بناتهم كزوجات. وتفتخر الفتاة التي تم اختيارها للزواج من هذا الشخص الحديث العهد بالإسلام، والذي ستهتم بتكملة تعليمه الديني.

لقد قلت في مقدمة الكتاب بأن المسلم داعية * وعلي أن أضيف: وكذلك المسلمة. فكلما تحدثت مع ربات أسر مسلمات ومحترمات، إلا وبادرن بطرح مسألة الدين بهدف البرهنة على امتياز الإسلام مقارنة بالديانات الأخرى.

ففي حين يرفض اليهودي تماما دعوة الآخرين إلى اعتناق ديانته، ويتخذ المسيحي موقفا سلبيا أكثر فأكثر من هذا النوع من الدعاية، فإن المسلم ظل بمثابة الداعية المتحمس الذي يذكرنا بالقرون الهجرية الأولى. فهو مازال يعتقد وبقوة، على أن الرومي الذي اعتنق الإسلام سيدخل الجنة قبل أولئك الذين دافعوا عن الإسلام، بل وسيعامل أفضل منهم.

ونفهم الآن، لماذا يجد هؤلاء البؤساء الهاربون من الثغور الإسبانية بالساحل الريفي الاستقبال والحفاوة من طرف الأمازيغيين المهابي الجانب في كل ارجاء الإمبراطورية الشريفة. فالمرتد الإسباني الذي يتمتع في المغرب باحترام لا يحظى به البابا نفسه، يستغل بمهارة هذه الوضعية الاستثنائية، كي يمتلك مجانيا موارد لم يحلم بها حينما كان يجر قيوده كسجين أو حينما كان يقوم بدورية الحراسة وهو يجوب أرجاء القبيلة بزي الأهالي، بكامل الارتياح، حيث يستقبل بحفاوة أينما حل؛ ولا يعرف إلا من خلال لكنته الأجنبية. ونجد الكثير من المرتدين ببقيوة وأغلبهم فروا من Peñon de velez . كما نجد البعض منهم ببني يطفت وبني بوفراح، وهم أحرار في الذهاب أينما شاؤوا، لكنهم لا يبتعدون عادة عن شاطئ البحر، حيث يمكنهم رؤية سجنهم القديم. ويذكر أن بعضهم اغتنى بفاس وبمراكش، وأن البعض الآخر اندمج في القبائل الداخلية. وقد كانت لهم ذرية بالبلد، ويجهل حفدتهم بأنهم ينحدرون من رومي كان محكوما عليه بالأشغال الشاقة في سجن بالساحل الإفريقي. وتبدو جزيرة النكور صغيرة المساحة مثل جزيرة باديس؛ وهما متشابهتان، إذ يوجد بهما الجنود والدكاكين والسجناء. ومع ذلك، توجد أماكن مضيافة تسود فيها الخلاعة ويقبل عليها الأمازيغيون أنفسهم.

ويجلب الإسبان كل شيء من بلدهم، بما في ذلك الماء الضروري لسكان هذه الصخرة البئيسة. ويقتطع مركز ريفي للجمارك أقيم بالقرب من مركز الحراسة على اليابسة، إتاوة من البضائع الآتية من إسبانياعن طريق النكور.

---

* ملحوظة المترجم: يستعمل المؤلف لفظة كاهن Prêtre، وهي أقرب إلى التصور المسيحي منها إلى التصور الإسلامي. لذلك اقترحنا لفظة داعية لتعريب المعنى أكثر. أنظر ملاحظتنا السابقة بهذا الخصوص.

إن بني ورياغل يملكون أرضا خصبة مسقية بمنابع غزيرة المياه. وفي الأقسام الشمالية تسمح السهول الشاسعة والمتموجة قليلا، للأهالي بزراعة الشعير والفول والقمح. وتتوفر كل القرى على حزام كثيف من الحدائق والبساتين التي تنتج كل ما يمكن تصوره من فواكه وخضروات. وتوجد بهذه القبيلة التي يبلغ عدد سكانها 200 ألف نسمة تقريبا، أكثر من 200 قرية يتراوح عدد منازلها ما بين 10 و 100؛ ويخترقها من الجنوب إلى الشمال واد غيس (واد الطمي) الذي يصب بخليج المجاهدين تحت اسم واد النكور، بعد أن يفقد ثلاثة أرباع مياهه التي يستغلها الأهالي المتواجدون على ضفافه، لسقي حقولهم. وبفضل هذه المياه الخيرة تمتلئ ضفاف النهر من النبع إلى البحر، بأشجار التين والجوز واللوز والرمان والتفاح والمشمش إلخ... إن هذه القبيلة الأكثر غنى على مستوى المياه والأشجار، تتوفر بجانب النهر على بساتين شاسعة وغابات ومروج تسقيها المنابع المتواجدة بكثرة بالمنطقة. وبالجنوب، وتحديدا بأيت وَذْرَارْ، توجد قرية جبلية صغيرة مكسوة بأشجار الزيتون. ويتعلق الأمر بجبل سيدي بوخيار، الذي يشكل نتوءه العلوي هضبة واسعة شيدت عليها قرية من 100 منزل، وهي زاوية سيدي بوخيار التي تفتخر بحفاظها على رفات الولي القروسطي سيدي بوخيار، سيد قبيلة بني ورياغل برمتها.

وما يضفي على جبل بوخيار أهميته، هو على ما يبدو الكنز العظيم الذي يمثله منجم الذهب الواقع بسفحه الجنوبي. وقد كاد هذا المنجم أن يؤدي إلى أزمة ديبلوماسية بين فرنسا والمغرب. فمنذ بضع سنوات، سجل قاضي تارجيست، السيد الطناز وشريكه قايد أيت وذرار اللذان زعما أنهما وكيلان لقبيلة بني ورياغل، عقدا للبيع، يتم بمقتضاه تسليم المنجم إلى شركة فرنسية، سبق لها أن توصلت من هذين الشخصين بعينة من أجمل القطع الذهبية. ودفعت الشركة أموالا كثيرة معتقدة بأن العملية قانونية ومربحة. وبعد أيام ظهرت بمياه خليج المجاهدين، سفينة تحمل العلم الفرنسي وعلى متنها مهندسون وعمال وكل الآليات الضرورية لاستخراج المعدن. وتم إنزال قوارب مليئة بالعمال، باتجاه الشاطئ. غير أن بني ورياغل الذين لم يفهموا سبب هذا الغزو، من نوع جديد، لأنهم لم يكونوا على علم بالعملية، سيتصدون بصرامة لنزول الفرنسيين. وسيصل الخبر إلى قبيلتي تمسمان وبقيوة اللتين سترسلان على الفور مقاتليها. وفي أقل من 24 ساعة، كان هناك 60 ألف من الأمازيغيين المسلحين الذين غطوا بكتلتهم الداكنة، ساحل الخليج. وقد اتخذ مظهرهم شكلا عدائيا إلى الحد الذي اضطرت معه السفينة الفرنسية إلى الرجوع بسرعة من حيث أتت.

ولما شعرت الشركة الفرنسية بأنها خدعت، رفعت شكايتها إلى السلطان الذي سيتخلص من هذه الورطة ببراعة وبالمخاتلة المعروفة لدى العرب، مشيرا إلى أن الأمر يتعلق بعملية

نصب اقترفها عنصران من الأهالي لم يفوضا أبدا من طرف الحكومة المغربية التي تعتبر هي المالكة الوحيدة للثروات المعدنية بالمغرب كله. وسيعد في الأخير بمعاقبة النصابين بصرامة، وبذلك عادت الشركة بخفي حنين.

من جهتهم، فإن بني ورياغل سيغتاظون من جراء عملية النصب التي قام بها قايد أيت وزرار المسمى علي بن يحيى، وسيتوجهون جماعة إلى منزله، حيث سيقومون بإحراقه ونهب ما به من أمتعة. وسيطاردون هذا المحتال الذي لجأ عند بني توزين. غيرأن أهالي هذه القبيلة الملتزمة بقواعد الضيافة، سيرفضون تسليم الجاني إلى أفراد قبيلته الذين كانوا عاقدين العزم على تقطيعه إربا إربا وسفك دمه، لأنه كاد أن يسبب في دخول النصارى إلى بلدهم. أما المحتال الأخر، وهو قاضي تارجيست، فإنه لم يتعرض لأي سوء، نظرا لبعد قبيلته؛ وسيختني بسرعة فائقة. ولأنه لم يعرف كيف يستعمل النقود الذهبية الفرنسية التي اختلسها بجرأة، فإنه سيوظف سكرتيرا وسيعيش في رخاء، ممتعا نفسه بكل الخيرات الموجودة بالريف.

والنتيجة المثيرة في هذه القضية، هي اكتشاف السلطان لوجود منجم للذهب بقبيلة بني ورياغل ، وهو ما كان يجهله من قبل. وبذريعة منع النصارى من الاستيلاء على هذا الكنز، سيشيد حامية صغيرة من الجنود النظاميين، في النقطة التي يسهل فيها استخراج المعدن، مع منع أي واحد من الاقتراب منها .

هكذا، فإن أهالي المنطقة الذين كان بإمكانهم من قبل، المتاجرة على الشاطئ بهذا المعدن الثمين، لم يعد مسموحا لهم القيام بذلك. ونادرا ما تمكنوا أثناء الليل، من سرقة بعض الأحجار العديمة القيمة والتي يبيعونها بثمن بخس. وبالجنوب، غير بعيد عن جبل بوخيار، نرى جبل الرصاص وهو يتوفر على منجم كبير للرصاص لا يستغله أحد.

ومن الغريب أن نجد في قبيلة عنيفة مثل بني ورياغل، قسما لا يهتم إلا بالموسيقى. ويتعلق الأمر ببني عروس الذين يمقتون الحرب. فالفن المتمثل في الموسيقى الألية والغناء، يأخذ كل وقتهم. وكل مسافر يطأ أرضهم، يصاب بالصمم من جراء الضجيج الفظيع الناتج عن الناي القصبي والطبول التي تصاحب زعيق هؤلاء الفنانين المتقنين لعملهم والذين يقومون بتداريب مضنية قبل أن يحيوا الحفلات في القبائل المجاورة. وإذا ما كانت الموسيقى تلين الطباع فإن الرقص يفسدها، وهذا ما يلاحظ على الأقل عند أيت عروس الذين تعتبر نساؤهم راقصات بارعات ومتهتكات في نفس الوقت.

ويتكون طعام الورياغلي من العدس والحمص والفول والفواكه والسمك. أما العائلات الموسرة فتستهلك في المناسبات الاحتفالية، اللحم المشوي أو المسلوق. وتوجد الطرائد بكثرة في القبيلة، كما تعج الغابات بالخنازير وبنات آوى التي يطاردها الرعاة أحيانا بكلابهم.

القرى الرئيسية ببني ورياغل

- أجدير، 1000 منزل؛
- تافراست (الفأس الصغيرة / المحطبة الصغيرة) (التسمية أمازيغية)، على ضفة البحر الأبيض المتوسط، 500 منزل؛
- تازورانت (الحجر)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 300 منزل. ويقام كل يوم سبت بالشمال الغربي من القرية، سوق خاص بالنساء فقط.
- أيت موسى وعمر، 300 منزل، ويقام كل يوم أربعاء، سوق بشرق القرية؛
- تيقرت، (الحقل الصغير)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل؛
- تازاغين،(اليابسون)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛
- مولاي يعقوب، 50 منزل؛
- إقنيين، (مالكو الأرانب)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل؛
- زاوية سيدي يوسف، (التسمية عربية)، 500 منزل؛
- تيزمورين، (أشجار الزيتون)، (التسمية أمازيغية) 300 منزل. وسيحتفل الدرويش في هذه القرية بعيد الأضحى سنة 1890. ويقسم واد غيس القرية إلى قسمين وأحيانا ما يغمر مياهه بناياتها البسيطة.
- الخميس، 500 منزل، يقام بها سوق الخميس.
- كمون، (التسمية عربية)، توجد القرية فوق تل ويقام بها سوق كل يوم الأربعاء.
- زاوية سيدي بوخيار، 100 منزل؛
- مشكور، 300 منزل؛
- إهارونن، (أبناء هارون)، 150 منزل.

القوى العسكرية، 40 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 200 ألف نسمة.

السهل متموج من كل جانب. وتوجد بالقبيلة مسالك عديدة. التعليم القرآني منتشر بكثرة. وهناك أكثر من 200 قرية صغيرة لم أتمكن من معرفة إسمها. وتوجد العديد من المنازل بطابق واحد.

قبيلة تمسمان

(النار والماء) ، (التسمية أمازيغية) [31]

سينطلق الدرويش من أيت موسى وعمر، وهو القسم الشمالي لبني ورياغل؛ وسيتبع طريقا موازيا للبحر، قاصدا قبيلة تمسمان. هكذا، سيترك وراءه السهل الشاسع للنكور الذي يمتد إلى ما وراء الحدود الشرقية، حيث سيأخذ تسمية أخرى.

ولسوء حظ الرحالة، فإنه سيقع من جديد في ورطة أخرى. فبعد أن عبر واد الحديد، وهو نهر صغير يحد كلا من بني بو داوود وأيت موسى وعمر، تناهى إلى سمعه صوت طلقات نارية قوية. وكان رجل من بني ورياغل يجري بسرعة ويقفز فوق أتربة البستان الثقيلة التي لم يمر على سقيها وقت طويل. وعند رؤيته للدرويش، توقف معتقدا بأنه أمام فرد من قبيلته وفسر له كيف أن ما يناهز المائة من رجال ونساء أيت موسى وعمر، أرادوا الاستمتاع ببطيخ أخضر (دلاح) مسروق من أحد البساتين، خلال رجوعهم من زيارة قبر الولي سيدي شعيب ومفتاح، ببني داوود (تمسمان). ولأن حارس البستان ، وهو داودي، أراد منعهم، فقد تم جرحه بطلقة بندقية. وها هم الآن مطاردون من طرف أكثر من خمسين مالكا لبساتين بني داوود الذين قتلوا ثلاثة أفراد من بينهم. ولم يضف الرجل شيئا، إذ من المحتمل أنه كان ذاهبا للبحث عن مساعدة؛ وتابع جريه باتجاه حدود بني ورياغل، تاركا الدرويش منذهلا من جراء الطلقات النارية التي كانت تقترب منه تدريجيا. وبرز شخص آخر، من بني ورياغل مطارد ومرعوب؛ بحيث مر أمام محمد دون أن ينتبه إليه. عندئذ اختبأ الرحالة داخل دغل الأشواك التي كانت تدمي جسده. غير أن النظر الثاقب للورياغلي سيكتشف مخبأه؛ وكاد أن يقنصه كأرنب، لولا أن الدرويش صاح: " تمهل، إنني من بني عروس ". ولم ينبس الرجل بكلمة ، بل تابع جريه. وتنفس الدرويش الصعداء إثر ذلك، إلا أنه سيقع بين يدي ورياغلي آخر، سيسلبه أمتعته فوق أراضي تمسمان نفسها. وهذا الشخص الثالث من أيت موسى وعمر، وقد أوقف الدرويش زاعما بأنه إسباني متنكر في زي أمازيغي، وأمره بإعلان شهادة أن لا إله إلا الله. وتجرأ محمد في البداية، حيث خرج من مخبئه وقال للرجل: " أعلن الشهادة بنفسك ". وبالفعل، أعلنها هذا الأخير بأناة ثم صوب بندقيته

---

[31] – يلعب الأمازيغيون شبه العارفين بالكلمات، حينما يتعلق الأمر بهذه القبيلة. فهم يقولون: واين ما تمس أمان (أينما لمست – الأرض – تجد الماء). وللحصول على التلاعب الجناسي بالكلمات، يجب الربط بين الكلمة العربية تمس والكلمة الأمازيغية أمان (الماء).

تجاه الدرويش الذي أسرع يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله. عندها صاح الورياغلي: " لقد أردت التهكم علي يا ابن النصراني، من أين أتيت؟ " وأجابه محمد " من بني عروس ". ورد الورياغلي: " وهل أيت عروس رجال؟" فنحن متخاصمون معهم" . فقال الدرويش: " ياعزيزي، إنني ولدت ببني توزين، لكن والدي أرسلني لأتعلم عند أيث عروس ". وأجابه الرجل : " حسنا لن أقتلك. لكن اخلع ثيابك وهاتها". وحاول الدرويش مناقشة الأمر مع الأمازيغي، غير أن هذا الأخير صوب بندقيته باتجاهه والشرر يتطاير من عينيه، مما اضطر الدرويش إلى خلع ثيابه في رمشة عين. ولم يبق إلا القميص الذي يستر عورته، إلا أن تهديد عدوه سيجبره على خلعه. وبكل هدوء، سينزع الورياغلي ثيابه المهلهلة وسيلبس الثياب الجديدة والنظيفة نسبيا. بعد ذلك، وضع البندقية على كتفه، بعد توقف طلقات البنادق، وألقى نظرة على الحقول والبساتين المجاورة بارتياح واتجه صوب قبيلة بني ورياغل، دونما اهتمام بمحمد الذي ظل واقفا، عاريا مترددا في ارتداء أسمال الرجل المقرفة. وما كان يؤلمه أكثر، هو منظر الجلابتين من الصوف الجيد على ظهر ذلك اللص.

وكان لدخوله إلى قرية سيدي داوود، وقع مؤثر، حيث تجمهر السكان حول الدرويش البئيس الذي كانت أسماله تغطي عورته بالكاد. وكان منظره المرتعب، عاملا في تعاطف الحشد معه. لذلك، تهافت الجميع من أجل استضافته وملأ بطنه بالخبز والتين الوحشي.

ومن مدخل القرية إلى المسجد ، كانت المسيرة حماسية فعلا، وكان الأطفال يجرون أمام محمد، وكان الرجال والنساء يحيطون به ويرافقونه. ومن جهته بالغ الدرويش في إظهار جنونه المزعوم رافعا يده إلى السماء ومباركا السكان السذج الذين اعتقدوا بأنه مخبول(أحمق) وسيستقبل بحفاوة من طرف الطلبة الذين أثارهم الصخب الحاصل بباب المسجد. وعلى الفور، منحوه ثيابا جديدة وتبادلوا معه أطراف الحديث في انتظار وجبة العشاء. وقد أثار السلوك اللطيف للطلبة ولمعلميهم انتباه الدرويش الذي انبسط بتواجده مع هؤلاء الناس الطيبين. بعد ذلك، قدم عشاء فاخر سيزيد من انشراح الزائر الذي احتفظ بأجمل الذكريات، ليس فقط مع سكان سيدي داوود، لكن أيضا مع كل أهالي تمسمان الذين يختلف طبعهم اللطيف والمرح، مع الطبع المقيت لجيرانهم بالغرب.

ومن بعيد، تبدو سيدي داوود كمدينة صغيرة لكن ما أن يقترب المرء منها، حتى تظهر له قرية كبيرة من أربع إلى خمس مائة منزل، على بعد ربع ساعة من البحر. وتستخدم قرية الحديد الصغيرة نسبيا، كمرفأ.

وتحد قبيلة تمسمان شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني ورياغل وشرقا ببني سعيد وجنوبا بالقبائل الريفية المثبتة بالخرائط. وتبلغ مساحتها 40 كيلومتر، من كل الجهات. ومثل بني ورياغل، فهي توجد كلية داخل سهل كبير، تسقيه ثلاثة أنهار صغيرة والعديد من الينابيع المائية. وفي كل مكان، تجد بساتين كبيرة، تتوفر فيها جميع فواكه الشمال الإفريقي مثل: أشجار التين واللوز والرمان والتوت الوحشي والمشمش والإجاص والتفاح والخوخ والعنب إلخ... كما توجد في كل مكان، بساتين الخضروات حيث تزرع جميع الخضر التي لدينا في الجزائر. ولأن التين الوحشي والخضر متوفرة بكثرة فإنها لا تعرض أبدا للبيع في الأسواق، بل تهدى للمحتاجين.

وتستحق تمسمان هذا الإسم. فأينما حفرنا الأرض ينبع الماء. وفي جنوب القبيلة يكون الماء عذبا ، صافيا صالحا للشرب، أما في الشمال فهو عكر ومالح بعض الشيء saumâtre. لذلك يتم جمع مياه الأمطار في خزانات كبيرة. و تستخدم ثلاثة أنهار وهي: واد بني عثمان، واد سيدي إدريس، واد مرغني، لسقي البساتين والحقول. كما تسمح القنوات والجداول الموضوعة بعناية بوصول مياه الأنهار والينابيع إلى أماكن بعيدة.

لذلك، فإن المنطقة هي عبارة عن حقول خصبة مترامية الأطراف ، تنتج الشعير والعدس والفول والحمص والفاصوليا والذرة الصفراء والبطاطس التي تستورد بذورها من الجزائر أو من إسبانيا. وبفضل السهل الشاسع، تبرز بين الفينة والأخرى، أشجار وافرة الظلال، تكسر رتابة المنظر. وتذكرنا هذه الأرض الخصبة والمزروعة بعناية من طرف ساكنة مجدة ومسالمة، بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيئ ، ولا يترك أي شبر من الأرض دون زراعة. فلماذا نبحث بعيدا وتحت مناخ قاتل، عن أشياء لا تساوي ما يوجد تحت أيدينا وبجوارنا، في منطقة رائعة، يستنشق فيها إنسان الشمال، الهواء المنعش للمحيط وللبحر الأبيض المتوسط.

وتتوفر تمسمان على خمسة أقسام وهي: بني داوود، تراكَوت (الضباب) بني ثعبان، أيت مرغني (أبناء كرمة العنب)، أوشانن (بنات آوى). ويجند كل قسم 4 آلاف رجل من المشاة، أي ما مجموعه20 ألف رجل بالنسبة للقبيلة برمتها. وتجلب وداعة أهالي تمسمان والأمان السائد عندهم، العديد من الغرباء والطلبة الذين يأتون إلى أسواق ومدارس القبيلة. وهناك زوايا عديدة بالمنطقة، يدرس بها القرآن والأحاديث النبوية ويتلى "الورد" الذي يتم تلقينه بالعديد من الزوايا الموجودة بالمغرب. وأكثرها انتشارا في الريف، هي زاوية سيدي أحمد بن عيسى وزاوية سيدي أحمد بناصر والزاوية الدرقاوية. وتتلى ابتهالات أتباع سيدي أحمد بنعيسى ويتم ترديدها صباح مساء وحتى في أواخر الليل، كما يلي: " يا سيدنا يا رحيم، أنعم علينا بمغفرتك. ما الذي نبتغيه من عرض حالتنا أمامك وانت أعلم بها؟ إليك وحدك نوجه دعواتنا يا من يرانا. فكن مجيرا لنا

من كل ظن." وضمن ابتهالات الزوايا الأخرى التي أتوفر على نصها العربي، هناك ابتهالات رائعة أمدني بها بعض "الإخوة" الذين لم يجدوا أي حرج في كشف الأسرار المزعومة لزواياهم أمامي.

إن الزوايا الإسلامية التي تأسست بغرض نشر الإسلام، تسعى إلى اكتساب سلطة دينية عالمية، تهيمن بواسطتها على كل شيء ويكون فيها العلمانيون عبارة عن لا شيء. لكن علينا ألا نعتقد بأن همها الوحيد سياسي. فأغلب المنتسبين المتعصبين ضمن هاته الزوايا، هم ورعون بشكل كبير ولا يأبهون بما يحدث على أرض الواقع، لأن هدفهم هو تحقيق الانتشاء التام الذي يرغب فيه كل الاشراقيين في الديانات الأخرى، وذلك عن طريق الصلاة والصوم والزهد.

وتعتبر الزاوية المسلمة من أبغض الأشياء إلى الإدارة الفرنسية في مستعمراتنا الإفريقية الشاسعة. طبعا، فنحن لا زلنا متأثرين بذكريات العديد من الجمعيات السياسية السرية التي هزت أوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ساهمت مقاومة رجال الدين الكاثوليكيين إلى حد ما، في تشبيه الإخوان الجزائريين بالإخوان المسيحيين. وهذا التشبيه لم يكن مزعجا بالنسبة إليهم. فالجماعات الإسلامية التي كانت متناثرة هنا وهناك قبل سنة 1830، ستقبل دور الفزاعة الذي أسند إليها بغير علمها، من طرف أناس ليسوا على بنية بلغة وعادات الأهالي. والعديد من هذه الجمعيات، جعلت فرنسا تدفع ثمنا باهظا مقابل هذه التضحية المزعومة بالذات وهذا التأثير المزعوم أيضا. والحقيقة أن هذه الزوايا الإسلامية التي لا حصر لها والتي تعيش في صراع دائم فيما بينها، لا يمكنها تحقيق التفاهم مع بعضها البعض ولا أن تشكل كتلة منسجمة مهابة الجانب. وفضلا عن ذلك، فإن المسلم ليس في حاجة للانتساب إلى أية زاوية كي يمقت النصراني.

ولم يخطر ببال مؤسسي الزوايا الإسلامية خلق إطار سياسي. فقد كان هدفهم هو كبح الأهواء المفرطة وإرجاع الشعب الضال إلى الإيمان البدائي الخالص. وإلى يومنا هذا، حينما يريد شخص طموح إشعال فتيل الثورة ضد النصارى، فإنه يقوم بذلك، بمحض إرادته، دون مساعدة فعلية من زاويته التي تكتفي في غالب الأحيان بمباركة خطوته بالدعوات والصلوات .

وما قلته الآن بخصوص الزوايا الدينية بالجزائر، يمكن أن ينطبق على الريف وعلى المغرب برمته. وغالبا ما يتم الخلط، عندما يتعلق الأمر بالعالم الإسلامي، بين الزاوية الدينية المحضة والجمعية السياسية السرية. وهذه الأخيرة توجد عند جيراننا بالغرب. فتحت يافطة الدين، تسعى إلى تحقيق هدف سياسي؛ وسنتكلم عن ذلك في حينه.

إن وجود الإخوان، هؤلاء الأصوليون المسلمون، بشكل كبير بتمسمان، له ما يبرره. ففي هذه القبيلة هناك عدد كبير من " النعاج" الضالة التي لا يستطيع كل الرعاة المتواجدين هدايتها. فما زالت متع الحواس والأطعمة الجيدة والموسيقى والألعاب والليالي الطويلة التي يتم قضاؤها في تناول أكواب الشاي وسط الدخان الكثيف للكيف، تشكل التسليات المفضلة للتمسمانيين. ورغم أن هتك بعض النساء والغلمان يظل سريان إلا أنه لا يتجاوز الحدود المرسومة مع ذلك.

ويرتدي الأهالي اللباس الصوفي في الشتاء والحايك الخفيف في الصيف. أما جلابة الرجال فلونها أسود، ويشبهون في زيهم وسلاحهم بني ورياغل. غير أن البندقية ذات الطلقات المتكررة، لم تعوض بشكل نهائي البندقية التاغزوتية (المكحلة) . وككل الريفيين المتواجدين بالساحل، فإن التمسمانيين يسبحون جيدا؛ إذ نجد الذكور من 10 إلى 15 سنة يستحمون في البحر صيفا وشتاء. وقد يصبح بعضهم صيادا عند بلوغه سن الرشد، لأن السمك يباع كثيرا على الشاطئ وبالداخل.

وسننتهز فرصة مرورنا بأكثر قبائل الريف مرحا، للكشف عن حفل هو من أكثر الحفلات استمتاعا من طرف الريفيين ويدعى الكرنفال [32] ولا نجد شبيها له في الأجزاء الأخرى من المغرب، سواء لدى العرب أو لدى الأمازيغيين. وحدهم الريفيون يعرفون ويمارسون المسخرة mascarade ، إلا أنهم لا يتبجحون بذلك خارج منطقتهم، لأنهم يدركون مسبقا بأن المسلمين الأخرين سيستقبلون بنوع من القرف هذا اللعب التهريجي الغريب. فهل يمكن اعتبار هذه العادة استمرارا للألعاب التهريجية الرومانية saturnales ؟

كيفما كان الحال، فإن الكرنفال الريفي الحالي، يحافظ على تقليد قديم تمتد أصوله إلى غابر الأزمان. ويقام هذا الحفل الغريب ثلاث مرات في السنة: عند حلول السنة الهجرية الجديدة وفي العيد الكبير (عيد الأضحى) والعيد الصغير (عيد الفطر).

فما أن تشرق الشمس حتى تهرع الحشود إلى الشوارع منتظرة ظهور الأشخاص الخمسة الذين سيقومون بلعبة المسخرة الوحيدة بالبلدة (وهذا العدد لا يتغير).

وفجأة، سيعلن صراخ الأطفال عن مجيء شخص مقنع على هيئة قاض. وسيجلس هذا الأخير فوق ركام من زبل السماد هيء خصيصا له، منتظرا بهدوء، على مقعده المقزز، حضور المتقنعين، أي الأشخاص المقنعين، الآخرين الذين لن يتأخروا في المجيء. ويرتدي هذا القاضي

---

[32] - سأعالج هنا موضوعا محرجا من الناحية الأخلاقية. ولولا أنني التزمت نفسي بمبدأ قول كل شيء وبالكشف عن العادات الحسنة والسيئة لشعب ما زال مجهولا، لكنت قد تخليت عن وصف هذه العادات القديمة والفظة التي ظلت غير معروفة إلى يومنا هذا. هكذا، فإن الإثنوغرافيا تخضع أحيانا لضرورات قاسية.

الغريب بذلة من الخيش وتتكون عمامته من شبكة صيد صغيرة الحجم، كما يغطي رأسه بقبعة كبيرة خضراء أو حمراء مستعملة وملفوفة بورق قالب السكر تم التقاطه من المزبلة. وهو لا يضع قناعا غير أن الحناء الذي يلطخ وجهه غير معروف. ومكان أذنيه توجد صمامات من بلح البحر ويضع على وجهه لحية وشاربا من الصوف، كما يمسك بيد عصا من الدفلى وباليد الأخرى كومة من جلود الأرانب ستستخدم كسجلات تحفظ بها أحكامه بدقة. ذلك هو الرجل الذي سيقوم بإحدى أسمى الوظائف الإنسانية وهي: إصدار الأحكام على بني جنسه. وسينقل الحشد نظره من القاضي نحو الأقنعة الأربعة الوافدة على القرية من الخارج والمكونة من: " باشيخ (رب الأسرة) وزوجته والحمار واليهودي المرافق له.

وإليكم زي باشيخ: فهو يرتدي أسمالا ويضع حزاما من الحلفة حول خصره وينتعل خفين مثقوبين ويلف ساقية بجلود الماعز، ويضع فوق رأسه قربة يابسة وعلى أذنيه ورقتين صغيرتين من شجيرة التين الوحشي. أما الوجه فيختفي داخل يقطينة محفورة من الداخل ومثقوبة في أماكن العينين والفم، وعلى جانبي الفم هناك نابان لخنزير حقيقي يخترقان القناع ويرمزان إلى أسنان الوحش المقنع. وفوق اليقطينة وضع جلد القنفوذ بأشواكه، حيث يرمز إلى اللحية المنفرة. وبالحزام هناك خنجر ومسدس من الكليخ ferula communis وبندقية من نفس الخشب مثبتة بالكتفين بواسطة حبل صغير من الدوم. ومن الرأس يتدلى عرف حصان أو ذيل بقرة كرمز لضفيرة الشعر الوطنية. وحول العنق، هناك قفة من الدوم مليئة بالحصى ومسبحة تتألف حباتها من البرتقال أو الليمون. وفي الأخير، ولتتمة هذا الزي الرهيب، فإن قضيبا خشبيا سيرمز بالإضافة إلى حبتين من الباذنجان، إلى العضو التناسلي لهذا الشخص المضحك.

أما زوجة باشيخ، فيمثلها شخص متين البنية، يلف جسده بأكياس قديمة كملابس داخلية، وبكيس قديم وطويل مصنوع من جلد الماعز هو بمثابة فستان (ملحفة). ويضع على صدره كرتين من الفلين، وأحيانا بعض الخرق البالية المتهدلة، كرمز لثديين يابسين. أما خرص الأذنين فهما من حدوتي الفرس. وحول العنق علقت قلادة من قواقع الحلزون المشدودة بحبل الدوم. ويتشكل القناع من يقطينة مجوفة من الداخل ومثقوبة جهة العينين والفم للسماح للشخص بالنظر والتنفس. ومكان الأسنان وضعت حبات من الفول اليابس. وقد حجب الرأس برداء وسخ من الجلد، ووضعت أساور حديدية بالمعصم وقطع ملتوية من الحديد حول السيقان العارية حتى الركبة؛ أما بالرجلين فتضع زوجة باشيخ خفين مستعملين وممزقين (بلغة)؛ ولديها صندوق مليء بالقطران، ملفوف بقماش، سيستخدم لطلاء أنوف الشركاء في اللعبة.

وعادة ما يمثل ريفي ضخم الهيئة وذو قوة هرقلية، دور الحمار، لأنه سيحمل عند الاقتضاء، السيد وزوجته، فوق ظهره، وسيلبث جاثما على أربع متسليا بركل حارسه اليهودي البئيس الذي يسقط متمرغا فوق التراب، بل قد يتلقى ضربة مباشرة إلى الصدر. وعلى ظهره توجد بردعة مليئة بالثقوب يبرز منها التبن، وهي مثبتة بحزام. وقد غطى رأسه بجلد التيس الكبير الذي ينبثق منه عودان من الند يشكلان أذني الحمار. ويمسك بين أسنانه بلجام من الحلفة. وبمؤخرته وضع ذيل بقرة. أما بين الساقين فنجد آلة نفير سوداء تتسع فوهتها تدريجيا وحبتين من الباذنجان تتأرجحان وتصطدمان في عملية اهتزاز دائمة.

أما جسد اليهودي فهو ملطخ بزق العصافير، وعليه بعض الأسمال البشعة المنظر التي لا تستر عورته بالكامل. وتتشكل جلابته من بقايا حصيرة من الحلفة، وتعوض قفة من الدوم عمامته، كما تعوض خصلات الشعر الطويلة المتهدلة فوق صدغ الإسرائيليين بزغب الخنزير الطويل أو بعرف مأخوذ من ذيل حيوان منبوذ. وسيوضع على وجهه جلد تيس تم حكه بالرماد المخلوط بفضلات الإنسان والمسقي بحليب رائب وببضع قطرات من العسل لجلب الذباب، مع ترك فتحات بالنسبة للعينين والفم. وهو يرافق سيده ويحمل بين يديه خفين مقززين، وبمعيتهما عصا من الدفلى يستخدمها لإبعاد الكلاب التي يتم إطلاقها في أعقابه. وقد علق بعنقه صندوقا كبيرا مثبتا بزنار يعرض فيه أمام الحشد الساخرن أمتعته التي لا قيمة لها وخردته ومراياه المكسرة وصناديق أعواد الكبريت الفارغة وفضلات البقر بديلا عن المسك وأوراقه الوسخة وكل أشياء القديمة التي تحفل بها بضاعة اليهودي الرخيصة.

وما أن يظهر باشيخ وزوجته بباب القرية، حتى يهرع الحشد باتجاههما ويسقطهما أرضا. حينها سيتظاهر اليهودي بالنحيب أمام منظر سيديه المتمرغين في التراب. غير أن باشيخ سينهض وسيجري باتجاه الحمار رافعا عصاه . وطبعا فإن الضربة التي كان من المفروض أن توجه إلى الحيوان، ستسقط على رأس العبري الذي سيلوي عنقه من الألم وسيسقط أرضا. وستطلق الضحكات من الحشد الذي سينعت الإسرائيلي بأقذع الشتائم وسيشجع الحماروسيده. وستتابع المجموعة السير تحت وابل من الكلمات البذيئة، أي تحت كل ما يتضمنه القاموس الريفي من كلمات دنيئة ومنحطة، بحيث يطلق العنان لهذه الكلمات بشكل تصاعدي، في جو من الحماس الشعبي الهستيري. وهنا يحدث المشهد الأكثر بشاعة، أو لنقل عقدة المسرحية التي ينتظرها المتفرجون بنفاذ صبر. ذلك أن باشيخ سيشعر فجأة برغبة جنسية جامحة وسينقض على رفيقته. إثر ذلك، ستحدث معركة بينهما، وستسقط المسكينة تحت زوجها الذي سينبطح فوقها. آنذاك، ستصرخ وستقاوم وستندفع بعنف. أما باشيخ فإنه سينزع عنها الكيس الذي كان بمثابة فستان،

وسيصنع منه خيمة صغيرة محاولا استدراج الزوجة إلى داخلها. ولأن جموحه لا يقاوم، فإنه سيندفع نحو كل الجهات ماسكا العصا بيده، وسيصيح الحشد المتحمس: " ليس هناك.. بل فوق.. لا تحت.."

أنذاك سيتدافع المهرجان بقوة، تارة بالمؤخرتين وتارة بالوجهين وسيمطران الوجه المتسخ بزق العصافير، بالقبلات المدوية. وفي الأخير، سترفض المرأة النزول عند رغبة الزوج، مشترطة الحصول على مهرها كاملا وعلى الهدايا وجهاز العروس. وسيصرخ باشيخ متعبا: " لنحتكم إلى القاضي ". أثناء ذلك، سيبذل اليهودي كل ما في وسعه، رغم الضربات التي يتلقاها، لبيع سلعته الرخيصة، إلا أن سيده سيدعوه للمجيء، وهو ما سيقوم به، حيث سيجري باتجاهه، ممزق الثياب، نصف عار، تحت وابل من الروث. غير أن الحمار الذي كان يسلي الأطفال بقفزاته سيرفض الانقياد إلى اليهودي. وأخيرا، ستتابع المجموعة برمتها السير.

هكذا، سيتم المثول أمام القاضي الجالس فوق ركام زبل السماد وستصل إلى السماع تحيات بذيئة ومحادثات غريبة. وهذه المبارزة الكلامية ستقاطع بهتافات الجمهور الذي لم يعد لمرحه حدود. وسيفسر القاضي بكلام نصفه عربي ونصفه أمازيغي، بأن كل رجل عدالة يحترم نفسه، لا يمكنه أن يصدر حكما إلا إذا ما تلقى قطعا نقدية من فئة 100 فلس. وسيعتبر باشيخ بأن الاقتراح طبيعي جدا، لذلك سيفتح كيسه وسيأخذ كمشة من الحصى وسيلقي بها على رأس القاضي صائحا: " أيها القاضي، اجمع فلوسك .." ومن جهته، فإن القاضي سيقتنص بمهارة كل حصاة، حيث يسمع اصطدامها براحتيه الغليظتين والضخمتين المتعودتين على استخدام المحراث والفأس. إثر ذلك، سيعرض الزوجان في نفس الوقت، سبب خلافهما، عبر إشارات وتعابير بذيئة تجعل الحاضرين في غاية البهجة. وبعد أن يهدأ الصخب نسبيا، سيصدر القاضي الحكم التالي: " قبل أن ترجع إلى عش الزوجة، على المرأة الفلانية أولا أن تقضي ليلة تحت سقف سعادة القاضي وذلك طبقا لمذهب ابن حصحاص الشهير. " [33]

وسيصل غضب باشيخ إلى الذروة نتيجة هذا الحكم. هكذا، سيأخذ زوجته وسيركبان معا على ظهر الحمار، طالبا من اليهودي وخز مؤخرة الحيوان. غير أن هذا الأخير سيوجه إلى صدر اليهودي ركلة قوية سينقلب على إثرها وسيلقي براكبيه أرضا فوق الزبالة. أنذاك سيحدث اختلاط غريب وتشابك للسيقان والأذرع التي ترتفع إلى أعلى وتسقط بسرعة فوق الصدور والرؤوس والظهور. وهذا هو المشهد الذي يضاهي، بالنسبة للريفيين، أجمل عروضنا المسرحية.

[33] – وهو قاض من نسج الخيال، يذكر اسمه لتأكيد الأحكام الغريبة التي يصدرها طلبة الحقوق بالمغرب فيما بينهم، وحصحاص مستمدة من فعل حصحص أي ظهر في واضحة النهار، وتقال بخصوص الحقيقة أو الحق.

وفي لحظة معينة، سينهض الجميع وقد لطخوا بالقطران؛ لأن المرأة أفرغت السائل اللزج أثناء هذا الاختلاط الفظيع، خصوصا على زوجها وعلى القاضي. أما اليهودي الذي كان يتحين فرصة الانفلات، فإنه سيظل مشدودا إلى الحمار الذي يكيل له الركلات المؤلمة. وبين الفينة والأخرى، كان ينتقم من عدوه بضربات عصا يمكن أن تصرع ثورا. وسيستمر الاحتفال المدنس بهذا الشكل، طوال اليوم والأيام الموالية التي توافق الحفل الديني.

لكن ما هو أخطر ضمن هذه الحماقات، هو انتهاك المقدسات الذي سيقوم به هؤلاء الأشقياء الخمسة، حيث سيسخرون من شعائر الصلاة الاسلامية. فعند حلول الظلام، يقف باشيخ فوق ركام من الأزبال، مؤديا دور المؤذن حيث يتجه صوب الغرب مناديا : " يلعنكم الله، اذهبوا إلى النوم دون صلاة. وكل من يصلي لافلاح له ".

إضافة إلى مئات من الحماقات التي يستمتع بها العامة، وسيشرع القاضي باعتباره إماما، في إقامة صلاة الجماعة، لكن باشيخ سيسعى إلى نفس الأمر وسيتنازعان حول بردعة الحمار التي يريد كل واحد منهما إقامة الصلاة عليها، مما سيؤدي إلى تمزيقها إربا. عندئذ سيولي باشيخ وجهه جهة الغرب وسيقيم الصلاة صارخا: " لعن الله المتفرجين. اللهم لا تمنح البركة ولا الجنة لمن يذهب إلى المسجد ". في تلك الأثناء، سيتوجه القاضي صوب المرأة التي تتظاهر بالنوم وسيتيمم فوقها، إلا أنها ستثور على ذلك وسينشب عراك بينهما. إثر ذلك، سيدخل باشيخ والحمار واليهودي ولتبدأ معركة مضحكة من جديد. وفي الأخير ستقام الصلاة جماعة، ظهرا لظهر وبالتدافع، مع تحوير لكلام القرآن بأكثر الطرق سفالة.

إن ما أثار دهشتي أكثر، عندما سمعت بهذه الوقائع الغريبة، هي لامبالاة الناس الجديين (ويوجد العديد منهم وسط هؤلاء المتوحشين) الذين لم يغضبوا عند معاينتهم للسخرية من ممارسة مبجلة، ونقصد بذلك الصلاة المقدسة من طرف كل المسلمين. فقدسية الصلاة ترجع إلى كونها أحد الأركان الخمسة الأساسية للإسلام؛ وهي ممارسة مهيبة لأن كل مسلم سيشعر في إطارها بالسمو فوق هذا العالم الفاني، فهو لم يصبح ذلك الانسان المعرض للفناء طبعا، بل مجرد روح تغادر الأرض لفترة ولا تنشغل بما يحيط بها.

القرى الرئيسية بتمسمان

قسم بني بوداوود

- سيدي بوداوود، 500 منزل؛

- حديذ، 50 منزل؛

- سيدي شعيب ومفتاح، 300 منزل، ويوجد عند مصب واد بني شعبان. ويحظى بزيارات كبيرة، لأن بهذا المكان يوجد قبر الولي القروسطي سيدي شعيب ومفتاح، سيد القبيلة برمتها. وكل الأطفال والرجال تقريبا يسمون شعيبا Jethro .

- تازاغين، (اليابسات)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل وتوجد شرق سيدي شعيب على شاطئ البحر.

- أمرابض أحمد، 100 منزل؛

- تازروت، (الصخرة الصغيرة)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل. وكل يوم ثلاثاء، يقام سوق كبير بالجنوب الغربي.

قسم أيت مرغني

- سيدي ادريس، 300 منزل، عند مصب واد مرغين وتحت القبة يوجد ضريح الولي الشهير.

- بوعزون، (العزيز)، 300 منزل على واد مرغني الذي يسمى عند المصعد، واد بوعزون.

- أيث ثاير، (الأبناء العديدون)، (التسمية أمازيغية)، على واد سيدي إدريس، 300 منزل.

- سيدي مسعود، 100 منزل، على واد مرغين.

- ثيقصبت وادا، (القصبة السفلية)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل على واد مرغين. وينطقها التمسمانيون أيضا: ثيقصبت اونو وادا (القصبة التحتية).

- دشر نَلْحَدْ (قرية الأحد) (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل وهو سوق يقام الأحد ويقبل عليه الناس كثيرا.

- ثيقصبت نالنج، (القصبة العليا)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل غير بعيدة عن واد مرغين. وينطقها التمسامانيون: ثيقصبث إنانج (القصبة الفوقية).

- عين كثير، 100 منزل.

قسم تراكَوت

- الروضة، 50 منزلا؛
- ثادارت (المنزل) (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛
- يغر وفاضيص (حقل المطرقة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل. وبجنوب هذا القسم يقام سوق كل يوم اثنين.

قسم بني ثعبان

- أيث علي، 100 منزل، على واد ثعبان؛
- أغشاب أمغار، (أدغال الشيخ)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛
- يفاسيين، (أهل فاس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛
- ثاليوين، (المنابع)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا. وبالجنوب يقام سوق كل يوم خميس، قرب واد ثعبان؛
- إمزاورو، (الأول، القديم)، (التسمية أمازيغية)، 300 منز؛
- أيث ملكشن، (أبناء الفارسين)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل؛
- بويعقوب، 500 منزل.

قسم أوشانن

- عين كثير، 50 منزلا؛
- إمزاورو، (الأول ، القديم)، 100 منزل. وبجنوب هذه القرية يقام سوق هام كل يوم أربعاء.

وفضلا عن ذلك، تتوفر القبيلة على حوالي 40 قرية من 50 إلى 200 منزل، لم أتمكن من معرفة أسمائها.

القوى العسكرية: 20 ألفا من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 100 ألف نسمة. وتوجد السهول والمسالك في كل مكان. وليست هناك أية قرية محصنة. التعليم القرآني منتشر إلى حد ما. القبيلة مستقلة، وتعين قيادها بنفسها، كما ترسل من حين لآخر، بعض الهدايا إلى السلطان.

قبيلة بني توزين (الوزن)

وقبيلة تافرسيت (استصلاح الأرض)

إن ظروف الترحال، ستدفع بالدرويش إلى تحويل وجهته من البحر، باتجاه الجنوب، معتقدا أنه سيلتقي رجالا جددا وعادات غريبة. ورغم أنه ليس جيولوجيا، إلا أنه سيلاحظ على الفور، بأن تربة بني توزين تشبه تربة تمسامان؛ وسيلاحظ أيضا، دون أن يكون غارسا للأشجار، بأن هذه الأخيرة أجمل وأصلب من تلك الموجودة على الساحل. فتربة بني توزين سوداء وحباتها صلبة، وهي أرض جبلية قليلة التفتت تقاوم التعرية الناتجة عن الأمطار الشتوية التي تجري على منحدرات أرض متموجة بشكل عام.

وقد وصل محمد إلى يقر أماواس (الحقل الحالي)، وهي قرية محاطة بغابة كثيفة من أشجار البرتقال والماندرين والموز والتين والصبار والكرم المتسلق (الدالية) والجوز إلخ... وسيجد الرحالة حوالي خمسين طالبا أجنبيا مقيمين بالمسجد، أتوا مثله طلبا لإحسان الأهالي وقليل منهم من أجل الدراسة. وكان الاستقبال وديا. وعندما علم السكان بمجيء أجنبي آخر إلى المسجد أتوا بكمية أوفر من الطعام المكون من العدس والبازلاء (الجلبانة) والبلوط المشوي والفواكه. ولم يكن ينقص الضيوف أي شيء.

وتشتهر يــقر اماواس بكونها عبارة عن جامعة صغيرة يتم فيها تعلم مبادئ الحساب، وهو من العلوم المستحبة لدى المغاربة. ومساحة المسجد شاسعة كما أن صومعته العالية تتجاوز قمة أعلى الأشجار. وتشغل قبيلة بني توزين مساحة قدرها أربعين كيلومترا طولا وعرضا. وتتوفر على خمسة أقسام وهي: يــقر أماواس [34] ، بني حساين، تعمارت، سيدي يحيى وتافرسيت. وبالرغم من كون هذه الأخيرة قبيلة قائمة بذاتها، إلا أنها تابعة لبني توزين التي تقوم بحمايتها، لأن إمكانياتها المحدودة وصغر حجمها، تحتم عليها البحث عن دعم، وسط الجيران الأقوياء المحيطين بها.

ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام، بما في ذلك تافرسيت، تجنيد 3 آلاف من المشاة، أي 15 ألفا بالنسبة للمجموع.

[34] – أنظر أعلاه دلالة الكلمة. ولأن ماواس إسم رجل، فإن بإمكاننا ترجمة الكلمة أيضا ب " حقل ماواس ".

إننا نوجد هنا داخل بلد جبلي، مغطى بالغابات الشاسعة، حيث تكثر أشجار البلوط والفلين والصنصاف والدردار والتنوب. وتتوج هذه الأشجار الضخمة قمم الجبال. وعلى جنبات هذه الجبال وبالوديان، توجد أشجار الفواكه المتعددة والمتنوعة. ويحظى شجر الزيتون على الخصوص بعناية فائقة. فعن طريق تلقيمات منجزة بمهارة، يحصل الأهالي على حبات ضخمة من الزيتون. وبالنسبة لحيوانات الغابة، فإننا نجد القرد والخنزير وابن آوى والثعلب والضبع والفهد. ويرافق هذه الحيوانات، أثناء النهار، قطاع الطرق المتواجدون بكثرة في المنطقة. وهو ما يعني أن الأمان في هذه القبيلة أقل مما هو عليه في القبائل الأخرى التي عبرناها. وهناك قصص حول الغيلان تحكى في الأمسيات وترعب الأطفال والنساء، بل وحتى الرجال أنفسهم. ورغم الشجاعة الفائقة لهؤلاء الرجال، فإنهم يؤمنون بهذه الخزعبلات بحيث يخشون الجن ألف مرة أكثر من لصوص الليل.

ومن بين الأسواق الأربعة ببني توزين، فإن سوق ميضار الذي يقام كل يوم خميس يعرف إقبالا كبيرا حيث تباع فيه الأبقار والماعز والحمير والبغال بالمئات. كما تتم المتاجرة بالشعير وزيت الزيتون والزبيب والتين والشاي والسكر الإنجليزيين والحايك والجلابة. فكل منتوجات المنطقة تتواجد بالسوق. ويجلب الشاي والسكر والشموع والأثاث المنزلي من فاس؛ إذ إن قبائل الريف الجنوبي تتبضع من هذه العاصمة، في حين أن أهالي الساحل يشترون كل شيء تقريبا من الإسبان.

وقد أخذت البنادق الأوربية تلج الجنوب تدريجيا، على مرأى ومسمع من انجلترا وإسبانيا. ذلك أن مهربي هذين البلدين يستأجرون سفنا صغيرة، هي في الغالب مراكب شراعية. وعندما يمتلئ المركب عن آخره بالبنادق، ينطلق دون مشاكل من أحد الموانئ المتوسطية لشبه الجزيرة الإيبيرية، أو من مصب التاميز Tamise متجها نحو المغرب. ويكون أهالي الشاطئ، سواء كانوا متواطئين مع الأوروبيين أو شركاء لهم، في انتظار مجيء المركب عند نقطة معزولة بالساحل، حيث يتم إفراغ حمولته الثقيلة ليلا. وتوضع البنادق والخرطوشات الملفوفة بعناية داخل صناديق متينة وتحمل إلى قارب يقوده القبطان بنفسه. وسيعلن صفير من نوع خاص عن اقتراب هذا القارب. عندئذ سيصيح صوت بالإسبانية من الشاطئ: " هل أنت القبطان الفلاني؟. وسيدور حوار بين قائد المركب والمسلمين الذين ستظهر خيالاتهم المخيفة بالتدريج. وسيقفز واحد منهم، عادة ما يكون هو القايد، داخل القارب الذي سيبتعد على الفور ببضعة أمتار عن الشاطئ. آنذاك تفتح الصناديق ويتم فحص وعد البنادق والخرطوشات، وإثر ذلك يؤدي المسلم ثمن البضاعة بالنقود الرنانة deniers trébuchants ، ثم يرجع القارب إلى الشاطئ لإنزال حمولته. وتحمل

الصناديق مباشرة من طرف الأهالي الذين سيختفون في ظلمة الليل، متجهين إلى منزل المهرب الرئيسي. ويرجع القارب إلى السفينة لينقل ما تبقى من البضاعة، حتى تنتهي العملية. عندئذ تمخر السفينة الشراعية " النزيهة" عباب البحر، راجعة إلى الميناء الذي انطلقت منه، حيث ستجد فيه بضاعة أخرى، يتعين حملها وتسويقها. وفي تلك الأثناء، يكون الشركاء منشغلين داخل منزل المغربي، بعدّ البنادق وفحصها بعناية فائقة. ذلك أنهم مطالبون بإرسال المئات منها في الغد، إلى هذه القبيلة أو تلك، وإلى السوق الذي يعرف إقبالا كبيرا للأهالي. وقد تباع البنادق في عين المكان، عندما يكون البلد في حالة فوضى؛ وبمنزل الممول الرئيسي للعملية، توزع على كل شريك بعد البيع، حصته من النقود.

وقد أكد لي المهرب الريفي العجوز الذي قدم لي هذه التفاصيل، بأن الأرباح المجنية من هذه العملية تكون هائلة. فالبندقية التي تشترى في أوروبا بعشرين إلى ثلاثين فرنكا، تباع لمغاربة الشاطئ بثمانين إلى مائة فرنك؛ وإلى قبائل الداخل ما بين 120 و 150 فرنكا.

ويمكن للبلد الذي يريد التعامل مباشرة مع السكان المغاربة المستقلين، دونما اهتمام بالاحتجاجات الصورية للشريف (السلطات) أن تروج بالمغرب، ما بين 500 و 600 ألف بندقية على الأقل وملايين الخرطوشات. وبكل قبائل الريف، بالشمال كما بالجنوب، فإن النقود الفضية تعتبر هي النقود المفضلة، وتأتي النقود الفرنسية في المرتبة الثانية، وبعدها النقود المسكوكة من طرف صاحب الجلالة الشريف. أما النقود الإنجليزية والإيطالية والألمانية إلخ... فهي غير معروفة.

ويتكلم إنسان بني توزين تامازيغت خالصة ولا يعرف كلمة واحدة بالعربية. وهو دائم الحركة بجسده المكتل Trapu. وقد تغنى شاعر محلي بجمال نساء القبيلة، حيث أصبح البيت التالي شائعا وهو:

بنات ملاح في ثلث قبيلات ❖ بني توزين تمسمان وقلعيات

وتخرج النساء سافرات الوجوه، وهن يتمتعن بجرأة نادرة حيث يرافقن الرجال أثناء المعارك ويقمن بأشق الأعمال، إذ يحصدن ويشتغلن بالبساتين ويحطبن ويجلبن المياه من الينابيع. وهن يرتدين الحايك المصنوع من الصوف الأسود ويغطين أكعابهن بغطاء جلدي خاص بالسيقان يقوم مقام الجوارب وينتعلن أحذية من الحلفة. وهن عفيفات جدا وولودات جدا، كما أن حياتهن تتسم بالجدية، حيث يكرسن وقتهن لتربية أبنائهن ويرضعنهم إلى حدود السنة الخامسة أو السادسة.

وفي أغلب الأحيان، تقام حفلات الزواج في الخريف، عندما تكون المخازن والمطامير مليئة بالحبوب والفواكه. وتظل العروسة بكرا مدة سبعة أيام في بيت زوجها، وفي اليوم الثامن تتم الدخلة. ويتمثل عمل الرجال في صنع البارود والرصاص الذي يباع بالأسواق.

وتحظى الدراسات القرآنية بأهمية كبرى في الزوايا الثلاث الموجودة بالقبيلة. وتتميز زاوية سيدي بوجدين[35] عن الزاويتين الأخرتين ببنائها الضخم وقبتها الكبيرة. وتحت هذه الأخيرة يرقد جثمان سيدي بوجدين محاطا بقبور سبعة من أحفاده.

ويأتي الزوار من كل مناطق المغرب للتبرك بقبر هذا الولي المقدس.

ومن بعيد، يبرز هذا الضريح فوق قمة الجبل مثل كتلة ثلج، وتظهر حيطانه العريضة التي تطلى بالجير كل سنة.

وما يجلب زوار هذه الزاوية الشهيرة على الخصوص، هي الحمة التي ساهمت مياهها الساخنة جدا، في شفاء آلاف المرضى. وهي تنبع وسط القرية وتجري مياهها بين المنازل، مشكلة هنا وهناك، بركا عميقة بعض الشيء، تمتلئ بعدد كبير من المعطوبين الذين يتم إطعامهم وإيواءهم مجانا من طرف الزاوية إلى أن يشفوا.

فالريف غني بالمياه المعدنية، خصوصا في الجبال الشاهقة بالجنوب. وتشكل هذه المياه، العامل الاستشفائي الوحيد الذي يدفع الأهالي إلى المجيء. ويتحمل الأشخاص حرارة المياه الحارة التي يمكنها أن تسلق في ربع ساعة، الأجساد الناعمة لنسائنا الأوروبيات. وتربط الأساطير الريفية وجود هذه الحامات، بكرامة حصلت منذ زمن بعيد. ذلك أن وليا عظيما في العصور الوسطى، وهو مولاي يعقوب، الذي كان يحب التجول بمناطق الريف على الخصوص، طلب الضيافة في إحدى الليالي. ولكي يكافئ الأهالي الكرماء على حسن ضيافتهم، فجر بأرضهم نبعا ساخنا وعظيما يمكنهم استخدامه للاستشفاء وللنظافة عند الحاجة. وكانت تلك هي طريقته في رد الجميل. وبذلك، فإن الحامات التي لم تكن معروفة قبل تلك الفترة، ستأخذ إسم حمام مولاي يعقوب [36] ، وهي العبارة التي ستعني كل حامات العالم.

أما الزاوية الثانية المسماة زاوية سيدي يحيى ببني حسن، فتضم جثمان الولي السعيد سيدي أحمد بناصر. وتوجد الزاوية الثالثة بميضار، حيث يرقد جثمان سيدي محمد بوزيان. وهي تعرف إقبال العديد من الزوار، لكن بدرجة أقل مما هو عليه الحال بزاوية سيدي بوجدين.

---

[35] – أكد لي بعضهم بأن جد هذا الولي من أبيه أو أمه، مدفون في موضعين مختلفين، في تازة وفي بني توزين. وهذه الكرامة المتمثلة في الحضور بأماكن متعددة في نفس الوقت، منتشرة بكثرة لدى صلحاء الإسلام.

[36] – هذه التسمية مستخدمة من طرف العرب والأمازيغ بالمغرب وبإقليم وهران.

وأساس التغذية بالقبيلة هو الخبز الذي يصنع بدقيق البلوط الحلو والمر. ويبدو أن البلوط المر يفقد مرارته على النحو التالي: يتم وضعه بمخزن ويسقى باستمرار على مدى شهر كامل. وبعد هذه العملية، يجفف ويصبح حلوا، ثم يطحن ويصنع منه الخبز بعد ذلك.

وقد كان بإمكان الأقسام الخمسة لبني توزين أن تمارس تجارة الفلين، لأن غاباتها مليئة بهذا الخشب الثمين. لكنها لا تجد أي منفذ لها على الساحل كي تبيعه للأوروبيين. أما مغاربة الداخل، فلا يمكنهم شراءه، لأنهم لا يعرفون كيفية استغلاله، لذلك فهم لن يقدموا فلسا واحدا كمقابل لكل فلين العالم. فكم من الثورات تضيع في هذا البلد الرائع. ومع ذلك، فإننا نرى في بعض القبائل الجبلية بالريف منازل غطي سقفها بالفلين المقطوع على شكل قراميد قبيحة المنظر. ويبدو أن هذه السقيفة متينة إلى حد ما، مادامت تتحمل أحيانا الوزن الثقيل للثلوج، في هذه الجبال الريفية الشاهقة ذات الشتاء القارس.

وإذا ما كانت الثروات الغابوية قد ظلت غير مستغلة، فإن الطرائد بالمقابل، خضعت لاستغلال ممنهج. ففي الشتاء، عندما يكون الرجال بدون عمل ويمتد رداء ثلجي سميك فوق المنطقة الساكنة، يذهب هؤلاء الرجال إلى الغابة مرفوقين ببعض الأطفال ومتبوعين بالكلاب التي تحرس القرية. ويتم تطويق فضاء شاسع ثم يقوم الأطفال والكلاب بضجيج صاخب. آنذاك تطير أسراب الحجل وتهرب الأرانب والأرانب الوحشية Lièvres في كل الاتجاهات، حيث تسقط فريسة القناصين. وتبدأ حينها مجزرة فظيعة. فالريفي الذي يجيد التسديد يسقط طريدة عند كل طلقة. ويتم القضاء على كل الحيوانات، بما في ذلك الخنازير والقنافذ والقطط الوحشية والثعالب والجرذان وبنات عرس التي تواجدت لسوء حظها، داخل الدائرة القاتلة. وبالقرية يتم توزيع الطرائد بين أسر القناصين، دون أن ينسى الأهالي إرسال الجزء الأكبر إلى الطلبة المرحين المقيمين بالمسجد.

أما الخنازير وبنات آوى والنسور التي يعتبر لحمها محرما، فتترك هناك للكلاب التي سترجع ذلك اليوم إلى القرية، ببطون منتفخة إلى حد الانفجار وبسيقان منفرجة، وهي تخطو ببطء شديد.

القرى الرئيسية ببني توزين وتفرسيت

- يـــقر أماواس ، 500 منزل، وتوجد عند مصب واد سيدي يحيى الذي يزداد حجمه بالمياه المعدنية لواد بني توزين.

- الزاوية، 50 منزلا، على واد بني توزين. وبالقرب من القرية، إلى الجنوب، توجد هضبة كبيرة يقام فيها سوق الثلاثاء.

- زاوية سيدي بوجدين، 300 منزل.

- تصارت، (الأهلة بالسكان)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛

- سيدي يحيى، 100 منزل، على ضفاف واد يحمل نفس الإسم، قرب غابة رائعة من شجر الفلين.

- ميضر، (وابل من المطر)، (التسمية عربية أمازيغية، وهي تحريف للكلمة العربية مطر)، وتعتبر عاصمة تافرسيت، 100 منزل، ويقام بها سوق كبير، يوم الخميس.

القوى العسكرية 15 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 75 ألف نسمة. المنطقة غابوية ومتموجة. ويوجد سهل، شمال تافرسيت والعديد من القرى الصغيرة.

قبيلة كزناية

أحيانا تسمى الزنايا بإخفاء الحرف الأول عن قصد خبيث. وتحد من الشمال ومن الشرق بقبائل ريفية هي: بني توزين، تافرسيت، لمطالصة؛ ومن الغرب والجنوب تمس منطقة جبالة التي تنفصل عنها في أقصى الجنوب وعلى مساحة صغيرة، عبر مغراوة. وهي تمتد على مسافة 80 كيلومتر تقريبا من كل الجهات. وأقسامها الأربعة هي: الدير (صدر السرج)، سيدي بنور، ايت علي، أيت داوود. ويجند كل قسم 3 آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل القبيلة. وقد فكر الدرويش في ولوج أعماق الريف، لكنه لم يكن مطمئنا وسط المرتفعات المشجرة التي كان يعبرها قادما من بني توزين إلى سيدي بنور.

فقد كان يبدو كقزم وسط الأشجار الضخمة مثل: أشجار البلوط والفلين والتنوب والكستناء والأرز والعرعار والصفصاف والدلب والحور والفستق والحراج وأشجار أخرى شبيهة في ضخامتها بتلك المذكورة والتي تسمح جذوعها الضخمة بإبراز تعرج المسلك الغابوي الذي يتبعه الدرويش.

وهذه المرة أيضا غادر بني توزين بغرض الوصول إلى قبيلة مغراوة. وكان يمشي إلى الأمام عازما على رؤية جبليي أقصى الريف الجنوبي والذين لا يكف أهالي الشمال من الحديث عن وحشيتهم.

وأول القاطنين الذين سيلتقي بهم في الغابة، هم الخنازير الذين كانوا يجرون بسرعة، هاربين على ما يبدو من الوحوش الكاسرة القريبة منهم كالفهود والأسود؛ إذ تشرع الأسود في الظهور عند هذه النقطة وتخشى النزول إلى السهول الشمالية الآهلة بالسكان.

وعند المساء وصل الدرويش إلى سيدي بنور، بعد أن عبر العديد من القرى التي لم يلق فيها الترحاب المأمول. وسيذهب إلى المسجد الذي كان فارغا، بحيث لم يجد بداخله أي طالب ولا أي أجنبي، بل فقط، أربعة جدران عارية وبعض الحصائر القديمة فوق أرض محفورة. وسينزوي بركن في المسجد، مغطيا رأسه بقلنسوته، منتظرا بصبر العشاء أو النوم. وسيأتي هذا الأخير قبل الأكل، وهو نوم ثقيل ومريح بعد تلك المسيرة الطويلة خلال النهار. وعند الصباح سيستيقظ من نومه وسيرفع القلنسوة عن رأسه، ليجد صحنا مليئا بكسكس الشعير، وهو ما سيشعره بالغبطة. ولربما جاء أحدهم بهذا الصحن أثناء الليل، وتركه بجانبه دون أن يوقظه. وبينما هو يأكل بنهم هذا الطعام الخشن الذي جعله الجوع لذيذا، إذا برجال يدخلون المسجد حاملين البنادق على أكتافهم ويرتدون جلابات طويلة من الصوف الأسود. وسأله رجل أسمر وقصير، يبدو أنه زعيم الجماعة: " ما هي الطريق التي سلكتها؟" وكانت إجابة الدرويش:" إنها الطريق المعروفة ". وسيسأله الرجل ثانية: " كيف؟ وهل سمح لك الأسود بالمرور؟" إلا أن الدرويش المصر على المغامرة سيجيب بحكمة قائلا: " ما هو مكتوب لا بد أن يقع ". وعلى الفور سيحظى بثقة الحضور وسيطلب منه البقاء بسيدي بنور، حيث لن ينقصه شيء. وسيقدم الدرويش للأهالي وعدا غير محسوب العواقب ، يتمثل في تعليم القراءة لأطفال القرية. وهذا الالتزام غير المدروس، كان سيجر عليه الويلات لولا هروبه من القرية بعد أيام قلائل ، ليتابع التجوال عبر القبيلة. ويا له من بلد جميل . فالجبال ذات القمم العالية، ترسم في سفوحها وديانا شاسعة مزروعة، كما هو الشأن في فرنسا العزيزة؛ حيث تتوالى بساتين الخضر والفواكه المسقية بكثرة بواسطة المنابع العديدة التي تنبثق بقوة من المنحدرات العميقة للأطلس.

وباتجاه الشرق، ستبرز الحلفة معلنة عن قرب الغاريت، هذا النهر الرملي الصحراوي الذي حدد ملك الصحاري مساره، عبر الأراضي الخصبة للمغرب، حتى البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر الحلفة، كما يسميها العرب، والتي ندعوها Stipa – tenacissima ، كنبات ثمين يستخدم أكثر فأكثر وباستمرار. وهي تنبت تلقائيا في كل أفريقيا الشمالية ولا تستدعي أية عناية ولا أية زراعة. وتوفر منطقة وهران وحدها سنويا، أكثر من 200 ألف طن، لا تذهب إلى فرنسا للأسف، بل إلى إنجلترا، حيث تعود إلينا وقد تحولت إلى ورق جيد. ولأن المغاربة يجهلون الاستعمالات العديدة لهذه النبتة المعمرة، فإنهم يكتفون بالصناعات التقليدية للنعال والقفف والحبال

ومسحات الأقدام والحصائر والغرابيل. ويختص أهالي كزناية في صناعة الأحذية. ففي أيام السوق، يلتقي المرء بصفوف طويلة تضم أكثر من 500 رجل أو امرأة، يحملون فوق ظهورهم شبكات كبيرة مليئة بنعال الحلفة الجيدة، التي تباع بأثمنة بخسة لقبائل الشمال والغرب. ويتبضع ريفيو الجنوب من فاس، وليس لديهم أي تعامل تجاري مع سكان الساحل، باستثناء شراء البنادق. فالكزناني الذي يلازم بيته دائما Casanier ينتظر مجيء الباعة المتجولين الذين يجلبون معهم منتوجات الصناعة التي يحتاجها. وهو لا يثق في العرب ويمقت اليهودي دون أن يعرفه. وينزوي في قريته، حيث يكره الأسفار ويعيش حياة بطريركية وإن كان يمنح حرية كبيرة لزوجته؛ إذ بإمكان النساء الخروج سافرات الوجوه والمشاركة في مداولات الجماعة، حيث يتدخلن في كثير من الأحيان ولا يتخلين عن البندقية التي تستعمل من طرفهن بشكل جيد. ويضفي عليهن قميصهن الطويل، المصنوع من الصوف والمشدود بحزام عند الوسط وقبعتهن العربية الكبيرة، مظهرا حربيا بشكل كبير.

وابتداء من سن الثامنة، فإن الطفل الذي كان يعيش داخل المنزل دون القيام بأي شيئ، سيصبح راعيا للبقر أو للماعز، تحت رعاية شخص يكبره سنا، مكلف بتعليمه أسرار المهنة. ولا يجب على قطعان الماعز والأبقار التي ترعى بأطراف الغابات، أن تغامر داخلها، إلا إذا كانت مرفوقة بحراس عديدين متبوعين بكلابهم الجريئة ذات الشعر الأصهب والتي لا تهاب الخنازير ولا الضباع. وبفضل هذه الاحتياطات ، فإن الفهود والأسود نادرا ما تستمتع بلحوم الأبقار أو الماعز. لكن من المؤكد أن الخنازير الكثيرة بالمنطقة، توفر لها طعاما يفوق حاجتها.

وتحكي الأساطير الريفية أن سيدي عبد الرحمن المجدوب، ذلك الرجل الصالح وصاحب الكلام اللاذع، جاء من شواطئ المحيط الأطلسي بهدف زيارة الشرق، لكنه توقف بكزناية ورفض الذهاب أبعد من ذلك، بعد أن اشمأز من الطعام المنفر لسكان الجبل الريفيين ومن لباسهم الوسخ المكسي دائما بشعيرات الحلفة. وسيولي ظهره للشرق، لينظم هذا القول المأثور واللاذع المتعلق بالقبائل الجنوبية للريف وتحديدا كزناية، والذي جاء فيه:

يا لطيف من بلاد الرّي والرّا ◊ وبلاد الحفا والحلفة

وتلمح الري لراعي الماعز الكزناني الذي يدفع قطيعه إلى الأمام صائحا باستمرار ارّي. أما الرا فيقصد به الأهالي الذين يدفعون حميرهم صائحين باستمرار: الرا. وأخيرا، فإن الجزء المتبقي من القول المأثور والساخر، ينطبق على الكزنائيين. وبالفعل، فإن هؤلاء الذين يصنعون

أحذية للآخرين، يمشون حفاة في بلد تكثر فيه الحلفة. ويعني سيدي عبد الرحمن بذلك، أن صانعي الأحذية هؤلاء، لا ينتعلون أي شيئ بأرجلهم.

وبدوره، فإن الدرويش الذي اشمأز من طعام كزناية ومن فظاظتهم، لن يظل سوى عشرين يوما تقريبا بالقبيلة . وسيتوجه بعدها شرقا، نحو أراضي لمطالصة.

القرى الرئيسية بكزناية

- سيدي بنور، 100 منزل؛
- الخميس، 100 منزل. وقد بنيت على قمة جبل كزناية التي ينبع منها نهران وهما: واد الدير وواد كزناية. وبالقرية نفسها يقام كل خميس سوق كبير وهو ما يفسر تسميته بسوق الخميس. وهناك بالقبيلة 60 قرية منتشرة بأرجائها.
- القوى العسكرية 12 ألفا من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 60 ألف نسمة. التعليم منعدم.

البلد جبلي وغابوي بشكل كبير والمناخ معتدل صيفا وبارد شتاء. وتكسو الثلوج قمم الجبال عند شهري دجنبر ويناير. والقبيلة متوحشة بشكل تام ومستقلة. وهي لا تأبه بالسلطان بفعل موقعها الجبلي. فالجماعات هي التي تحكم فيها، إذا ما سمح لنا باستعمال لفظة حكم، في بلد تعتبر فيه الحرية الفردية لا محدودة.

قبيلة لمطالصة[37]

لم نر إلى حد الآن سوى ساكنة مستقرة بأراضيها، لا تترك منازلها وقراها إلا مجبرة وتعمل على الرجوع إليها بسرعة كلما أمكن ذلك. وها نحن لأول مرة، نحط الرحال عند أمازيغيين رحل. وسنغادر الجبل إلى السهل، حيث توجد صحراء حقيقية وهي صحراء الغاريت.

إن تبدل المناظر يحدث فجأة، دون تمهيد؛ وهو تبدل جذري يقع أمام عينيك، بفضل اليد اللامرئية للصانع القادر الذي يحرك العوالم. وما أن تطأ قدماك آخر تموجات تلال الغرب، حتى يمتد السهل أمامك في شساعته وفي الانبساط اللامتناهي لتماثله الممل. تجد نفسك فوق أرض

---

37 - وهي كلمة عربية تمزغت فيما بعد ويجب كتابتها: المطلسة. لكني حافظت على النطق المحلي تبعا للقاعدة الثابتة التي اعتمدتها. وفي العربية الجزائرية تعني المطلسة: " المغطاة بـ " و " المختفية تحت ". وقد عرفت هذه القبيلة بهذا الإسم، لأنها على ما يبدو، كانت ممتلئة بالأجانب الذين استقروا بها كفاتحين منتصرين.

حجرية، تكسوها الرمال، وتختفي أحيانا على مدى مساحات شاسعة، تحت أدغال خضراء من شجيرات الزفزوف Jujubier وتحت أعشاب الحلفة الكثيفة. وعند الأفق تظهر قطعان الغزلان والنعام وكأننا أمام مشهد متحرك وأمام كائنات أسطورية، نصفها إنسان والنصف الآخر حيوان، متقلدة ركابها وترفرف أطراف معطفها الصوفي (البرنوس) مع الرياح، وقد صوبت بنادقها منحنية بعض الشيء إلى الأمام، لإصابة الهدف. نعم، ها نحن قد وصلنا إلى ذراع من أذرع الوحش الصحراوي، إلى امتداد صحراء أنجاد، عند مدخل غاريت، على سطح هذا الممر النهري الغريب، المليء بالرمال، والذي ينطلق من أعماق الصحراء لينغمس عبر الحقول المزروعة، في البحر الأبيض المتوسط، ما بين بحيرة بوعرگ المالحة والحدود الوهرانية. فلنقل وداعا للريف الحقيقي وللريفيين أصحاب لهجة تامازيغت الخالصة. وداعا لهواء الجبال النقي وللثلج ولاعتدال المناخ وللإيمان القوي والصلب لساكن الجبل.

وياله من بلد غريب وقاحل ! فكل شيء فيه يتسم بالجدة، الطبيعة والسكان. فالمطالصي يتحدث الزناتية وهي لهجة أمازيغية بعيدة إلى حد ما عن تامازيغت . وهو نفسه زناتي، أي ينتمي إلى فرع آخر مغاير لإخوانه الريفيين، أصحاب لغة تامازيغت والذين يسمون أنفسهم أمازيغ (جمع إمازيغن)، والمقصود بذلك الإنسان الذي يتكلم لغة تامازيغت؛ وذلك حتى يتم تمييزهم عن الزناتيين، أي الأمازيغيين الآخرين.

كما أن الحيوانات الأليفة هنا تختلف عن حيوانات المناطق المتموجة والباردة بالريف. فالحمار والبغل اللذان ينفعان في الجبل يندران في الرمال الصحراوية ويعوضهما الحصان والجمل. ففي الفضاءات المنبسطة والعارية يجب التوفر على السرعة، إضافة إلى البساطة والبؤس.

وكفارس شجاع، فإن المطالصي لا يفارق حصانه أبدا، مثلما لا يفارق بندقيته الإنجليزية أو الإسبانية التي اقتناها من المهربين بالشواطئ الريفية. ولأنه يلف جسده بالحايك و " ببرنوسه " الخفيف، فإنه يبدو على هيئة عربي لولا نعاله المصنوعة من الحلفة ورأسه العاري وسحنته الأمازيغية. وتعتبر صناعته الرئيسية والوحيدة هي الحلفة. فهو يتقدم في السهل، ممسكا حاصدته بيده ومتبوعا بزوجت. وعند كل نصف دائرة ترسمها هذه الالة المخيفة على الأرض، تسقط الأعشاب الكثيفة التي تجمعها زوجته الشجاعة على شكل حزم صغيرة مربوطة بعناية. وعند الرجوع إلى الخيمة، يشرع الجميع في فتل الحبال وصنع النعال والقفف والحصائر والغرابيل. وتتمتع النساء بحرية كبيرة، وهن سافرات ويذهبن إلى السوق رفقة الرجال ويضعن بأرجلهن نعالا من الحلفة، وهن معجبات بأنفسهن لكنهن لسن شرسات، بل هن مستعدات للتآلف.

إن الأسواق الثلاثة بالقبيلة مزودة بشتى أنواع البضائع. وتتم فيها تجارة الأغنام والصوف والحلفة والخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود، والزرابي والشاي والسكر الإنجليزيين والبارود والرصاص والبنادق والجياد والزبدة والعسل. وسيكون من الخطير التغلغل وسط هؤلاء الأشخاص المسلحين الذين يتراوح عددهم ما بين 15 و20 ألف فرد دون أن يكون المرء محميا من طرف رجل من الأهالي. ويمكن في هذه الحالة، التجول في هذا الفضاء الشاسع للسوق وهو مطمئن نسبيا.

وبالغرب، نجد بعض القرى الصغيرة المعلقة على المنحدرات الأخيرة للأطلس والتي يعتبر سكانها مستقرين sédentaires . أما باقي أهالي القبيلة فيعيشون تحت الخيام ويغيرون مخيمهم في كل مرة، باحثين عن الكلأ لقطعانهم. وفي فصل الربيع، يصلون إلى صحراء أنجاد، أما في الخريف فإنهم يصعدون إلى الغاريت.

وتمتد القبيلة على مساحة شاسعة (80 كيلومترا من كل الجهات)، وتتوفر على خمسة أقسام وهي: إكبدانن، (أصحاب الأفئدة)، (التسمية عربية أمازيغية)، الخميس، ربع وادا (القسم السفلي)، (التسمية عربية أمازيغية)، سواحل، الكرت، (التكريط) (التسمية عربية). ويجند كل قسم 4 ألف فارس، أي ما مجموعه 20 ألفا بالنسبة للقبيلة برمتها، يمتطون جيادا رائعة ويحملون بنادق أوروبية.

وبالغرب، في الأجزاء الجبلية، يزرع القمح والشعير بشكل جيد، في حين تظل المنطقة بالشرق قاحلة وجافة، علما بأنها تخترق من طرف نهرين مياههما مالحة، وهما واد مسون (الموحل)، (التسمية أمازيغية)، والذي تكون فيضاناته خطيرة في بعض الأحيان؛ وواد ملوية الكبير الذي شوه اسمه بذكاء، من طرف الكتاب الأوروبيين. ويحمل هذان النهران مياههما الطينية بمحاذاة الأرض المنبسطة دون ضفاف، فاتحين بصعوبة مسلكا بالغاريت، ذراع الصحراء هذا، الذي يتقدم بدفعة قوية، ساعيا كنهر أغبر إلى إيصال أمواجه الرملية حتى البحر. وبالشمال يتم استغلال جبل الملح بشكل مزدوج. فهو يوفر الملح الضروري للإستهلاك وكذلك أحجار الرحى الجيدة.

وككل الرحل، يعتبر أهالي لمطالصة لصوصا بارعين وقطاعي طرق متمرسين. وغالبا ما تحدث منازعات بينهم وبين عرب الدهرة. فإذا كانوا منتصرين، فإنهم ينهبون كل شيء ويبيدون الجميع.

وإذا ما كانوا منهزمين، فإنهم يتحصنون بجبالهم الشامخة، وأحيانا ما يتحالفون مع بعض قبائل الرحل بصحراء أنجاد ، وهم ينتسبون إلى زاوية درقاوية (سيدي عبد القادر) .

وفي إحدى الأمسيات، انتبه محمد بن الطيب الذي كان مقيما بخيمة مضيفيه، وسط دوار كبير، إلى مرور قافلة من 400 إلى 500 جمل، تبدو عند الأفق بمحاذاة الدهرة. وعلى الفور، ركب 300 فارس مطالصي جيادهم وأغاروا على القافلة؛ وبعد ساعتين رجعوا ومعهم القافلة برمتها. وكانت مكونة من 500 جمل محملة بالصوف والتمر، يقودها حوالي خمسين فردا من بني جيل beni Guil ، الذين تم نزع سلاحهم ودفعهم كأسرى مشيا على الأقدام أمام أعدائهم. وقد قتل في المعركة عنصران من لمطالصة وآخران من بني جيل.

وتم تقسيم الجمال وحمولتها إلى خمسة أقسام، وزع كل واحد منها على قسم من القبيلة. وفي الغد، جاء الأمازيغيون المجاورون للمطالصة وأصدقاؤهم، طالبين عقد الصلح. وقد قبل أهالي لمطالصة بإطلاق سراح الأسرى، لكنهم رفضوا إرجاع الغنيمة، إذ كان الأمر يتعلق بانتقام من بني جيل الذين سبق لهم سنوات من قبل، أن نهبوا قافلة مطالصية كانت تعبر أراضيهم بطمأنينة. وقد حدثت هذه الغزوة تحت أعين المهاية الذين يمكن أن يشهدوا على ذلك، عند الاقتضاء. ورجع الأسرى من حيث أتوا، فرحين ببقائهم على قد الحياة.

القرى الرئيسية بالمطالصة

- زاوية كركر، (وهو اسم علم ويعني التلكؤ)، (التسمية عربية)، 200 منزل، ويوجد وسط القرية نبع صاف وعذب، ينبثق منه واد كركر الذي يصب في واد مسون.

- اعرقوب، (التل الصغير)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل توجد بالشمال الغربي للقبيلة، فوق تل، في آخر منحدرات جبل كزناية.

القوى العسكرية 20 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 100 ألف نسمة، التعليم منعدم. ويمتد السهل من كل جانب ، باستثناء الغرب. الاستقلالية تامة.

قبيلة بني عمريث

(أبناء المنطقة الآهلة) ، (التسمية عربية أمازيغية)

سيرغب الدرويش في رؤية الشمال، خاضعا مرة أخرى لنزوته كرحالة؛ وسيغادر لمطالصة وهو سعيد بالمشي على الأقدام، بعد جولاته الجنونية على ظهر الحصان والتي كان يجبر على القيام بها وراء الرحل، المتنقلين باستمرار.

ومن بني توزين سيمر إلى بني عمرث، متوقفا في البداية عند قرية كبيرة تسمى إمزاورو. وسيصل في وقت كان فيه الأهالي يعيشون حالة اضطراب، حيث كانوا يتهيؤون بحماس للشروع في معركة ضد أكراوا، وهي قرية معادية غير بعيدة. وسيتوجه الرحالة بهدوء نحو المسجد، همه الوحيد هو معرفة هل سيتعشى تلك الليلة، لأن عشر ساعات من المشي بمنطقة متموجة، فتح شهيته للأكل. وهناك سيجد حوالي عشرين طالبا، وهم متسولون، مرحون على الدوام، يتقافزون في بيت الله ويصرخون ويضحكون ويتدافعون. ولأن سن الدرويش لا تسمح له بمشاركتهم ألعابهم، فإنه سينزوي بركن في المسجد. وكان يعرف بأن هؤلاءالشباب لن يتأخروا في التحرك داخل القرية، لطلب قوتهم اليومي. وبالفعل، فبعد مرور ساعة، وصل طعام فاخر سيتقاسمه الجميع بروح أخوية، وهو ما سيؤكد للدرويش بأن الطلبة يعرفون العائلات الميسورة بالقرية والأماكن المهمة التي تقدم فيها الصدقات بسخاء ودون تماطل.

وبعد أيام معدودة، سيستعيد الرحالة المغامر قوته وسيبدأ من جديد عبور البراري، مارا من قرية إلى اخرى، غير عابئ بما ينتظره في الغد، مثل عدم اهتمامه بلباسه.

إن مساحة بني عمرث صغيرة (20 كيلومترا من كل الجهات) ويقسمها جبل شاهق، وهو جبل بني عمريث إلى جزأين متساويين تقريبا، من الشمال إلى الجنوب. وعلى جنباته تتدرج القرى على شكل مدرجات المسرح، وصولا إلى السهل الذي تحيط به خضرة دائمة من أشجار الأرز والبلوط والزيتون والصفصاف والدلب. وبالسهل، تقاوم أشجار الفواكه، الغزو المستمر للتين الوحشي. ولا تصلح الأرض الصلبة جدا إلا لزراعة الذرة والشعير. ذلك أن تغيير المزروعات على نفس الأرض كي تحافظ على خصوبتها، غير معروف في هذه المنطقة التي يظل فيها تقليد الأجداد، بمثابة القاعدة المتبعة من طرف الجميع. ويصنع أهالي السهل البارود والرصاص، أما أهالي الجبل الذين يعيشون فقط من الغابة، فهم نجارون وفحامون وصانعو القطران. وتهيئ كل عائلة ما تحتاجه من هلام العنب والخل. وينمو الكرم في كل مكان، حيث تتسلق عروشه الأشجار المجاورة، كشجر التين والجوز واللوز والزفزوف. وما بين نوفمبر وماي تسقط أمطار غزيرة، تساهم في سقي الأرض وملأ المنابع. ويظهر الثلج أواخر دجنبر، على قمة الجبل الرئيسي للقبيلة، ليذوب بعد ذلك عند الأيام الأولى لفصل الربيع. وهناك حقول مخصوصة لزراعة الكيف والنشوق.

وتعتبر الجلابة الجبلية بمثابة اللباس المعتاد، إضافة إلى السروال القصير الذي يصل إلى الركبة. وتنمو فوق رأس كل واحد، ضفيرة طويلة من الشعر، تنزل حتى الحزام، من الجهة اليمنى للرأس العاري والمحلوق. وما أن يبلغ الطفل سنة أو سنتين، حتى يتم ثقب شحمة أذنيه

وتزيينها بحلقات صغيرة من النحاس، تخضع للتلميع بعناية كي تظل براقة. وترتدي النساء لباسا من الصوف؛ وهن عفيفات ويتجولن سافرات الوجوه. أما البندقية المستعملة، فهي بندقية تاغزوت فقط. ورغم أنها محدودة التأثير مقارنة بالبنادق الأخرى، حيث أن جزأها المخصص للطلقات عتيق جدا، إلا أنها تظل مرعبة مع ذلك. فقد ساهمت كما هو معلوم، في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى وحصدت بدون رحمة، أرواح كتائب بكاملها وأدت إلى مذابح فظيعة وسط الجيوش.

وتوجد ببني عمريث أربعة أقسام وهي: ايت عبد الله، أيت سعيد، أيت يغزر (أبناء الغدير)، (التسمية أمازيغية)، أيت وذرار (أبناء الجبل) ، (التسمية أمازيغية). ويجند كل قسم ثلاثة آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ويعين القياد من طرف الجماعات التي لا تعترف بأية سلطة أخرى.

ويسقي واد بني عمريث سهل أيت يغزر وأيت عبد الله. كما أن عددا كبيرا من القرى والبساتين يوجد على ضفتيه اللتين يجري الماء العذب والصافي بينهما باستمرار.

وقد حصل الدرويش بأعرقوب على وظيفة، حيث عوض المعلم الذي أصابه مرض. وسيجني من وراء ذلك، ودون تعب، عشرين سنتيما تؤدى عن كل تلميذ، دون أن نحسب سلات الزبيب والتين التي يتلقاها والتي يمكنه بيعها بالسوق. غير أن حادثا، كاد أن ينتهي بمأساة، سيبعده عن البيداغوجيا وعن قبيلة بني عمريث. فبينما كان ذاهبا في إحدى الليالي، إلى حفلة زفاف بقرية أعرقوب ذاتها ، فتحت نافذة وسمع صوتا يسأله: من أنت؟ أعقبته طلقة نارية رهيبة، وقد اخترقت الرصاصة جلابة الرحالة دون أن تصيبه بأذى، مما جعله يصرخ على الفور: انا طالب. وزمجر الرجل وهو يغلق النافذة صارخا: لماذا لم تقلها من قبل؟

ووصل الدرويش المرعوب إلى منزل الحفل، ممتقع اللون، مرتعد الفرائص، وكانت الغيطة والناي والطبلة تصدر ضجيجا قويا مرفوقا بزغاريد النساء والبهجة تعم المكان. وانخرط الوافد الجديد في الحفل، مالئا بطنه بأنواع الأطعمة. وعند الفجر، وبعد قضاء الليلة وسط المحتفلين، ابتعد بصفة نهائية عن هذه القبيلة التي لا تساوي فيها حياة الإنسان حبة خردل.

القرى الرئيسية ببني عمرث

- أعرقوب، (التل)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل على واد بني عمرث.
- أقراوا، (السكين)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛

- أمزاورو، (الأول)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛
القوى العسكرية: 12 الف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل حوالي 60 ألف نسمة؛ التعليم القرآني منتشر إلى حد ما. وهناك حوالي 60 قرية صغيرة من 10 إلى 100 منزل، موزعة على السهل والجبل. وتوجد المسالك في كل مكان. وبالمقابل لا توجد طرق واسعة.

قبيلة بني مزدوي
(أبناء تفاح الصنوبر)[38]

وهي قبيلة صغيرة تمتد مساحتها على 20 كيلومترا من كل الجهات وتتوفر على ثلاثة أقسام وهي: تيزمورين (أشجار الزيتون)، ثازروت (الصخرة الصغيرة)، أولاد علي. ويجند كل قسم 2500 من المشاة، مسلحين على الطريقة المغربية، أي ببندقية تاغزوت، ورغم عددهم القليل، فإن الأهالي يحظون باحترام جيرانهم الأقوياء بفضل شجاعتهم وعرى التضامن التي توحد بينهم.

وبالشمال الغربي، في السهل الكبير لتيزمورين و تازروت، يزرع القمح والشعير؛ وخصوصا الشعير الذي يعتبر الطعام الرئيسي للإنسان وللحيوان. ويكسى جبل مزدوي بالجنوب، بأشجار الصنوبرالضخمة التي يباع خشبها لأهالي تاغزوت، من أجل صنع مقابض البنادق. ويستلذ سكان القبيلة فاكهة الصنوبر التي يحملون إسمها، كما تزدهر عندهم تربية النحل، بشكل كبير. ويصعب أن تجد أسرة مهما بلغ فقرها، بدون خلية نحل. ويباع العسل الأصفر اللذيذ بفاس حيث اكتسب شهرة كبيرة، ويتم نقله في جرات ضخمة على ظهر الحمير أو البغال. ولا يختلف هؤلاء الجبليون الريفيون في شيء، عن جيرانهم بني عمرث. فلديهم نفس الزي ونفس الأسلحة والعادات واللغة.

وهم أكثر عزلة من بني عمريث ولا يحبون السفر، كما لا يريدون استقبال الأجانب . ولأن محمد بن الطيب وجد في هذه القبيلة مجموعة من الطلبة الجوالين مثله والراغبين في معرفة البلاد أكثر، فإنه سيغادر بني مزدوي وسيعود مرة أخرى إلى مساجد كزناية وبني توزين وتافرسيت. وستتفرق المجموعة المرحة بأراضي تمسمان، حيث سيأخذ كل واحد وجهته.

38 – بتمازيغت يسمى الصنوبر ثايذة وتفاح الصنوبر مزدوي.

القرى الرئيسية ببني مزدوي

- تيزمورين، (أشجار الزيتون)، 100 منزل، وتوجد بسهل رائع مغطى بأشجار الزيتون؛ وتتضمن القبيلة 50 قرية صغيرة، يوجد أغلبها على ضفتي واد تيزمورين الذي يسقي أقسام القبيلة.

القوى العسكرية 7500 من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 37500 نسمة؛ التعليم القرآني محدود. الأرض متموجة. الإستقلالية تامة.

قبيلة بني وليشك

(أولاد الاستنشاق) ، (التسمية عربية أمازيغية).

سيفارق الدرويش أصدقاءه التمسامانيين ليغوص باتجاه الجنوب الشرقي. وأول محطة بأراضي بني ولشك ستكون هي قرية تاليوين الكبيرة التي تحيط بها شجيرات كثيفة من التين الوحشي. وبالمسجد سيجد الرحالة حوالي عشرين طالبا يقرؤون جهارا آيات من القرآن.

ومع غروب الشمس، توقفوا عن القراءة وعلقوا ألواحهم بالحائط دون أن يكلفوا أنفسهم عناء مسح الكتابة العربية البارزة بحروف مائلة. وسيأخذون القفف متوجهين إلى أزقة القرية، حيث سيتوقفون عند كل منزل صائحين: " المعروف لله". وسيرجعون إلى المسجد بعد أن امتلأت القفف بشتى الأطعمة ، من كسكس ولحم وفواكه وعسل وبطيخ أخضر (دلاح) وبيض مسلوق وسمك ورؤوس الأغنام المشوية والحلويات والزبدة وطبيخ اللحم بالبطاطس. وباختصار كل ما طبخته سيدات تاليوين من أجل العشاء. وينعت هذا الخليط من المأكولات المتنوعة، من طرف الطلبة المغاربة بـــ " المخلوط "، (وهي تسمية عربية). ويشكل العشاء الطعام الوافر الوحيد بالنسبة للطالب الذي يكتفي عند فطور الصباح بكسرة خبز يقضمها بمرح وهو يفكر في مأدبة المساء. وبعد أن نال محمد نصيبه من المخلوط، دخل في سبات عميق، في نفس الوقت الذي ظل فيه أصدقاؤه الجدد يلعبون بالأيدي أو يروي بعضهم للبعض الآخر حكايات غريبة. وعند الفجر نهض من نومه وغادر المسجد بهدوء، حيث وجد نفسه بالغابة بعد مائة خطوة.

وتحتل قبيلة بني ولشك مساحة صغيرة (20 كيلومتر من كل الجهات) وتتضمن أربعة أقسام وهي: تاليوين (المنابع) (التسمية أمازيغية)، ربع انج (الربع الأعلى)، (التسمية عربية أمازيغية)، أيث سالم (التسمية عربية أمازيغية)، ربع السبت (التسمية عربية). ويجند كل قسم

2000 من المشاة مسلحين ببنادق ذات طلقات متكررة تم شراؤها من المهربين الإسبان. وتغطي الغابات العالية، القمم الجنوبية؛ وفي الشمال يختفي السهل تحت خضرة بساتين الخضروالفواكه المسقية بواد بني ولشك. ويتغير اسم هذا الواد ذي المياه الصافية والمليئة بالأسماك، قبل أن يصل إلى حدود بني سعيد وتمسمان، حيث يصبح اسمه واد سيدي صالح؛ وسيحمل إلى البحر، شرق سيدي ادريس، ما تبقى فيه من مياه.

وتعطي أشجار الزيتون الكثيرة التي تقاوم الزحف المستمر لأشجار الصبار، زيتونا رائعا يتم تحويله إلى زيت بعصره تحت رحى ضخمة، بدائية إلى حد ما. ويشكل الزبيب الناتج عن الكروم العديدة التي تتسلق قمم أعلى الأشجار، أحد الموارد الرئيسية للأهالي، إلى جانب العسل. كما تسمح تربية الماعز والأبقار لمالكي القطعان الكبيرة، بوفرة العيش.

لذلك، فإن الفلاحين الكبار هم في غالبيتهم متعددو الزوجات، على عكس العرف السائد لدى الريفيين الذين يكتفون عادة بامرأة واحدة. والشيء المثير للاستغراب، هو أن الاسترقاق غير موجود أيضا في الريف ولا يمكن أن نرجع ذلك إلى حساسية أمازيغيينا الشماليين، بل يجب أن نرجعه حسب اعتقادي، إلى سببين محددين وهما: بعد الصحراء الذي يجعل ثمن العبد باهظا جدا؛ وكثافة السكان الريفيين، التي تعتبر كافية للقيام بالأشغال الفلاحية والمنزلية.

ويلبس سكان بني ولشك الجلابة في الشتاء والحايك في الصيف. ورغم جمال المرأة، فإنها تهمل في العائلات الغنية، لفائدة الغلام الساقل. ولا تهتم المرأة كثيرا بالحقول؛ بل تجمع فقط الحطب وتأتي بالماء من المنابع وتهيء طعام الفلاحين والحصادين وأطفالها الكثيرين الذين لا تتوقف رغبتهم في الأكل.

القرى الرئيسية ببني وليشك

- تاليليث، (الدفلة الصغيرة)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل على واد سيدي صالح.
- تاليوين، (المنابع)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل؛ يقام بها سوق كبير يوم السبت ويقبل أهالي هذه القرية بوجود موظف مخزني، يسمى قايد الريف.

القوى العسكرية 8 آلاف من المشاة. عدد السكان المحتمل 40 ألف نسمة. القبيلة مستقلة، وتبعث أحيانا بعض الهدايا إلى السلطان . التعليم القرآني محدود.

قبيلة بني سعيد

لم يكن الدرويش الذي يتجول بدون هدف محدد ويعبر الريف بنفس الطمأنينة التي نعبر بها الجزائر، مجبرا كباقي المسلمين على انتظار موكب أو قافلة للمرور من بلد إلى آخر. فأسماله كانت تساوي جيشا ومظهره الخائف كان يحميه أفضل من حماية القافلة له، ومعرفته بالأمازيغية والعربية كانت أفضل ألف مرة من كل الترخيصات (الفرمانات) وجوازات السفر العالمية.

وعلى عكس الرأي السائد في أوربا، فإن الانتساب إلى زاوية إسلامية يتضمن من السلبيات أكثر من الإيجابيات، خصوصا عندما يتعلق الأمر بعبور منطقة خطيرة كالمغرب. وهذا هو رأي الدرويش وبعض الرحالة المسلمين الذين رددوا على مسمعي العبارة التالي: **« في الغرب (المغرب)، العريان عليه أمان الله »**؛ وهم يقصدون بذلك أن الأسمال نفسها تعتبر ترفا يعرض الرحالة الذي يرتديها إلى الخطر.

وإذن، فإن نموذج الأمان سيكون هو التجول في الإمبراطورية الشريفة بدون لباس، بمعنى أن يكون المرء عاريا كما ولدته أمه. والملاحظ، أن بساطة الرداء هاته، لا تعفي من التعرف بجد على اللغتين العربية والأمازيغية اللتين لا يمكن لأي أوروبي إلى حد الآن أن يدعي معرفتهما. لقد غادر محمد ثاليليث (الدفلى الصغيرة) في الوقت الذي لم تعد فيه أسماله تغطي جسده. وبدل أن يمنحه أهالي بني ولشك القساة ثيابا فإنهم كانوا ينظرون خلسة إلى أطماره ولم يخفوا رغبتهم في انتزاعها منه.

لذلك، لم يهتم أحد بذهابه في ليلة من الليالي متبوعا بنباح الكلاب التي كانت تودع على طريقتها هذا الجوال الذي كانت ستمزقه إربا لو تمكنت من الخروج من المنازل. فالكلب في هذا البلد المتوحش ، هو من الخطورة بمكان، لأنه يظل جائعا باستمرار. وهذا هو الوضع العادي بالنسبة لكل كلاب المغاربة. فهذه الحيوانات البئيسة تضطر لأن تقتات من الفضلات، فهي تنتظر اللحظة التي يغادر فيها السيد المنزل ليعتزل في الحقل المجاور أو وراء الحائط؛ وبعد انتهائها من هذا الطعام الفظيع، ترجع إلى مكانها، في انتظار خروج عضو آخر من الأسرة . وهذا الصوم الدائم يضاعف من هياجها ووحشيتها. وويل للغريب الذي يسمح لها بأن تلمق جسده، فهي لن تعضه فحسب، بل ستفترسه وتمص دمه إذا لم يأت أحد لإنقاذه. وقد كشف لي ريفي يوما، عن بطة ساقه أو بالأحرى ما تبقى منها، قائلا بأن الكلب الذي سبب له هذه العاهة، قضم بعضة واحدة رطلا من اللحم، التهمه على الفور أمام أعين الضحية، إن لم نقل إنه ازدرده في عملية بلع سريعة.

سيتوجه الدرويش إذن صوب الشمال، تاركا بني ولشك وراء خط مستقيم دون منعرجات ودون حواجز ،انطلاقا من تاليليث. وهذا الواد المستقيم هو عبارة عن شريط فضي تضيئه سماء صافية، اتخذه الدرويش مرشدا له، بحيث كان يسير على ضفته ببطء مصغيا أحيانا لدوي طلقة بندقية آت من بعيد. ولم يكن راغبا في لقاء السكان، لأنه كان يعلم بأنه من السهولة تلقي رصاصة أثناء المرور ليلا قرب المزارع والقرى الصغيرة.

وعند الفجر وصل إلى تازغين، وهي قرية كبيرة تتدرج مثل مدرجات المسرح، على جانب تل. لقد حل ببني سعيد، وهي قبيلة بحرية محاطة بتمسمان غربا وبقلعية شرقا وبني ولشك وبني بويحيي جنوبا. وتمتد على مساحة 20 كيلومترا طولا وعرضا، كما تتوفر على أربعة أقسام وهي: أيت أحمد، أيت عمر، أيت علي، أمزوج، (قمة الجبل)، (التسمية أمازيغية). ويجند كل قسم 4 ألف رجل من المشاة المسلحين ببنادق حديثة تم شراؤها من المهربين الإسبان.

وأراضي بني سعيد رملية وأيضا صخرية ومجذبة ولا يوجد سكان على الساحل. وتنقسم القبيلة إلى شطرين يعجان بالقرى بفعل اختراق جبل بني سعيد لها. وهو عبارة عن تلال متتابعة تمتد على خط مستقيم من الغرب إلى الشرق. أما السهل فهو جاف تماما، إذ لا توجد به منابع ولا أنهار، باستثناء واد سيدي صالح بالغرب والذي لا يسقي للأسف، سوى جزء ضئيل من المنطقة، لأن مجراه مستقيم وليس منعرجا. وعلى امتداد هذه المساحةالشاسعة لا توجد أشجار، بل هناك فقط الحلفة وبحر متموج من حقول القمح والشعير يمتد نحو الأفق خلال فصل الربيع. وكان من اللازم على كل منزل بناء خزان أو خزانين بشكل جيد وتبليط أرضيتها بالخزف. ومن تازاغين سيمر محمد إلى زقزاوا، وقد أطلقت هذه التسمية على مجموعة من القرى الصغيرة جنوب القبيلة متتالية من الشرق إلى الغرب. وسكان زقزاوا الوسطى هم من الشرفاء الذين يعيشون في رخاء، بفضل إحسان الأهالي الورعين. وغير بعيد عن هذه القرية الكبيرة، تظهر قرية بطيوة التي يبدو أن أمازيغيي أغزو (بطيوة) ينحدرون منها. وهو ما يؤكده الأهالي أنفسهم، وما يؤكده أيضا سكان بني سعيد الذين يأتون إلى وهران للإشتغال في الفلاحة لدى المعمرين.

وأثناء مقامه ببطيوة، كان محمد ينتهز الفرصة للحديث عن الإخوة الجزائريين الذين جعلهم " مكتوبهم " للأسف، تحت سلطة النصارى..ومنذ سنين عديدة، ظلت العداوة قائمة بين بني سعيد وبني بويحيي. ولا يمر شهر دون أن يؤدي تغلغل هذه القبيلة الأخيرة داخل القرى الجنوبية لبني سعيد، إلى الدمار. ورغم أنهم أقل بأسا، إلا أنهم يقاومون بشجاعة وينتهي بهم الأمر، بفضل اتحادهم، إلى طرد أعدائهم الشرسين باتجاه الجنوب. وترجع هذه العداوة القديمة إلى سبب تافه. ففي أحد الأيام وبينما كانت بعض نساء بني بويحيي يقمن بزيارة قبر الولي سيدي عيسى، إذا بهن

يسمعن كلمات بذيئة تفوه بها رجل من بني سعيد ، حيث جاء على لسان هذا السافل عديم الحياء ما يلي: " هاها.. إنكن لا زلتن صغيرات.. ألا تخشين من مكروه؟ ما رأيكن في أن..؟". هذا بالإضافة إلى العديد من الحماقات التي يتفنن الناس العديمو التربية، في قولها ببلادة. ولأن سيدي عيسى كان مكانا مقدسا، فإنه من البديهي أن تعمل الشرائع الإلهية والإنسانية على معاقبة المدنسين. وعند رجوع النساء إلى بيوتهن، اشتكين إلى أهلهن وأخبرن أقاربهن بالإهانة الفظيعة التي سببها لهن السعيدي. وعلى الفور نظمت حملة كبيرة، من طرف رجال بني بويحيي الأقوياء والبالغي القساوة الذين قاموا بغزو بني سعيد، ناهبين ومبيدين كل شيء، حيث استولوا على المواشي وأفرغوا مخازن الحبوب وأحرقوا المساكن. وبعد مجهودات جبارة، تمكنت قبيلة بني سعيد المهزومة، من دحر أعدائها خارج حدودها. غير أن الصراع الأبدي سيتكرر كل سنة، مع تناوب في النصر والهزيمة، حيث أن كل طرف كان يدافع عن كل شبر من أراضيه.

وبعيدا عن مسرح الحرب، يزاول سكان ثلاثة خلجان صغيرة وهي: مرسى سيدي حساين، مرسى سيدي أحضري ومرسى سيدي عيسى، مهنة الصيد والملاحة الساحلية والقرصنة. وتستعمل قواربهم لهذه الأعمال مجتمعة .

تخيلوا معي صيادا واقفا أمامكم. ألا يبدو لكم مسالما، منهمكا في عمله، هادئا عندما يلقي شبكته وسط أسراب السمك؟ في الواقع، علينا ألا نغتر بالمظهر. فعيناه الحادتان أبصرتا مركبا شراعيا في الأفق. وعلى الفور سيخبر رفاقه بواسطة الصفير، وسينضمون إليه بسرعة بواسطة قواربهم . وفجأة سيصبح الصياد المسالم، قائد أسطول صغير escardre، لأنه أول من رأى الغنيمة غير المنتظرة. وإذا كان المركب المشار إليه كبير الحجم، فإن القراصنة لن يجنوا شيئا من المجهود الذي بذلوه في التجذيف.

أما إذا كان الأمر يتعلق بسفينة أوروبية صغيرة أو بقارب من قوارب ريفيي الشاطئ أو بزورق تائه وسط المياه، فإن أصحابنا لن يترددوا في مطاردته. وويل للنصارى إن هم سقطوا في قبضتهم، إذ يتم ذبحهم ببرودة دم، وأحيانا ما يساهم إعلان الشهادة، في إنقاذ حياة الأوروبيين الذين تم أسرهم من طرف هؤلاء المتوحشين.

أما الملاحة الساحلية فتتمثل في نقل المسافرين إلى تيطاون (تطوان) وطنجة ومليلية. والمهنة الوحيدة بالنسبة لأهالي الداخل هي الفلاحة. وهم يستخدمون الحلفة بكل تأكيد، لكن فقط من أجل صنع نعال عديمة القيمة أو الحبال.

ويوجد بالقبيلة سوقان: سوق الجمعة بزقزاوا وسوق الإثنين بأمزوج. وهناك تباع كميات كبيرة من الشاي والسكر الإنجليزيين والتي يتم جلبها من فاس. وقد أكد لي بعضهم بأن قالب

السكر من أربعة إلى خمسة كيلوغرامات لا يساوي أكثر من فرنكين. فيا للعبقرية التجارية لهؤلاء الإنجليز ! إذ كيف يبيعون بثمن بخس، مادة باهظة الثمن في أوروبا؟ إنني أعلم بأن التهريب الإنجليزي يدخل إلى المغرب كمية هائلة من البضائع. ومع ذلك، حتى ولو كانت هذه البضائع مهربة، فإننا نتساءل كيف يمكن أن تباع بهذه الأثمان البخسة؟.. لماذا لم ننشئ من جانبنا أسواقا حرة بنيمور Nemours وندرومة وللامغنية وتلمسان وعلى طول كل حدودنا الوهرانية، في كل مكان توجد فيه قرية أو قبيلة وحيث يمكننا أن نقيم معاملات تجارية ؟ إنها ستكون ضربة مميتة لتجارة جيراننا لما وراء المانش..

إن الطعام ، وإن كان أفضل من طعام الجنوب الريفي، ليس لذيذا مع ذلك، إذ يتكون دوما من البيصار (كسكس الشعير مخلوط بالفول) وخبز الشعير الخشن وغير المطبوخ بشكل جيد. ويرتدي الرجال جلابة من الصوف ذات خطوط صغيرة، بيضاء وسوداء. أما النساء المتأنقات إلى حد ما، فلا يتحجبن. وهن مولعات بالأثواب القطنية، الإسبانية والإنجليزية، التي يصنعن منها أقمصة ذات أكمام قصيرة. وهن يهوين الاستحمام بشاطئ البحر، قرب سيدي عيسى؛ وبعضهن يجدن السباحة. كما أن وضعيتهن الأسرية لا تثير الحسد مثلما لا تثير الشفقة. فهي نفس الوضعية التي حددها القرآن في كل بلاد الإسلام، أي أنها مقبولة بشكل عام وذات ارتباط وثيق بنمط عيش المسلمين. وعلى أية حال، فإن المسلمات لا يشتكين من هذه الوضعية وليس هناك داع لتغيير وضع اجتماعي رغم ثغراته، ما دام يتضمن على مستويات عديدة جوانب أفضل من نظامنا. فبينما أصبحت الأسرة عندنا عرضة للتفكك، حيث يجر كل طرف الحبل إلى جهته، ولم يعد هناك تقريبا ، أي امتثال للسلطة الأبوية ما دام النموذج الفظ السائد هو العزوبة أو تحديد النسل، فإن العائلة المسلمة ظلت إلى حد الآن أبوية، مثلما كان عليه الأمر في الزمن التوراتي، أي قوية ومتحدة ومتراصة حول رئيسها المبجل الذي تعتبر مجرد إشارة منه، بمثابة أمر مطاع على الفور.

ولا تعتقدوا بأن المرأة لم تنشئ في الوسط الإسلامي وضعا أسمى من الوضع المحدد دينيا. وأستحضر هنا شهادة بعض المسلمين أنفسهم الذين أخاطبهم بالقول: " لماذا لا تصرحون أبدا بالحقيقة ؟ لماذا لا تعلنون عن ما هو حقيقي وما اكتشفته مرات عديدة، وأقصد السيادة المطلقة لزوجاتكم داخل المنزل؟ [39] لماذا تتركون كل هؤلاء الرعاع السفلة الجاهلين يتحدثون من وراء ظهوركم، وهم الذين لا يعرفون ولو كلمة واحدة بالعربية أو بالأمازيغية، ومع ذلك فهم

---

39 -) بما أنني أكتب من أجل النخبة، فهل من الضروري أن أوكد للعقول المثقفة التي تقرؤني، بأن هناك استثناءات لهذه القاعدة، وأنه يوجد لدى كل الأعراق وفي كل عائلات العالم، أزواج سيئون وزوجات سيئات جدا؟

يستمدون معلومات من مجتمعكم، من الأوغاد أصحاب الشاشية ومن ماسحي الأحذية في الساحات العمومية؟ "

ولست مطالبا بالبحث بعيدا عن أمثلة حول السلطة المطلقة التي تمارسها المسلمات على أزواجهن المتواضعين داخل المنزل والمتبجحين خارجه. لنأخذ إذا ما سمحتم، مثال الدرويش. فقد افتخر أمامي بكونه يسيطر بيد من حديد على الأرملة التي تزوجها بعد وصوله إلى وهران بفترة قصيرة وبواسطة بعض الأصدقاء. والحال ، أنني كنت شاهدا في العديد من المرات على وضع الدرويش المثير للشفقة، أمام زوجته الرهيبة التي كانت تأخذ منه كل مذخراته، فلسا فلسا، لتوزعها على أبنائها الثلاثة من زوجها الأول. وفي إحدى المرات، رأيتها تشد بخناق محمد بيدها المتشنجتين. فقد كانت ممسكة بتلابيب جلابته، طالبة منه فرنكين لشراء القهوة والسكر اللذين حرمت منهما منذ يومين على حد قولها. وكانت تكذب طبعا، لأن الدرويش كان يمدها بكل المال الذي يكسبه. أما داخل المنزل، فقد كان الأمر أفظع، إذ أن الأطفال الثلاثة العديمي التربية والمؤازرين من طرف أمهم ، لم يكونوا مطيعين لأوامر محمد الذين يعتبرونه مجرد دخيل عليهم. وفي أحد الأيام، رفع هذا الأخير يده لضرب أحد هؤلاء الأطفال الفظيعين، لكنه تراجع مرهوبا أمام أظافر الأم الموجهة صوب عينيه. ولأن البئيس كان يعلم بأنني مطلع على مصائبه الزوجية، فقد روى لي مشاكله وأخبرني بأنه قرر الهروب من وهران وترك هذه الأرملة المقيتة هناك.

ونظرا لأنني متمسك بإنهاء كتابي حول المغرب فلقد أسديت له خير نصيحة بقولي: " ألم تسمع أيها المغفل، قبل أن تقدم على زواجك الأخير (لأنه تزوج من قبل ثلاث أو أربع مرات)، بالحكمة العربية حول الأرملات والتي تقول:

توصيك لا تاخذ الهجالة ۞ ولـــو كـــان خدهـــا مشمـــوم
أنت تخدم خدمة الرجالة ۞ وهي تقول الله يرحم المرحوم "

ويمكنني أن أذكر بسهولة أسماء أخرى لأزواج مسلمين، خاضعين بالمطلق لزوجاتهم اللواتي يفعلن بهم ما يشأن . فمن خلال أسفاري إلى تونس وعبر أقاليمنا الجزائرية الثلاث، التقيت في العديد من الأحيان، عربا وأمازيغيين يحبون زوجاتهم ويحترمونهن بشكل كبير، حيث لا يتخذون أي قرار دون مشاورتهن، وهم مخلصون لهن ويعتنون بهن ويعلنون بصراحة لأصدقائهم الحميميين، بأنهم يفضلون زوجاتهم على أطفالهم. ونحن نعتقد عكس ذلك في أوروبا، لأنه لا أحد من بين المستعمرين رفع صوته لمواجهة هذا الخطأ. فلو تمكن الكتاب الأوروبيون

الذين وضعوا مؤلفات حول العرب والأمازيغ، دون إلمام بلغتهم ولا بعاداتهم، من الشك في الأخطاء الفظيعة التي ارتكبوها، لسارعوا بحرق النسخ المتبقية، المتداولة في المكتبات. وللأسف، فإن المستشرقين [40] قد سمحوا للجهلة بالسيطرة على هذا المجال المتعلق بالعادات العربية وعبثوا فيه كما أرادوا، بحيث لم يقف لهم بالمرصاد، أي معارض ولا أي ناقد متمكن، يظهر لهم خواءهم. ويزداد هذا الشر استفحالا كل يوم. فهؤلاء الأشخاص غير المسؤولين الذين شجعهم الصمت المتحجرف للمتخصصين، ينشجون باستمرار أخطائهم المغلفة بجمل جوفاء رنانة ومؤثرة . أما الجمهور الأوروبي الطيب، فإنه يبتلع هذه الجرعات حول المغرب والجزائر وتونس والمناطق الإسلامية الأخرى. وأنا أعلم، بأن النسيان سيطال هذا الركام من الترهات التي يتجاوز فيها الانتحال مع الأخطاء. وأنتم أيها الكتاب الأوروبيون الذين تريدون الحديث عن العرب والأمازيغ وعن بلادهم، بشكل دقيق، اتبعوا هذه النصيحة: تعلموا أولا لغتهم الصعبة بشكل لا يصدق؛ وبعد ذلك ، اكتبوا عنهم؛ وما ستنجزونه سيكون جيدا.

إن قبيلة بني سعيد تمتاز بتربية الماعز والأغنام والبغال التي تباع في الأسواق مقابل نقود فرنسية وإسبانية. ولا يطرح أي مشكل بخصوص هذه النقود، فهي تقبل على علاتها، سواء كانت قطعا فضية أو ذهبية، مثقوبة أو مزورة؛ المهم أنها تفضل على النقود المغربية. وتوفر الأجراف الموجودة على شاطئ البحر صخورا رحوية جيدة، يصنع منها الأهالي رحى، يصدرونها بعد ذلك إلى كل الساحل الريفي حتى نواحي تيطاون(تطوان). وتوجد مستودعات كبيرة لهذه الرحى بالمغارات الطبيعية لهذه الأجراف.

وداخل المنازل، تعتبر الدواجن ملكية للنساء. وهن يربين الدجاج فقط. أما البط والإوز والديك الرومي والحبيشة، فهي غير معروفة. وينطبق هذا الأمر على الريف برمته. ويجري الدجاج في كل مكان بفناء المنزل باحثا عن طعامه وسط فضلات المواشي. كما تستأثر ربة البيت بما تحصله من بيعها لمنتوجات هذه الدواجن وتشتري بذلك مواد زينتها (مشط، مرآة، خلخال، أساور، عطور).

وبالمنزل أيضا تربى القطط التي تملأ بطنها، ليس بالأطعمة اللذيذة التي لن يقدمها لها أحد أبدا، ولكن من خلال صيدها النشيط للفئران والسحليات والعصافير إلخ... وفي الريف برمته، خصوصا عند بني سعيد وتمسمان وقلعية، تقام بمناسبة الوعدة [41] أو حفلات الزواج، سهرات

---

[40] – أتكلم هنا عن أولئك الذين يعرفون اللغة العربية وآدابها. صحيح أنهم قليلون، لكنهم على قلتهم، متبحرون جدا في ميادينهم.

[41] – وهي حفلة إحسانية، تقام على شرف أولياء المنطقة.

ليلية، متبوعة بألعاب شبيهة بالفانتازيا ، لكنها تتم بدون جياد. فبعد عشاء فاخر مكون من اللحم المطبوخ بزيت تحرق الفم بسبب التوابل القوية الموجودة بها بكثرة، يختار النساء والأطفال والرجال والشيوخ مكانا ملائما خارج القرية، هو عبارة عن حقل للمناورة، يسمح للمتعاركين بالتحرك كما يشاؤون.

وسيجلس النساء والأطفال وعازفو الناي وقارعوا الطبلة، القرفصاء على خطين متوازيين، ووسط هذين الصفين ستوقد نار تضيء المشهد. وتبدأ النساء، الشابات والعجوزات، بإنشاد أشعار أمازيغية ترتجل في غالب الأحيان لهذه المناسبة. وتجيبها نغمات الناي وأصوات الطبول بضجيج يوقظ الميت من قبره كما يقال. وفجأة تتوقف الموسيقى ويرتجل الموسيقيون بدورهم أشعارا. وعندما ينتهون من آخر بيت، يستأنفون من جديد النفخ في قصباتهم والضرب بقوة على الطبول المصنوعة من جلد الحمير. وعند الفجر، يوزع " المسمن " و " التريد". وبعد هذه الوجبة الخفيفة يتهيأ المحاربون لمعركة وهمية، فيشكلون دائرة كبيرة وينسل عشرون رجلا من الجهتين، المتقابلتين للدائرة، عشرة من كل جهة، ويتقدمون باتجاه بعضهم البعض. وسيحدث الالتقاء في مركز الدائرة بالذات ، وهنا يرفع صوت صائحا: ! Aouith ithid ! Aouith ithid a ifrakh (احملوه.. احملوه.. أيها الأطفال) [42]. وستتبدد الكلمات الأخيرة وسط رشقات جماعية منبعثة من عشرين بندقية، صوبت فوهاتها نحو الأرض، مما سيؤدي إلى تطاير غبار كثيف. وفي الوقت الذي يرجع فيه المحاربون إلى أماكنهم، تتصاعد زغردات النساء الحادة وتقرع الطبول مساهمة في تحريك وجدان الحضور.

وستتقدم عشرون بندقية أخرى وسط الساحة لتقوم بنفس العملية بحيث سيستمر نفس المشهد حتى وسط النهار، باعثا لدى المتفرجين والفاعلين حماسا يصل إلى حد الهياج.

القرى الرئيسية ببني سعيد

- **تيفزوين** (الضفاف)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على المنحدر الشمالي لجبل بني سعيد وتوجد بها شجيرات التين الوحشي بوفرة.
- **سيدي حساين**، 100 منزل، على البحر الأبيض المتوسط؛
- **سيدي محمد واحضري**، خليج صغير، 100 منزل؛

---

[42] – المقصود بكلمة احملوه، هو البارود؛ وهو مذكر بلغة تامازيغت.

- سيدي عيسى، 50 منزلا، داخل الخليج، يؤمه الزوار بكثرة، وهناك قبر باسم سيدي عيسى موجود بمصلى صغيرة وسط القرية. ويخترق هذه الأخيرة جدول صغير هو واد سيدي عيسى الذي يلقي في البحر كمية قليلة من المياه.

- زقزاوا التحتانية (الخضراء التحتانية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل.

- زقزاوا الفوقانية (الخضراء الفوقانية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل بالشرق.

- بطيوا (القسمة)، (التسمية أمازيغية)، 20 منزلا، جنوب زقزاوا.

- سوق الاثنين، هو مكان شاسع غير مسكون ، تجتمع فيه كل يوم اثنين حشود هائلة. ويمر واد الكرت شرق السوق، مشكلا على مجرى مستقيم، حدودا طبيعية بين بني سعيد وقلعية.

وتوجد أكثر من 200 قرية على منحدري جبل بني سعيد.

القوى العسكرية: 12 ألفا من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 80 ألف نسمة. السهل شاسع، باستثناء جبل بني سعيد القليل الارتفاع. التعليم القرآني محدود. القبيلة مستقلة، لكنها تقبل مع ذلك تواجد ممثل للمخزن بزقزاوا ، نظرا لقربها من الاسبان المتواجدين بمليلية.

وهذا الشخص الذي لا يتوفر على أية سلطة، يمنح لنفسه مع ذلك، لقب قايد الذي لا جدوى من ورائه. وكان إسم هذا الشخص أثناء مرور الدرويش بزقزاوا، هو الحاج العربي الولشكي.

قبيلة بني بويحيي [43]

(التسمية عربية أمازيغية)

كانت ريح الشرقي تهب بقوة، مساهمة في ذبول الشيح فوق الرمال الحارقة للغاريت الشاسع، هذا الشيح الذي ينبت في مثل هذه الصحاري. وهناك رجل واحد تجرأ وغادر زقزاوا في جو كهذا تاركا البحر وراءه ليغوص في الجنوب بخطوات كبيرة. فهذا البئيس لن يكون عرضة للاعتداء، لأن أسماله بالية ورأسه عار ورجليه حافيتان. وكانت الشمس الإفريقية الحارقة ترسل أشعتها النارية على رأسه الحديدي. ومع ذلك، فقد ظل يتقدم إلى الأمام، غير آبه بنيران

---

[43] - بالنسبة لتامازيغت وكل اللهجات الأمازيغية الأخرى، فإن الألف المقصورة التي تنتهي بها أسماء الأعلام العربية، تتحول في الغالب إلى ياء، مثلا موسي بالنسبة لموسى ويحيي بالنسبة ليحيى.

السماء ولا باحتراق السهل. وعند حدود بني سعيد، قرب سوق الخميس، ستميز العين الثاقبة للدرويش من بعيد، حوالي عشر جياد تسابق الريح ورأسها إلى الأمام وتثير زوبعة رملية بسبب سرعتها الجنونية. وستتوقف هذه الجياد على بعد خطوات منه، بعد أن شد لجامها من طرف راكبيها. عندئذ خاطب شخص طويل القامة الدرويش، من فوق ركابه ومحركا عصا طويلة معقوفة، متحدثا تاماريغت:

- أهلا .. هل أنت من بني سعيد؟

- كلا، أنا من بني ولشك.

- إنك تكذب، فأنت من بني سعيد.

ولوح الشخص بعصاه المعقوفة، متظاهرا بطعن الجوال الذي لم يتوقف عن ترديد: " أنا لست سعيديا، أنا طالب جئت هنا للدراسة ". وسأله الرجل بعد أن توقف عن جس عنقه بعصاه:

- طيب، قل لنا، هل تنوي قبيلة بني سعيد مهاجمتنا قريبا؟

- طبعا لا، فأنتم تعرفون مثلي أن بني سعيد يخافونكم. فما الذي يمكن لهؤلاء الراجلين البؤساء أن يفعلوه أمام جيادكم؟

ولأن هؤلاء الفرسان لم يطمئنوا إلى تواجدهم بأعداد قليلة داخل أراضي العدو، فإنهم عادوا من حيث أتوا. وركب محمد وراء واحد من بين هؤلاء الفرسان قاطعي الطرق، ليعود الجميع إلى القرية الموجودة على مسافة قريبة، جنوب سوق الخميس. وللاحتفاء بوصول الجوال الذي ادعى بأنه عالم كبير، تم ذبح خروف وطبخه في العديد من القدور وأكله عن آخره. وسيقضي الرجال ليلتهم في العراء وهم يشربون الشاي ويتحدثون فيما بينهم. ولأن محمد بن الطيب كان قليل الكلام، فإنه كان يكتفي بالإنصات وبالملاحظة والتعلم وكان موضوع الحديث يتعلق بالغزوات وبالحملات الجريئة التي يشيب لسماعها شعر الصبيان.

وعند منتصف الليل خلد الجميع إلى النوم؛ وتم إدخال الدرويش إلى خيمة واسعة، قسمت إلى جزأين بواسطة العصى الطويلة التي تسندها. ففي جهة تنام الأسرة مجتمعة بصف طويل، سيشغل الدرويش أحد أطرافه، وفي جهة أخرى تتواجد الجياد التي كبلت أرجلها والجمال المقرفصة التي شدت أرجلها بشكالة من الصوف. وبالساحة التي تحيط بها مائة خيمة بالدوار، توجد الخراف والماعز والأبقار التي تجتر بهدوء تحت ضوء النجوم. وقد تتحرك أحيانا ببطء وبشكل جماعي أمام نباح حوالي مائة من الكلاب التي تغير من كل الجهات عند سماعها لأصوات بنات أوى العادة أو لأصوات الضباع المتميزة. لذلك تتعرض الخراف والماعز والأبقار لعضات الكلاب الباحثة عن مكان لها وسط القطيع، وتغزو الخيمة وتدوس وهي في حالة رعب على

الرحل النائمين. وبالرغم من هذه الجلبة، فإن الدرويش كان يستمر في شخيره مطمئنا، لأنه متعود على ما هو أصعب من ذلك.

وظل محمد يومين عند أصدقائه الجدد، ثم انطلق متجولا في البلاد، نائما في الدواوير، راكبا الحصان، مشاركا في غزوات جرينة بدافع الفضول، ممسكا كفارس غير محنك بعرف حصان الصحراء " شارب الريح" الذي يلتهم الفضاءات الشاسعة سريعا كالبرق ودون كلل. وكاستراتيجي جيد، فإن الدرويش أقام موقعه الرئيسي بالكرت، وهي زاوية مخصصة لسيدي محمد بن قدور، ومنها كان ينطلق نحو المناطق الأخرى ثم يعود إليها لاسترجاع قواه وأخذ قسم من الراحة في هذا المكان المضياف.

نوجد الآن بقبيلة بني بويحيي، وهي قبيلة كبيرة من الرحل توجد بجنوب قلعية. مساحتها 40 كيلومترا طولا وعرضا وتتضمن خمسة أقسام وهي: إخيانن (اللصوص) بالشمال، (التسمية عربية أمازيغية)، والغارت (الجافة) بالوسط (التسمية عربية) والتي تنقسم بدورها إلى قسمين وهما: الغارت وبني أحمد؛ الكرت (الحجر) (التسمية امازيغية)، ربع وادا (القسم السفلي) بالجنوب (التسمية عربية أمازيغية) .

ويجند كل قسم 5 آلاف فارس.

وإذا ما استثنينا جهة الغرب، حيث يوجد خط طويل من التلال يمتد من الشمال إلى الجنوب ويتحول بعض الشيء نحو الغرب، ابتداء من الوسط، حيث يسمى تارة جبل بني بويحيي وتارة جبل الكرت، فإن المنطقة برمتها هي عبارة عن سهل شاسع مكسي بالشيح والحلفة، يقطعه واد الكرت الذي يحمل قطرات من المياه إلى البحر البيض المتوسط، غرب قلعية. ويتوج جبل الكرت ببقايا غابة لم يبق منها إلا الأثر بفعل الحرائق والرعي وقطع الأشجار الذي يتم بدون حد ولا تعقل.

وقد غزت الحلفة المنحدرات الأولى للتلال. وتساهم هذه النبتة التي تحترق كل سنة، في تآكل الأشجار التي تشكل الواجهة الأمامية للغابات الموجودة بقمة الجبل. ويستعمل بني بويحيي الحلفة بطريقة أصيلة، حيث يصنعون منها خياما كبيرة ومتينة جدا. وهل من الضروري التذكير بأن الأحذية والحبال والحصائر وممسحات الأقدام والشباك والغربال المستخدم لطهي الكسكس، مصنوعة جميعها من الحلفة؟ لكن صحراء الغارت لا تتضمن الحلفة فقط. فهناك حقول صالحة لزراعة الشعير وحتى القمح. لكن الثروة الرئيسية للرحل تتمثل في مواشيهم. فتربية الأغنام والجياد تسمح لهم بتحصيل مكاسب هامة، إذ أن الصوف الأسود والأبيض المتميز بجودته، ورغم

ثمنه البخس (50 سنتيما فقط للجزة toison) هو بالنسبة إليهم مصدر ربح مؤكد أكثر من محاصيل الحبوب.

طبعا فإن الغارت، هذه الذراع الغربية للصحراء، قد جعلت ريفيي بني بويحيي رحلا. ورغم أن عاداتهم مغايرة لعادات إخوانهم بالشمال والغرب، إلا أنهم حافظوا على لهجة تامازيغت الخالصة تقريبا. وهم يرتدون أيضا الجلابة الرمادية في فترات الراحة، لكن ما أن يمتطوا جيادهم حتى يرتدوا الحايك الأخف والأقل مضايقة. ذلك أن الأكمام القصيرة والضيقة للجلابة تمنعهم من استعمال مخطافهم الخشبي بمهارتهم المعهودة. والمخطاف هو سلاح خطير، يمسك الرجل من عنقه أو ثيابه أو كيسه ويرفعه وقد حبست أنفاسه أمام خاطفه الجالس فوق سرج الحصان. وفضلا عن المخطاف الخطير، فإن الفارس مسلح بسيف ومسدس وبندقية. ويستعمل هذه الأخيرة ضد الغرباء الذين يريد القبض عليهم أو قتلهم. أما المخطاف فهو مخصص أساسا لأسر أهالي القبائل الأخرى، المتحاربة فيما بينها باستمرار.

ويركب الفرد من بني بويحيي حصانا مسرجا بشكل رائع على الطريقة العربية، وهو يبدو برأسه العاري ولحيته الكثة ورجليه وساقيه العاريين كمتوحش يتناقض مظهره مع الحلي الذهبية والفضية التي تزين اللجام والسرج. ويعشق متابعة الغزلان والنعام دون أمل في الإيقاع بها، بل للاستمتاع فقط بمسابقة الريح ودفع هذه الحيوانات المسالمة حتى البحر. ورغم كل المضايقات التي تتعرض لها من طرف الإنسان، فإنها ترجع إلى مأواها بالربوع الخالية المفضلة لديها.

وتبدو علامات النعمة على أهالي بني بويحيي ، وهو ما يمكن تلمسه من خلال ملابسهم الفاخرة والحلي الذهبية والفضية التي يتوفرون عليها. أما النساء فهن جميلات إلى حد ما، لا يتحجبن أبدا ولسن متزمتات. وهن يشاركن الرجال أحاديثهم كرفيقات ولا يتصنعن العفة بل إنهن يقدمن لأكثر من واحد، دروسا في الحكمة والحس السليم. لكن عيبهن الصغير الذي يشتركن فيه مع الرجال، هو عشقهن للشاي، وتحديدا للشاي المحلى بشكل يثير الغثيان. فبإمكان أربعة رجال وأربع نساء أن يرتشفوا في أمسية واحدة حوالي ثلاثين كأسا من الشاي لكل واحد، مستهلكين بذلك قالبا من السكر دفعة واحدة.

وتوجد بالقبيلة أربعة أسواق وهي: سوق الجمعة بقسم يخيان وسوق الإثنين بالكرت وسوق الثلاثاء بربع وادا وسوق الخميس.

وتباع البضائع هناك بأثمان بخسة، حيث تؤدى مبالغ زهيدة مقابل جبال من الصوف المجتز من ظهور أكباش قارت الضخمة.

ويتحالف بني بويحيي مع قبائل صحراء أنجاد. وحينما يتقرر القيام بغزوة من طرف القياد الخمسة أو الستة بالقبائل المتحالفة، فإن كل قسم يقدم العدد اللازم من الرجال، وكل من أحجم عن القيام بذلك، سيتعرض لذريعة من 100 إلى 150 فرنكا. وتوزع الغنيمة بين كل قبائل المشاركة في الحملة. وبطبيعة الحال فإن القياد يحظون ببعض الامتيازات أثناء عملية التوزيع.

القرى الرئيسية ببني بويحيي

- الكرت (الحجر)، 100 منزل؛
- سوق الخميس، 10 منازل؛
- سوق الجمعة، 20 منزلا.

القوى العسكرية: 25 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 125 ألف نسمة؛ الصحراء مكسوة بالحلفة والشيح. يتم تعلم القرآن بعض الشيء تحت الخيام. ويوجد بالقبيلة قطيع هائل من الأغنام.

قبيلة قلعية [44]

(تصغير لقلعة) ، (التسمية عربية أمازيغية)

انطلاقا من قرية الجمعة إلى الحدود الجنوبية لقلعية يمتد السهل دون وجود لأية شجرة ولا لأي دوار ولا لأي منزل. وفجأة تبرز تلال بني بويفرور العارية والمكونة لجدار ممتد من الشرق إلى الغرب سيجبر القارت (الغاريت) على التوجه يمينا نحو كبدانة وطريفة. وما أن يخترق واد كرت أراضي قلعية حتى تمتلئ ضفافه بالقرى. ولن يعود أمامنا ذلك الغدير الصغير بدون اسم، الذي كان يتفادى التسرب داخل الشقوق الجافة للقارت، فهو يجري الآن فوق أرض أقل جفافا، منتعشا بمياه الينابيع التي يلتقي بها في مجراه. وتتوالى الحقول المزروعة بدون انقطاع، متناوبة مع كتل الصبار وبساتين الخضر والفواكه التي تستمد حياتها من مياه النهر. ومثل الأرض ، فإن السكان سيتغيرون هم أيضا . ولن يعودوا شبيهين بسكان الصحراء.

---

[44] – لا تستطيع الحروف الفرنسية، نقل النطق الحقيقي لبعض الحروف العربية والأمازيغية، فكلمة قلعية مثلا، لا يستطيع الحلق غير المتمرس أن ينطقها كما يجب. فإذا كانت العين مألوفة لديكم ، انطقوها قلعية، وفي حالة العكس انطقوها قلايعة Guelaia.

إن القلعيين الأشداء الذين ما زالت طبيعتهم أقرب إلى التوحش يعتبرون مع ذلك أناسا مهذبين نسبيا، بحيث يتولون الصدارة في الريف برمته على المستوى التسامح الديني وعلى مستوى الحضاري. ولأنهم أتوا مرارا إلى الجزائر، وخصوصا إلى محافظة وهران، فإنهم لاحظوا كيف أن النصارى، وتحديدا الفرنسيين، يتوفرون على مزايا ليست لديهم، وهم يعترفون بذلك صراحة. كما أن القرب من مليلية جعلهم واعين بأن النصارى ليسوا، كما يعتقد الريفيون الآخرون، أناسا لا أهمية لهم. ومع ذلك فلديهم قناعة بأنه لا توجد في الدنيا أية قوة قادرة على مواجهتهم في إقليمهم الصغير. وسيكون هذا الاعتزاز بالنفس، المبالغ فيه إلى حد اللامعقول، سببا في ضياعهم. فهم سيتعنتون في رفض مساعدة جيرانهم ضد الاسبان الذين كانوا في نزاع مستمر معهم ؛ بل سيعتبرون بأنه لو توفرت لهم بعض السفن لكانوا قد احتلوا إسبانيا. ويبدو أن جهل الريفي يتجاوز هنا كل الحدود الممكنة. فكل الريفيين يقولون لي بأن دول النصارى تؤدي الجزية لسلطان القسطنطينية. وهم يشاطرون في ذلك ، رأي كل مسلمي العلم. والأمر الطريف لديهم هو تأكيدهم على أن فرنسا غير قادرة على إخضاع الريف. وهذا شرف تحظى به فرنسا دون غيرها من القوى الأوروبية. وبالفعل، فهم يزعمون بأن قبيلتين أو ثلاث قبائل ريفية، تكفي لهزم إنجلترا أو ألمانيا شر هزيمة !

وقد لاحظت مرارا كيف أن القلعيين يأخذون عنا كل مساوئنا ويتركون جانبا مزايانا. فبعد أشهر من الإقامة عند المعمرين الفرنسيين بالجزائر، يستهويهم الخمر فيشربونه حتى الثمالة وينغمسون في الملذات ويتفننون في ذلك ككل المسلمين غير الورعين. فالصلاة والصيام وكل الممارسات والمواعظ الأخلاقية الجميلة الصادرة عن القرآن، تصبح موضوعات لسخرية دائمة من طرف هؤلاء الأشخاص ذوي النفوس القوية.

لكن حذاري من هذا المسلم المنحرف! فمع تقدمه في العمر، يتعقل ويريد التوبة والتكفير عن الآثام والذنوب التي ارتكبها وخالف بها دينه. فما الذي يمكنه فعله لتهدئة الله تعالى؟ ما هو القربان الذي يمكنه أن يقدمه كتكفير عن آثامه؟ ليس هناك ما هو أفضل بالنسبة لهذا الإله الغيور من الدم القاني للرومي الذي سيسيل ساخنا تحت سيف المذنب التائب الذي تحول بفعل الظروف إلى حَبر مكلف بالأضاحي. فالمسلم الذي لا يلتزم بتعاليم دينه هو إنسان خطير وحقير، يلزم الاحتياط منه. غير أن مواطنينا غالبا ما ينسون هذه الحقيقة، معتقدين أن المسلم الذي يشاركنا رذائلنا هو أفضل من المسلم الذي يتبع تعاليم القرآن. وهذا خطأ كبير وشنيع، بل يمكن اعتباره سببا في كل الخيانات والاغتيالات التي تعرض لها مستوطنونا غير المجربين، منذ احتلال الجزائر.

إن محمد بن الطيب بذكائه العملي وأنانيته الصائبة، لم يصادق أي شخص في المغرب، فقد كان يعلم بأن المسلمين الورعين سيحتاطون منه مثلما يحتاطون من أي مسلم غريب. كما كان يعلم بأن عليه التهيب من المسلمين غير الورعين. لذلك لم يرتبط بأي كان ، بما في ذلك المرأتين أو الثلاث نساء اللواتي تزوجهن صدفة وطلقهن أو تخلى عنهن بنفس اللامبالاة، منصتا لنداء التجوال الفتان.

وسنجده الآن على ضفاف واد الكرت، حيث غادر بني بويحيي، متوجها نحو الشمال خلال النهار ومتوقفا بالقرى المحاذية للنهر أثناء الليل. وسيصل إلى أسامر، وهي قرية كبيرة تضم 300 منزل من طابق واحد، توجد قرب البحر على سهل رملي شاسع حيث ينمو الشعير والقمح والتين الوحشي. وكان بعض الرجال جالسين بباب المسجد، مرتدين الجلابة السوداء واضعين بنادقهم بين أرجلهم ويتناقشون في أمورهم بتامازيغت مختلفة بعض الشيء عن تمازيغت سكان الريف الأوسط. ولم ينتبه أحد إلى الدرويش الذي سيمر أمام المجموعة متمتما بسرعة عبارة : " السلام عليكم " ليدخل إلى المسجد حيث وجد هناك حوالي عشرين شابا، بعضهم يتلو آيات قرآنية بصوت عال والبعض الآخر يخيط قمصانا أو يرقع جوارب أو يرتق جلابة. والملاحظ، أن مهنة الخياطة في القرى المغربية وفي الريف، محتكرة من طرف الطلبة. وهو عمل جميل ينضاف إلى مهام أخرى ، كحضور الجنازات وصنع الأحجبة. ولا يكتفي ساكن القرية بإطعام الطالب وإيوائه وتزويده باللباس، بل يكلفه بكل أعمال الخياطة التي يحتاج إليها أفراد الأسرة ويمنحه أجرا وبعض الهدايا مقابل ذلك.

وينتمي كل الطلبة الخياطين بقلعية، إلى قبيلة غمارة الجبلية؛ وبالمقابل فإن الطلبة القلعيين لا يمارسون هذه المهنة، بل إنهم يتدربون، خارج ساعات الدراسة، على الرماية أو يساعدون آباءهم في أشغال الحقول.

وطبعا، فإن الدرويش سيستقبل من طرف الطلبة المهتمين فقط بمعرفة القبيلة التي سيملؤون فيها بطونهم بشكل جيد. وسيقدم العشاء المكون من البيصار والسمك والبيض المسلوق والزبدة والعدس. ويستحق خبز الشعير وحده، وقفة خاصة بسبب حجمه الذي يساوي ذراعا، طولا وعرضا، والذي يسميه القلعيون أنيكول Aneggoul . وهو يؤكل بالبيض المطبوخ بالزيت والثوم الذي يضاف إليه الفلفل النيء. وفي كل منزل يستهلك الشاي الشديد الحلاوة بكثرة ويرتشف الطلبة في المساجد كمية كبيرة منه.

وبعد استراحة دامت يومين أو ثلاثة، غادر الدرويش أسامر متجولا عبر القرى التي يقضي بها لياليه ومكتشفا بأناة، هذه القبيلة الهائجة والراغبة في رمي كل إسباني مليلية في البحر.

وتمتد قلعية على مسافة 20 كيلومتر من الشمال إلى الجنوب و 40 كيلومترا من الشرق إلى الغرب. وتحتوي على سبعة أقسام وهي: بني شيكر (أبناء الشكر)، (التسمية عربية أمازيغية)، فرخانة (الصخر)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني بوغمرن (أبناء أصحاب المرافق)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني بوغافر (أبناء العقيم) ،(التسمية عربية أمازيغية)، بني سيدال(أبناء الحواجز) (التسمية عربية أمازيغية)، بني بويفرور(أبناء صاحب الخراف والجداء (تحوير للكلمة العربية فرور)، مزوجا (قمة الجبل الممتدة) (التسمية عربية أمازيغية).

ويعتبر قسم بني شيكر من أكبر الأقسام مساحة وأكثرها سكانا. كما أن الأراضي في هذا القسم، أكثر خصوبة وأشجارا وأفضل سقيا. ويساهم واد بني شيكر الذي يصب في البحر قرب مليلية تحت اسم واد فرخانة، في الحفاظ على الخضرة القليلة الموجودة بهذه الأرض الصخرية المجدبة إلى حد ما ، وذلك بفضل المنابع المائية التي تغذي مجراه. وتعتبر مزوجا بدون منازع، الفرع الشمالي الأخير للقارت (الغاريت) الذي سيمتد عبره خط من الأراضي القاحلة والعارية، باتجاه الغرب حتى البحيرة المالحة لبوعرك. وإذا ما استثنينا بني شيكر الذين نجد لديهم بعض الغابات الصغيرة المتوجة لقمم وجنبات الجبال، فإن الأقسام الأخرى محرومة من الخضرة، إذ أن تلالها جرداء متآكلة بفعل مياه المطر ومتكلسة بتأثير أشعة الشمس الحارقة. وحدها شجيرة التين الوحشي تقاوم بنجاح الأرض القاحلة والحرارة الملتهبة للشمس. وهي توجد في كل مكان، حول المنازل والقرى، حيث تنمو في أماكن لا يصلها الإنسان، وتقدم للجميع وخصوصا للفقراء، فاكهتها الحمراء الحلوة والشائكة. ففي كل المناطق الفقيرة بشمال إفريقيا، نجد عائلات بأكملها تستسلم للكسل وتتحدى الجوع، مالئة بطونها على مدى شهور عديدة بالتين الوحشي. غير أن المحتلون من كل الأزمنة والأمكنة لم يحترموا قوت الفقير هذا، إذ أن الضرورات المزعومة للدفاع وللهجوم، أدت إلى مسح غابات كاملة من الصبار. وهذه كارثة لا تعوض وخطأ سياسي شنيع وقسوة مجانية، تجعل غالبية السكان الجائعين، يشعرون لمدة طويلة، بالحقد تجاه الفاتحين.

ويفضل القلعيون بناء مساكنهم فوق الأماكن العالية، لكي يطلوا على الأراضي المحيطة بهم. وتتضمن أغلب التلال قرى عديدة، منها ما هو معلق بقممها ومنها ما هو موجود بمنحدراتها. ولا تتوفر المساجد على صوامع، وهي تتميز عن المنازل بالعلم الأبيض المرفرف فوق عمود تم تثبيته وسط ساحة بيت الله.

إن مجاورة أراضي قلعية للغاريت، أدت إلى عدم خصوبتها. وكلما سنحت الفرصة لأمازيغيي المنطقة بتحدي هذا الوحش الصحراوي الذي يبتلع كل شيء، فإنهم يقومون بذلك. لهذا، فإن المرء يندهش عند رؤية حقول الشعير وبساتين الخضر، فوق أراضي كانت منذ قرون خلت ، عبارة عن صحاري ، ولربما كانت مغمورة بمياه البحر الأبيض المتوسط.

وبالفعل، فإن شيوخ قلعية يقدمون تفسيرا لتكون الأراضي المنبسطة التي تحيط بجبالهم من مصب واد الكرت إلى مرسى مزوجا، جاعلة الأماكن العالية في الوسط. فهم يحكون بأنه في الأزمان السحيقة، كان البحر يغمر كل السهول، مستثنيا قمم جبال الوسط التي كانت عبارة عن جزر متناثرة وسط المياه. وكان الإسبان قد سيطروا في هذا الزمن السحيق على هذه الجزر قبل مجيء الريفيين أنفسهم. ثم بعد ذلك، انحسرت مياه البحر إلى حدود مليلية تاركة وراءها، على السهل، أرضا مالحة عند سفح جبل بني شيكر. هكذا ستتشكل حفرة، هي بحيرة بوعرق المسماة أيضا بحر مزوجا أو سبخة بوغمرن (بحيرة بوغمرن المالحة). ولا يمكنها أن تفرغ من مياهها الآن، لأن أعماقها توجد تحت مستوى البحر. وفي القديم، كانت هناك مساحة أرضية شاسعة، هي بمثابة معبر، تفصل البحيرة عن البحر. وقد استقرت فوقها عائلات بأكملها، منها، من يسكن تحت الخيام، ومنها من يعيش داخل المنازل بقرى صغيرة. وكان الجميع يشتغل بمنشآت الملح الذي يصدر ويباع إلى القبائل الريفية الأخرى؛ كما كان الجميع يمارس الصيد في مياه البحيرة المليئة بالسمك. ولم ينتبه أحد إلى أن البحر يفوق تدريجيا تلك الأرض المتواجدة بين البحيرة والبحر.

وفي إحدى الليالي، وكان ذلك منذ خمس أو ست سنوات ، وقع أول اقتحام لمياه البحر، تحت بروق ورعود العاصفة. فقد اندفع البحر بأمواجه العاتية صوب الأرض المحاصرة بينه وبين البحيرة، مما أدخل الرعب في قلوب هؤلاء المساكين المشتغلين بالملح وجرفت المياه الرجال والنساء والأطفال والمواشي، مثل قشات من العشب واقتلعت الخيام وتلاعبت بها فوق الموج، حيث انتشرت كأحزمة من الصوف الأسود أو كجداريات قاتمة فوق هذه المنصات المتحركة. وقد غرقت من جراء ذلك ثلاثة دواوير كانت هي الأقرب إلى البحر. وظل منسوب المياه يتصاعد مدة أربعة أيام وليالي مما أدى بالأمواج إلى اقتحام البحيرة التي سيرتفع منسوب مياهها فجأة بعدة أمتار، مدمرة كل ما يوجد على ضفافها من مساكن ومنشآت للملح.

هكذا، ستختفي الأرض التي كانت موجودة بين البحيرة والبحر وستظل تحت الماء مدة سنتين. لكن، منذ حوالي ثلاث أو أربع سنوات، بدأت هذه الأرض تظهر من جديد، بفعل تراجع البحر. وقد أصبح المكان صالحا الآن للمرور وعادت قوافل كبدانة وطريفة إلى استعمال طريق مليلية القديمة التي تجنبهم القيام بدورة كبيرة حول السبخة . ومثل كل الأسماء العربية والأمازيغية

بالمغرب، فإن اسم هذه الأخيرة قد شوه من طرف الأوروبيين. ولهذا قدمت أعلاه، التسميات الثلاث التي اشتهرت بها البحيرة. وأشهرها هي سبخة بوعرف لأن الملح يحيط بها من كل جانب.

وقد حصلت للدرويش مغامرة صغيرة بالمعبر الضيق الذي يفصل البحر الأبيض المتوسط عن بحيرة بوعرف، إذ كان متجها نحو سوق الأحد بمزوجا رفقة طالب من قلعية؛ وكانا قد غادرا فرخانة معا، ويسيران بطمأنينة على شاطئ البحر. وعند نقطة يلتقي فيها هذا الأخير مع البحيرة تقريبا، وجدا رجلا ممددا على بطنه. وكانت جلابته نظيفة وحول عنقه كانت هناك مسبحة وبحزامه جعبة مليئة بالخرطوش وبالقرب منه بندقيته. وكانت كل المظاهر تشير إلى أن الرجل نائم أو أنه تعرض لضربة شمس. ولأنهما كانا ككل المغاربة، حذرين من هذا الغريب فإنهما اختبآ بحفرة موجودة على تل، وشرعا في مخاطبة الشخص من بعيد. لكنهما لم يتلقيا أي جواب ولم تصدر عن الرجل أية حركة. لذلك، سيقتربان منه وسيناديانه بصوت عال بل وسيجرآن على رميه بالحصى، حيث أصابا الهدف مرتين أو ثلاث مرات ، لكن الأمازيغي لم يحرك ساكنا. ومن المؤكد أن الرجل كان ميتا. وهذا من حسن حظ الطالبين. فهناك بندقية ولباس ولربما ذهب أيضا..وكان من اللازم الاقتراب من الرجل للتاكد من كل ذلك. ولأن الدرويش غير جريء بطبعه، فقد تقدم مرتعدا وهو يمشي فوق الرمال الملطخة بالدماء وشارك صديقه في تفتيش الميت وسيتم فحص كل المخابيء المعروفة لدى الريفيين، من قلنسوة وغطاء رأس وأحذية؛ لكنهما لم يجدا ولو سنتيما واحدا. ولربما سبقهم آخرون وقاموا بنفس العملية التي يقومان بها الآن. ولأن القلعي لم يجد مالا فقد قرر نزع ملابس الميت. غير أن الدرويش اعترض على ذلك، مستنكرا كيف سمحت له نفسه بتجريد ميت من ملابسه. فالأمر لا يطاق ! وإذا كان من الجائز أخذ البندقية والخراطيش، فإنه لا يجوز مس باقي الأشياء. وعندما بادر بحمل البندقية الجيدة من صنع إسباني، وفي الوقت الذي كان فيه مرافقه يقلب الجثة لفك حزام الخراطيش، سمعا أصواتا آتية من بعيد ؛ فتركا كل شيء ملتفتين صوب مصدر الصوت. وكان هناك حوالي عشرين رجلا قادمين من الشرق لربما من كبدانة ، وكانوا يمشون بمحاذاة الشاطئ ويتحدثون بحماس ممسكين بنادقهم بحذر. ولأن الدرويش ورفيقه المرعوبين معا، اعتقدا بأن هؤلاء الأشخاص سيتهمونهما بقتل الرجل، فقد ظلا واقفين بدون حراك، متخذين وضعية ذليلة، في انتظار ما سيحدث. واقترب الأشخاص منهما، وبنظرة سريعة أدركوا بأن الرجلين طالبان مسالمان. هكذا، سيسلمون عليهما وسيبادر محمد والقلعي بالإجابة بأدب على الأسئلة المطروحة، مع المبالغة في إظهار علامات الاحترام. بيد أن الأشخاص الغرباء لم يعيروا ذلك أي اهتمام واتجهوا صوب الجثة التي تعرفوا

عليها، صائحين بغضب: " لقد اغتال القلعيون ابن قبيلتنا حدو. لكن سيرون ! إنهم يريدون منعنا من الوصول إلى مليلية، حسنا! إننا نعرف ما سنفعله! " وإثر ذلك، رفعوا حدو المسكين، كاشفين عن صدره الذي اخترقه الرصاص ومزقه من كل الجهات. ورددوا بحزن: " أيها التعيس، ألم تجد بيننا ولو شخصا واحدا يرافقك في الطريق، عندما ذهبت وحدك ليلا، عابرا أرض الأعداء؟ وها نحن الآن عرضة لسخرية كل أوغاد قلعية ".

وحملوا الجثة على ظهر البغلة التي جلبوها معهم. وبعد أن ربطوها جيدا بحبال الحلفة وأخذوا بندقية الميت، خاطبوا الطالبين قائلين: " نحن من كبدانة، رافقونا لتقرؤوا بعض الآيات القرآنية على أخينا المسكين، أثناء السير". غير أن محمدا ومرافقه سيعتذران، مبررين موقفهما بضرورة التحاقهما دون تأخر، بسوق الأحد بمزوجا. وذهب الكبدانيون إلى حال سبيلهم، اما الصديقان فتنفسا الصعداء واستمرا في السير بمحاذاة البحيرة، فرحين بأن ما أصابهما من هذه المغامرة، هو شيء من الخوف فقط.

إن بحيرة بوعرف هي عبارة عن طبقة مائية طولها 12 كيلومترا وعرضها 7 أو 8 كيلومتر. والشاطئ من حولها عار، حيث تكتشف العين شطا شاسعا منحدرا بعض الشيء، رماله ذهبية ولامعة، ذات انعكاس معدني. وقد تمكنت بعض النباتات القصيرة والأدغال الصغيرة ونبتة المستنقعات بتثبيت جذورها في هذا " الدقيق " الأصفر الذي تحركه أدنى هبة ريح. وتوجد به آلاف المحارات والقواقع الوحيدة الصمام الملتفة بشكل حلزوني والممتزجة بالزبد (Os de seiche ou sepia) . وكلها شاهدة على الغزو الأخير لمياه البحر. والسبخة عميقة في الوسط وأحيانا ما تقوم العواصف برفع أمواج قصيرة ترتطم بالشاطئ. كما أن رياح الشتاء تدفع مياه المتوسط في بعض الجهات، لتصل إلى البحيرة، مانعة بذلك كل حركة على المعبر المتواجد بينهما. وفي أقصى جنوب بوعرف توجد كتلة هائلة من الملح الخام في حجم جبل، تمنح ثروتها لكل من يريد أن يستغلها. وقد أثارتني هذه البحيرة وما زالت تثيرني إلى حد الآن، وساءلت بشأنها كل القلعيين الذين رأوها والذين كان بإمكانهم إعطائي معلومات حولها. وإذا ما كانت افتراضاتهم صحيحة، فإنه لا أحد غامر سباحة أو على ظهر مركب، فوق مياه بوعرف النائمة والتي وإن كانت غير عميقة قرب الشاطئ، إلا أنها تشكل في الوسط حوضا يصل عمقه ما بين 15 و 20 مترا.[45]

---

[45] – إن الحديث المؤلم الذي رواه لي شاهد عيان قلعي هذه الأيام، هو خير برهان على عمق السبخة. ففي حرب مليلية الأخيرة وجد فارس إسباني نفسه معزولا عن كتيبته ومحاصرا من طرف الأمازيغيين قبالة البحيرة. ولأنه لم يجد أي منفذ عدا السطح الهادئ لبوعرق، فإنه اندفع باتجاهه معتقدا بأن مياهه ليست عميقة.

ويمكن لقرب البحيرة من البحر أن يجعل منها مستقبلا ميناءا طبيعيا رائعا أو بيزرت أخرى، لكنها أكبر بخمسين مرة من الميناء الجزائري، حيث يمكنها أن تكون مرسى آمنة لمئات السفن الكبيرة.

وقد اعتبر محمد ومرافقه بأنه من الحكمة عدم الاقتراب من كبدانة، لذلك طافا حول السبخة وقررا قضاء الليل بسوق الجمعة في أقصى الشمال الغربي من بوعرف. ويسمى هذا السوق تارة: سوق مزوجا وتارة أخرى سوق الجمعة. وهو مركز هام للمعاملات التجارية يقع بالسهل قرب البحيرة وسط القبيلة إن صح التعبير. ويوجد السوق خارج القرية، ويمكن التعرف عليه بفضل قبة صغيرة تحمي خزرة بئر margelle . ويأتي آلاف الريفيين إلى سوق الجمعة من مناطق نائية أحيانا، حاملين منتوجاتهم معهم. كما تكثر البضائع الإسبانية التي تم جلبها من مليلية، مثل السكر والشاي والخرطوشات والبنادق والبارود والشموع والمصابيح الغازية (يسمي الريفيون البترول بالغاز ويستخدمونه للإنارة) والسكاكين والكؤوس والقنينات. أما منتوجات البلد فهي تبرز من خلال ركام هائل من الألبسة الجديدة أو القديمة المعروضة للبيع وجبال من الصوف والعديد من الأغنام والأبقار والحمير والبغال والقليل من الجياد. وبالمقابل، يعرض الكثير من الخضر والتين والزيت والزبيب والقطاني والحبوب. كما يقدم الجزارون بالهواء الطلق، شرائح من لحم البقر والغنم، محمولة على ثلاث عصي مشدودة من فوق بحبل ومثبتة على الأرض. وعلى عكس ما هو مألوف في قبائل الريف الأخرى، فإن النساء القلعيات يتجولن بحرية في الأسواق ويتاجرن ويشترين ما يحتجن إليه ويتجولن سافرات الوجوه بمشية حازمة. وهن يحتكرن بيع البيض والدجاج والطاسات المصنوعة من الطين (الزلايف) - وهذه صناعة محلية - وصحون الخزف المستوردة من إسبانيا والقدور والمواقد الطينية المصنوعة بالقبيلة. ويضع تجار الأثواب والأدوية معروضاتهم تحت خيام من الكتان أو بداخل بيوت صغيرة مبنية بالحجر اليابس. وتحيط هذه الخيام والبيوت الصغيرة بالسوق مكونة دائرة شبه كاملة.

وسيقف الريفيون مشدوهين لمتابعة المأساة التي ستقع أمام أعينهم، غير مصممين على إنهاء عذاب هذا الرجل برصاصة الرحمة وهو الذي سيموت بعد قليل. ولأن الإسباني اعتقد بأنه تخلص من أعدائه الرهيبين فإنه استمر في دفع جواده إلى الأمام، علما بأن الماء وصل إلى السرج مما أدى إلى وقوع الحصان. وهنا برز للعيان منظر مؤثر. فبينما كان الفارس المدجج بالسلاح يتشبث بقوة بعرف الحصان، تلاقيا للغرق في البالوعة، كان الحيوان يختفي داخل المياه بفعل الحمل الثقيل، ومعه الفارس. وكان الأمازيغيون واجمين ومنفعلين وقلقين أمام رعب المشهد، مترقبين الحل النهائي. وبعد ثوان معدودة ظهر الفريقان. وبرز الفارس وهو يحيط رقبة الحصان في عناق يائس. ثم غرقت الكتلة من جديد ، تاركة على سطح المياه بعض التموجات التي وصلت على الشاطئ قرب أرجل الريفيين الصامتين. وبعد يومين، ستلقي البحيرة بالجثتين على رمال الشاطئ. وكان الفارس ما يزال متشبثا برقبة حصانه.

ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمة كل هذه المنتوجات من خلال الأثمنة التالية: دجاجة: 50 سنتيما، البيض: فلس للبيضة الواحدة، وهذا الثمن باهظ إلى حد ما، نظرا لتواجد فرسان المخزن واليهود الذين يستهلكونه بكثرة. خروف جيد: 5 فرنكات؛ بقرة حلوب جيدة: 50 فرنكا؛ بندقية إسبانية 50 فرنكا، قالب السكر من أربعة أرطال : فرنك وخمسون سنتيما. وإجمالا فإن الأثمنة تعتبر أكثر ارتفاعا مما هو عليه الشأن في قبائل الريف الأخرى. ولعل السبب في هذا الغلاء غير المألوف، يرجع إلى وجود الجمارك السلطانية قرب مليلية وإلى بيع المنتوجات سريا إلى الإسبان وتواجد المشاة المخزنيين بحامية سلوان والذين يأتون بانتظام للتبضع من سوق مزوجا. وليس هناك مكان أفضل من سوق الجمعة لملاحظة ممثلي الجنسين من القبيلة. فالرجل يرتدي جلابة ذات خطوط بيضاء وسوداء في فصل الشتاء ويحلق رأسه عن آخره ويغطيه كلية تقريبا بـ" شاشية " حمراء، تحيط بها من القاعدة عمامة قطنية. وفي الصيف يعوض الحايك الجلابة. إن القلعي يتجول طيلة اليوم، حافي القدمين، متوشحا ببندقيته وقد وضع جعبة الخرطوشات حول حزامه؛ ويتجاذب أطراف الحديث بكثرة مع الآخرين ويشرب الشاي ولا يشتري إلا الشيء القليل. كما أنه يستطلع الأخبار من إخوانه في الملة، القادمين من القبائل الأخرى أو من الجزائر أو من إسبانيا.

اما المرأة، فإنها ترتدي ملابس كثيفة من الصوف وتمشي عارية الرأس حيث يسمع رنين خلاخلها وأساورها. ويبرز على صدرها عقدان أو ثلاث وقد تم تزيينهما بنقود فضية أو نحاسية. وللأسف، لا نرى سوى النساء اللواتي تقدم بهن العمر واللواتي لم يعد جمالهن الذابل يثير الرغبات. أما النساء الجميلات جدا، فيمكثن في المنزل حبيسات جدرانه، بنفس الصرامة التي تحبس بها المسلمات في المدن الجزائرية.

وكان موضوع الحديث الرئيسي ذلك اليوم في السوق، هو قتل الكبداني الذي وجده الدرويش بمعبر بوعرف. فقد كان هذا التعيس قادما من مليلية التي غادرها ومعه خمسة بغال محملة بالبنادق الإسبانية والخرطوشات والسكر والشاي والبترول (الغاز). وقد اعتقد بأن أحدا لن يراه إذا ما سافر ليلا. لكنه كان متبوعا بخمسة قطاع طرق من قلعية، أوقفوه بأضيق مكان بالمعبر قائلين:

- اترك لنا البغال وانج بجلدك وإلا قتلناك.

- وأجابهم الكبداني وهو يسند البندقية على كتفه: كلا، وسأقتلكم أو ألقى حتفي.

وشرع في إطلاق النار لكنه لم يصب أحد منهم؛ فما كان على اللصوص إلا أن يصعقوه على الفور وأخذوا معهم البغال تاركين ضحيتهم قرب بندقيته التي لم يحملوها معهم، خشية افتضاح أمرهم بسبب العلامات الخاصة التي يضعها أمازيغيو الريف على أسلحتهم.

وقد عرف الجناة تقريبا. لكن لم يفكر أحدا في إلقاء القبض عليهم، بما في ذلك القايد نفسه. أولسنا في بلد الخيرات الذي ينهشه القتلة واللصوص والأوغاد؟ ففي الأسواق السبعة لقلعية يصيح " البراحون " على الدوام: " ليحظ التجار الغرباء والمتعاملون معنا بالسلام والأمن"؛ وهي المعاملة المتبعة في كل المراكز التجارية بالمغرب، وإن كان كل واحد يفهم هذا الالتزام المزعوم بطريقته. من جهة أخرى، سيعلن " البراح" بأن عقوبات قاسية ستطبق على الإخوة المزيفين الذين قد يغريهم بيع الحبوب والقطاني لإسبانيي مليلية.

وبشكل عام، يتم الالتزام بهذه التوصية، لأن الحقد الدفين تجاه " الرومي" والخوف من التعذيب الوحشي الذي تؤدي إليه خيانة من هذا النوع، يدعوان كل من يريد إعطاء الأولوية لمصلحته على حب الوطن، إلى التفكير قبل الإقدام على فعلته.

وتتوزع أسواق قلعية على الشكل التالي:

1 – سوق الجمعة بمزوجا؛

2 – سوق الأحد بمزوجا وبزغنة؛

3 – سوق الخميس ببني بويفرر؛

4 – سوق الثلاثاء ببني بوغافر؛

5 و 6 – سوق الثلاثاء وسوق الأربعاء ببني شيكر وسط القبيلة؛

7 – سوق الإثنين بفرخانة، غير بعيد عن مليلية.

وهذه هي القبيلة الوحيدة بالريف التي قبلت وجود الجنود المخزنيين؛ حيث يسكن فرسان الـگوم ووكلاء الجمارك السلطانية، بدار المخزن قبالة مليلية. ومهمة رئيس الفرقة المخزنية ليست إدارية، بل تتمثل في منع الأمازيغيين من مهاجمة الإسبانيين. ويعمل القياد المدنيون المعينون من طرف السلطان على اقتطاع الضرائب وخصوصا ضريبة الحرب، من القلعيين المساكين الذين ترهق جيوبهم، كلما قاموا بهجوم على مليلية. ولا توجد بالقبيلة سلطة قضائية ولا إدارية؛ بل يسمح للريفيين بالاقتتال فيما بينهم وبضرب بعضهم بعضا وبالسرقة، فذاك شأنهم، المهم ألا يهاجموا السجن القشتالي. وذلك ما يطلبه السلطان الذي كان يريد العيش بسلام مع إسبانيا.

وهناك حوالي 500 فارس نظامي كومي بقصبة فرخانة وألف من المشاة بقصبة بوعرق المسماة أيضا قصبة سلوان. وهؤلاء الجنود الحفاة بملابس مرقعة، ليس لهم أي عمل؛ فهم لا يقومون بمناورات أو بتداريب، بل يقضون أوقاتهم في رتق أسمالهم؛ ولا يتحركون إلا لنهب الأهالي أو لتنفيذ أوامر رؤسائهم وأوامر الخواص الذين يرشونهم. وكجنود عنيفين فإنهم يتربصون بالشخص العابر الذي يعتقدون بأنه يحمل الذهب. وبعد نهبه، يقتسمون الغنيمة مع قائد الحامية وأركان جيشه. وقد كرر القلعيون على مسامعي في كثير من الأحيان، بأن جنود السلطان هم سبب البلاء الذي يحصل بقبيلتهم. فهؤلاء الجنود يعيشون بالبلد ويقتطعون كل سنة، جزءا كبيرا من المحاصيل الزراعية ومن المواشي. ورغم جشع موظفي الضرائب والجيش، فإن الغنى النسبي لبعض الأسر، يسمح لها بالبقاء بالبلد وعدم الذهاب إلى وهران بحثا عن عمل. ومع ذلك، فإن غالبية الأسر تبعث إلينا بفرد أو فردين منها للاشتغال حيث يرجع هؤلاء العمال إلى منازلهم وقد كسبوا قدرا هاما من المال، يكفي للسماح لهم بالعيش عدة شهور دون أن يفعلوا شيئا.

وإذا ما كان الإسباني ممقوتا، فإن السلطان ليس أحسن حالا منه، لأن أجداده متهمون ببيع سجون الشاطئ الريفي للنصارى. وتحكي الأسطورة أنه منذ قرون خلت، وعندما سلم الإمبراطور الخائن مدينة مليلية إلى الكفار، انسحب سكان القرى الخمس الواقعة في محيط المدينة، أمام الوافدين الجدد؛ بل إن أهالي قريتين من هاته القرى سيحنقون على السلطان وسيهاجرون إلى سبتة حيث سيحظون بحسن الاستقبال من طرف الإسبان الذين سيعيشون معهم في ود وانسجام، إلى يومنا هذا. ولم يؤثر الغياب والبعد في لباسهم الأصلي. كما أن لغة تامازيغت الأصلية التي يتكلمها إخوانهم في الريف، ما زالت متداولة وسط هذه العائلات المهمة التي يتحسر أفرادها دوما على الوطن المفقود. ويسهل التعرف في سبتة، على الحي الصغير الذي يقطنونه، كما يستخدم المسجد البسيط لهذا الحي، للقاءاتهم ولتعليم أبنائهم. وللحقيقة، يجب أن نضيف بأن السلطان قدم لهؤلاء الأبطال تعويضا عن الأراضي التي سلمها للأجنبي، مما سمح لهم بشراء مساكن يقطنونها حاليا بالمدينة الإسبانية.

ويسمي الريفيون مليلية : ثمريرت، أما بالعربية فتنطق كما هي: مليلية. وتعني ثمريرت بالأمازيغية المكان الذي يتم فيه اللقاء. وهو إسم الفعل الريفي emrir (التقى) والذي يصبح melil عند الزواوا، حيث تتحول اللام إلى راء في اللغة القلعية وذلك طبقا للقواعد الصوتية الثابتة لهذه اللغة. ويحول التمسامانيون اللام إلى دج : dj مثل: idjdji (الفتاة). أما بني ورياغل فيحولونها إلى دال ، مثلا: iddi (الفتاة). وعندما يحدد أهالي قلعية موعدا بمليلية فإنهم يقولون annemrir g themrirth (سنلتقي بتمريرت أي بمليلية). وأحيانا يشار إلى المدينة

بهذين النعتين وهما: jnada (معسكر)، من الجذر العربي جند؛ و Er-mjahden (المجاهدون).

وتعتبر مليلية مركزا تجاريا هاما بالنسبة للريفيين. ولا يمنع الدخول إليها إلا على الأهالي المسلحين. لذلك لا تلتقي بشوارعها إلا بالمسلمين الذين لا يحملون بنادق ولا خناجر. وعند حلول الليل تسد المدينة أبوابها. لذلك يحاول الأمازيغيون إنهاء كل مشترياتهم خلال النهار للرجوع إلى منازلهم قبل غروب الشمس، إذ من الخطورة بمكان، عبور الريف في الظلام. ويشتكي الأمازيغيون والعرب من السلوكات الجافة والفظة لأسياد المدينة. فالاسبانيون من الطبقة الدنيا يضرطون بكثرة. وعندما يمرون بالقرب من أعدائهم المسلمين، يصدرون عن قصد ضرطات قوية وسط الشارع، تسمم الجو وتزكم الأنوف بروائحها الكريهة، وهو ما يغيظ الريفي الذي يمقت هذا الدوي المقزز.

ومن جهته، فإن محمدا لم تفته زيارة مليلية. ولأنه دخل المدينة بدون نقود، فإنه سيفاجأ عندما حان وقت الغذاء، بعدم وجود أي مسجد يستضاف فيه ويتم بداخله إسكات عصافير بطنه الجائع. لذلك اضطر لبيع مظلة صغيرة بفلسين لإسباني، وكان يستخدمها للتأثير على أهالي القبائل وإدهاشهم ، بحيث كانوا يعتبرون هذا الشخص المجذوب، مختلفا عن غيره بسبب أطواره الغريبة. وقد ساعدته قطعة الخبز الاسباني المستدير والتي سيلتهمها أثناء سيره، على التخفيف من جوعه. وكانت تلك أول مرة يشتري فيها شيئا بالمغرب.

وقد أكد لي بأنه نسي أثناء مقامه الطويل بالمساجد الشريفة، هذه الكلمة المملة وهي: اشترى (بالعربية) وساغ (بالأمازيغية)، غير أن مدينة أوروبية تكلفت بتذكيره بها.

وغير بعيد عن مليلية، يبرز فوق تل، قبر الولي الصالح لقلعية، سيدي ورياش.[46] ويتعلق الأمر بشخصية شعبية من القرن السابع الهجري، أصله من أولاد ورياش المقيمين بنواحي سبدو. وقد تميز هذا الولي الشاب منذ نعومة أظفاره، بصلاحه وتقواه وكرهه لكل ما هو غير إسلامي. وعاش كزاهد يعبر الدواوير والبوادي والقرى، حيث كان يحظى باستقبال حماسي من طرف الأهالي المتعصبين والمعجبين دوما بالأولياء، سواء كانوا حقيقيين أم مزيفين. وما أن بلغ سن العشرين حتى اجتاز المضيق ليجد نفسه وسط المورسكيين الإسبان، وقد ناهض الانحلال الخلقي العام لهؤلاء المسلمين الذين تشبعوا بالحضارة الغربية وتعودوا على رخاء العيش. ولأن أحدا لم

[46] – ورياش هي كلمة عربية تمزغت وتعني ذلك الذي يقوم بإشارات باليد والمعطف للنداء على شخص. وهي مشتقة من الفعل العربي ريش أو راش (العربية المغربية الجزائرية). ملحوظة المترجم: ربما قصد الكاتب فعل أشار.

يعره أي اهتمام فإنه سيعود إلى طنجة، قبل أن ينزوي وسط الريف، ذلك المعسكر المحصن ضد كل الجهالات. واستقبل بالتبجيل في كل مكان، غير أن أهالي قلعية كانوا أكثر احتفاءا به، لذلك اختار هذه القبيلة وبنى لنفسه صومعة سيعلن فيها عن تنبؤاته. وهذه الصومعة هي التي ستصبح قبرا له فيما بعد. وباستثناء الكرامات العديدة التي تنسبها الأساطير إليه، وهي كرامات مماثلة لما نجده عند مدعي المعجزات thaumaturges في كل الأديان، فإنني لم أتمكن من جمع معلومات أخرى عن هذا المتعصب الغريب الذي يصعب كتابة سيرة حياته.

ويبدو أن بعض الجنود الإسبانيين دنسوا قبره سنة 1893، وقد أكد العديد من الريفيين أن هؤلاء الجنود جاؤوا للبحث عن الماء بمنبع سيدي ورياش. فتجرأ أحدهم وتبول داخل المزار عبر شقوق الباب.

وكان ذلك انتهاكا سيضاعف من خطورته كون الماء الذي يغرف من أراضي قلعية دون ترخيص، كان يستخدم لصنع الملاط الذي تستعمله إسبانيا لتشييد حصنها الجديد، قبالة سيدي ورياش على أرض متنازع عليها، وفي ذلك اليوم، دوت رصاصات الريفيين في أجواء المنطقة. ونحن نعرف أحداث مليلية ونعرف الصعوبة التي واجهتها الحكومة الاسبانية لدحر هذا الشعب الصغير الذي كان يقاتل من أجل دينه وبيته بدون مدافع ولا خطط حربية، حيث يصارع كل واحد على طريقة أبطال هوميروس غير خاضع لأي رئيس وراغبا مهما كان الثمن في دحر الكافر أو كسب الشهادة. وتوجد في حملة مليلية هاته خبايا هامة، إلا أن التاريخ افتقدها إلى الأبد. ولست متوفرا في الوضعية الحالية، على الوثائق الكافية لتوضيح أعماق هذه المأساة الريفية. وسأكتفي بذكر ملحمة بطولية لا تصدق، قام بها ثلاثة قلعيين سباحة، وسط ظلام الليل.

فمنذ بضعة أيام، كانت سفينة حربية قشتالية ترسو على بعد كيلومترين من الشاطئ، وكانت تثير حنق الأهالي بإرسالها كل مساء، لأنوار كهربائية على المنطقة. وما أن يسلط الضوء على مكان تواجد المجموعات حتى تتبعه قذائف المدافع. وفي البداية لم يتحرك الريفيون الذين كانوا غير واعين بالخطر، وكانوا يهزؤون وتصدر عنهم إشارات عديمة الاحترام تجاه العاكس المشع والذي كان يسمى عندهم بالمصباح الكبير (الفنار). غير أن موت بعض إخوانهم الذين حصدتهم القذائف الرهيبة، جعلتهم مقتنعين بأنه لا مجال للسخرية من هذا الابتكار الحديث للمصباح الكهربائي. هكذا ، سيعقدون اجتماعا فيما بينهم للتشاور، متسائلين عما يمكن فعله لتحطيم هذا المصباح المتطفل. وتقدم ثلاثة سباحين أقوياء، مقترحين الذهاب سباحة إلى السفينة لإتلاف المصباح. وتمت مباركة خطورة هؤلاء المجاهدين ورفعت أكف الضراعة إلى الله من أجل سلامتهم. وبالفعل، دخلوا البحر عراة، حاملين معهم بنادقهم الاسبانية وبعض الخرطوشات.

وقد ربطوها على رؤوسهم فوق ركام من الأثواب التي وضعت لتجنيب الأسلحة والبارود البلل. واستمروا في السباحة بشجاعة، دون ضجيج تحت ظلال الليل، مقتربين تدريجيا من الوحش الذي تنتصب كتلته السوداء على صفحة بحر هادئ تماما. وعلى ما يبدو فإن جميع بحارة السفينة كانوا قد خلدوا إلى النوم، باستثناء ضابطين أو ثلاثة ضباط، كانوا متواجدين قرب العاكس يرسلون من خلاله أضواء منيرة على كل الجهات. ونجح السباحون في تسلق سلاسل المرساة، لينزلوا على ظهر السفينة. وفجأة سمع دوي ثلاث طلقات في صمت الليل، كانت نتيجته تحطيم العاكس وإصابة ضابطين بجروح خطيرة. وقفز الريفيون مجددا إلى البحر، عائدين بسرعة على الشاطئ. وكان الانفعال على أشده فوق السفينة ولم يخطر ببال أحد إنزال الزوارق لمتابعة هؤلاء الجريئين. وتم إطلاق نيران البنادق بشكل عشوائي على سطح الماء، غير أن الأمازيغيين الثلاثة، المحميين من طرف الظلمة، سيصلون سالمين إلى البر. وأتركّكم تتصورون مقدار الاحترام الذي سيحظى به هؤلاء المقاتلون داخل قبيلتهم، بعد عمليتهم هاته.

وإذا ما رجعنا إلى الدرويش ، فإن فرحته كانت عارمة، عندما وجد بضريح سيدي ورياش حوالي عشرين هداويا أكثر إثارة للشفقة منه. وأظن بأن هذه الطائفة غير معروفة في الجزائر إذ يبدو أنها متواجدة في المغرب فقط. والهداوي هو جوال متسول، مخبول بفعل الكيف. ويتجول عاري الرأس حاملا في يده حربة، كما يرتدي بعض الأسمال تخفي عورته بالكاد ويضع مسبحة بعنقه ومحفظة صغيرة بجانبه، مليئة بالكيف وبداخلها غليون طيني صغير. وهو يزور مختلف الأولياء ويقتات من الأطعمة التي يأتي بها الزوار الأوفياء، إلى قبور الصلحاء؛ بل يقدم نفسه كحارس لهذه الأضرحة، صانعا أحيانا، بعض الحلويات التي يهديها إلى الجمهور الحاضر؛ وهو يظل مشدوها باستمرار، بفعل دخان الكيف. إنه باختصار كسول مقرف، يمارس أحقر المهن وهي: طفيلي الأضرحة.

وفي قرية العصارة ببني بويفرر، سيلاحظ الأهالي بأن محمدا يتهاون في أداء صلواته، بل لا يتوضأ سواء عند إقدامه في الحالات النادرة على الصلاة أو عند تلاوته للقرآن وللأحاديث النبوية. لقد كان يقلد سكان البلدة ولكن بما أنه كان أجنبيا، فإن هؤلاء السكان سيعتقدون بأنه يهودي، وهكذا سيتعرض للشتم وسيتلقى الاهانات ، إلا أنه سيتحملها دون شكوى.

وبعد أن أعياه التعرض لأذى هؤلاء البلداء، أعلن في أحد الأيام للفقيه وللطلبة عن عزمه على الرحيل. وظن بعض السفلة بأنه يحمل معه نقودا، فتبعوه خارج القرية حاملين مسدساتهم معهم. وفجأة اعترضوا طريقه وأمروه بخلع ملابسه. فرد عليهم محمد قائلا: " لنذهب بعيدا، فلازلنا قريبين جدا من الدور السكنية ". وقبل هؤلاء السفلة الاقتراح، وأثناء السير تمكن الرحالة،

رغم أنف المعتدين عليه، من رمي محفظته بدغل صغير، وكانت تحتوي على حوالي ثلاثين فرنكا كسبها عن طريق صنع الأحجبة. ولما رأى هؤلاء الأوغاد بأن المسافة قد بعدت ، أمسكوا بضحيتهم وجردوه من كل أمتعته، بحيث لم يتركوا له سوى قميصه القطني (الـسـكندورة). وكانوا يرغبون في نقوده بالأساس، ولما لم يجدوها اهتاجوا وطلبوا منه، تحت تهديد مسدساتهم، بأن يظهر لهم أين أخفى محفظته. وأقسم الدرويش بحق سيدي ورياش بأنه من أكثر الناس عوزا، وإثر ذلك أطلق سراحه.

وبقرية الخميس التي لجأ إليها، منحه الأهالي بعض الألبسة، وبعد أيام قلائل، تسلل بحذر شديد إلى المكان الذي رمى فيه محفظته التي سيجدها هناك، سليمة لم يمسسها أحد.

إن اليهود يوجدون بكثرة بقبيلة قلعية، وهم يسكنون بالقرى الصغيرة ويمارسون مختلف المهن. فهم صانعو أحذية وإسكافيون وصانعو أوتار وصاغة وصانعو قدور؛ ولا يوجد أي فلاح بينهم. وهم يكترون منازل سكناهم، لأنهم لا يستطيعون امتلاك مسكن لهم، سواء بقلعية أو خارجها. ويتضمن عقد الإيجار بندا غريبا وهو أن كراء منزل ليهودي، يدوم إلى الأبد، وللمالك وحده الحق في طرد المكتري الذي لا يمكنه أن يتخلى عن المنزل من تلقاء نفسه ولا أن يطالب بأي إصلاح لمسكنه. ولكل يهودي مسلمه الذي يعتبر سيدا له.

ويسافر الاسرائليون القلعيون لقضاء أغراضهم، حيث يأتون إلى وهران وطنجة وإسبانيا وإلى أي مكان يرغبون في الذهاب إليه؛ وهذا دليل ساطع على تمتعهم بحرية كبيرة. وهم لا يشعرون بالتعاسة ما داموا يرجعون بطمأنينة إلى بيوتهم. ويعترفون بأن الأمازيغيين لا يعاملونهم أبدا بسوء. وقد سمح الاتصال القديم العهد، بتهدئة الأحقاد العرقية، مجبرا المسلمين على قبول هؤلاء الرحل العالميين الذين يتكلمون لغتهم ويرتدون نفس زيهم، ولا يتميزون عنهم إلا بخصلات شعرهم الطويلة التي تتموج بشكل لولبي فوق صدغهم حتى الفك الأسفل.

إن سيدي ورياش هو سيد القبيلة لكن هذه الأخيرة تتوفر أيضا على أولياء آخرين مبجلين أيضا. لنذكر فقط من بين أشهرهم: سيدي بوصبر ببني بويفرر، سيدي محمد بن عبد الله بمزوجا، سيدي الحاج سعيد ببني شيكر.

وأثناء زيارة قبور هؤلاء الأولياء، يذبح الدجاج والأغنام والماعز والأبقار. وهذه الأضحيات ليست مقدمة كقرابين للأولياء كما نعتقد في أوروبا، إذ أن الأمر يتعلق بصدقة من أجل الفقراء، تمنح لوجه الله. ويأتي هؤلاء المساكين إلى مثل هذه " الوعدات "، لملأ بطونهم بالكسكس واللحم والحلويات ثم يعودون من حيث أتوا وهم على استعداد لمعاودة الكرة من جديد

كلما سنحت الفرصة. ويخشى الأميون، المؤمنون بالشعوذة، هؤلاء الأولياء. لذلك تراهم يتضرعون على الولي فور تواجدهم بضريحه ويهمسون بالدعوات والتوسلات.

إن الطالب الذي يعيش في الغالب بالقرب من الأضرحة، وهي بنايات مجاورة للمسجد أو للمقبرة، يتآلف مع الولي الصالح ويشعر بنوع من الحميمية تجاهه، معتبرا إياه كقريب عظيم وطيب ومتساهل. لكن يقال بان الصلحاء ينتقمون أحيانا من الإهانات التي يتعرضون لها. وتعتبر الحادثة التي وقعت لمحمد بن الطيب خير دليل على ذلك.

فقد كان الدرويش مقيما بضريح سيدي بوصبر منذ حوالي شهر يتلقى الدروس ويمرح ويتعارك مع رفاقه الطلبة داخل الضريح ويجري ويصرخ غير آبه بأي شيء. وباختصار ، كان بأفعاله وأقواله ينتهك حرمة قبر سيد بني بويفرر . وفي إحدى الليالي الدافئة للخريف، خرج ليتنسم الهواء وسط شجيرات التين الوحشي العديدة والمحيطة بقبر الولي. وفجأة أصابه الرعب من جراء أمر خارق لم يكن يتوقعه. فعلى بعد عشرين خطوة وراء ظهره، برز جمل ضخم وبفمه بندقية، واندفع باتجاه الدرويش وهو يصرخ بصوت رهيب. ولشدة رعبه، انطلق محمد جاريا كالسهم بين مسالك الشجيرات الشوكية قافزا فوق قبور بني بويفرر الذين اختاروا مقبرتهم بالقرب من ضريح وليهم. وكان الجمل يطارد الجوال ويصدر أصواتا خشنة متتالية، تشير على أن غضبه قد بلغ حده الأقصى. وأخيرا وبعد أن طاف مئات المرات حول متاهات شجيرات التين الوحشي، وجد محمد بن الطيب نفسه، دون أن يدري كيف، أمام مبنى الضريح الذي دخله بسرعة، مغلقا الباب وراءه. وقد كان محظوظا بفعله ذاك. فلو تأخر دقيقة واحدة، لكان الحيوان الهائج قد مزقه إربا. وظل الحيوان يقرع الباب الخشبي ببندقيته، وهنا حدثت المعجزة، حيث صدرت عنه كلمة عربية وهي: افتح. وعند سماعه لهذه الكلمة، خر الدرويش أرضا بالقرب من رفاقه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وقد أجاب على الأسئلة الموجهة إليه، وهو شاحب اللون، متقطع الأنفاس، مرتعد الفرائص، قائلا بأنه كان عرضة للمطاردة حتى وصل إلى باب الضريح. وأعلن الطلبة بأنهم لم يروا ولم يسمعوا أحدا، وإثر ذلك نام الدرويش وهو على تلك الحالة من الانفعال. وعند منتصف الليل رأى في المنام، سيدي بوصبر نفسه الذي خاطبه بالعربية الدارجة قائلا: " لو كان تعاود تلعب كما لعبت في القبة، نرميك إلى الثلث الخالي".

ولما بزغ نور الصباح قام محمد من النوم، وعلى غير عادته اغتسل وأدى الصلاة لمدة طويلة. وفي المساء، خرج في نفس توقيت البارحة وذهب إلى المكان الذي ظهر فيه الحيوان الرهيب وبدأ يصرخ بأعلى صوته: " أيها الجمل، أنت الذي طاردتني البارحة، اظهر الآن ...".

ويبدو أن سيدي بوصبر كان قد هدأ، لأنه لم يقرر التحول مرة ثانية لترهيب الدرويش. وابتداء من ذلك اليوم، أصبح هذا الأخير يكن أكبر الاحترام لكل الأولياء ولأضرحتهم.

إن المسلمين الأفارقة وخصوصا المتعلمين منهم ، يرون في أحلامهم أشياء غريبة. فغالبا ما يتراءى لهم أولياء وأنبياء، بل وحتى الرسول محمد (ص) الذي لا يبخل عليهم بنصائحه أو تنبيهاته. ويساهم الإيمان العميق للمسلمين في إثارة خلاياهم الدماغية ويجعلهم في حالة مستديمة من الارتجاج العصبي الذي يتجاوز حدود الإدراك. وسواء كانوا نائمين أو مستيقظين، فإن خيالهم النشيط يحملهم إلى مجال الخوارق داخل عوالم رائعة ، وفي المناطق الساحرة للعالم الأخروي الذي نقصى منه نحن الأوروبيون، بسبب جفاف الفكر الوضعي والعملي الحديث، هذا الفكر العملي أكثر من اللازم ربما.

وقد بدت لي مطاردة الجمل أمرا لا يصدق وأردت التأكد عما إذا لم يكن الدرويش ضحية هلوسة أو حلم مزعج. واندهش محمد كثيرا من إلحاحي وعدم تصديقي متسائلا: ألا يقوم الأولياء بالمعجزات ولو بعد مماتهم؟

والخلاصة التي توصلت إليها من جراء هذه الرؤيا الغريبة ومن جراء رؤى أخرى حكيت لي من طرف أتباع الرسول محمد (ص)، هي أن المسلمين وخصوصا الورعين منهم، يتعرضون لهلوسات خاصة ولاضطرابات دماغية مميزة لا علاقة لها بأي شكل من أشكال الجنون. والمثير في حالتهم، هو السير المنتظم والمستمر لهلوستهم التي لا يحصل فيها انقطاع، بل تظل قائمة لديهم مدى الحياة. فهي قد تولدت لديهم منذ نعومة أظافرهم تحت تأثير اعتقاد قوي جدا وهو: الإيمان الديني ! وهي لا تتوقف بالنسبة لغالبية المسلمين إلا بعد الموت.

وعلى مستوى آخر، يعتبر شرف المرأة بقلعية، أمرا بالغ الجدية. وسيتأكد ذلك من خلال الحكاية التي سأسردها بعد قليل. وقد رواها لي شاهد عيان، وهو طالب ريفي شهم، طرده حقد زوجة أبيه من منزل هذا الأخير. وهو شريف بن شريف، ويفضل زرع كروم المعمرين الوهرانيين بدل العيش دون عمل، تحت سيطرة المرأة الشريرة التي تدبر كل شيء، وحدها في البيت. وهذا الطالب الذي ألح على عدم ذكر اسمه في هذا الكتاب، علمني لغة تمازيغت، وهو معروف لدى القلعيين الذين يقدرونه ويحترمونه كطالب وكشريف.

ويدين له أحد أصدقائي، وهو ضابط صف في البحرية، يعمل حاليا بسفينة الأميرال بودان baudin ، ببقائه على قيد الحياة. وهذا البحار مهتم باللغة العربية بشكل كبير، وهو أمر نادر. وأثناء زيارة الأسطول البحري الأخيرة لوهران، سارع بالذهاب إلى حي الأهالي لتعلم الحديث باللغة العربية وكان قد تعرف على صاحبنا الريفي، الذي كان للإشارة، يتحدث العربية بصعوبة .

وأثناء تجوالهما بالأزقة الوسخة لحي المسلمين، حوالي الحادية عشر ليلا، حاصرهما أربعة لصوص يرتدون المعاطف ويحملون الهراوات وذلك بغرض سلبهما ما معهما. وقد دافع الشريف ببسالة عن مرافقه الذي كانت معرفته به محدودة. رغم أن إخوانه في الملة رددوا على مسامعه: " اتركنا نسلب هذا النصراني الكلب ما يملكه، وسنقتسم معك ما أخذناه"، إلا أنه رفض العرض وواجه بشجاعة ضربات عصي هؤلاء اللصوص وتمكن من تخليص الفرنسي من بين أيديهم.

وعندما سيقرأ مواطني هذه السطور، وقد كان منذ عدة أيام، يتابع دروسي بانتظام، بكرسي العربية بوهران، فإنه سيتعرف بسهولة على هذا الريفي النزيه الذي سنعطيه الكلمة الآن، ليروي لنا بلهجة تامازيغت الخالصة [47]، المشهد الهمجي التالي، المؤثر بشكل كبير وعلى كل المستويات .

وهذا كل ما هناك. لكنني أعلم بأن صديقي باصي Basset مدير المدرسة العليا للآداب بالجزائر، يهيء عملا حول النحو والمعجم المقارن للهجات قلعية وبني ورياغل وبقيوة وتمسمان وبني سعيد وبني زناسن، مرفوقا بالنصوص. وأخيرا هناك بظهر غلاف هذا الكتاب إعلان عن مؤلف بعنوان: " **بحث حول تامازيغت والحكايات الشعبية بالريف** "، وكان من الممكن صدوره لولا انشغالاتي الحالية. من جهة أخرى، فإنني تقدمت كثيرا في إنجاز " المعجم الفرنسي – الريفي". وعندما ستنشر هذه الأعمال، فإن لهجات الريف، ستخضع لنفس مصير هذا البلد المتوحش الذي مازال مجهولا والذي أصبحت بعض ملامحه تظهر الآن بفضل تصريحات الدرويش والرحالة المسلمين الآخرين.

---

47 – إن اللهجات الأمازيغية معروفة بشكل قليل أو غير معروفة تماما. والباحثون الذين تطرقوا لهذا الموضوع، أنجزوا الأعمال التمهيدية التالية:

- **Hanoteau**, *Grammaire Kabyle , un conte en thamazir'th de Galiya.*
- **R.Basset** :
  + *Manuel Kabyle.*
  + *Note de lexicographie Berbère.* Le 1er chapitre, de la 1ere série, est consacré au Galiyen ; dans les séries suivantes, les dialectes du Rif sont pris comme point de comparaison.
  + *Loqman Berbère*, plusieurs fables en temsamanien.
  + *Etudes sur les dialectes Berbères. Notes grammaticales sur différents dialectes Rifains.*
  + *Les Noms des métaux et des couleurs en Berbère.*
- **Oueden Feldt**, *Eintheilungund verbreitung der Berber vilKerung in Maroco* ; s'est occupé aussi des dialectes du Rif.
- Missions évangélique de Londres ? Les Evangiles de St Matthieu et de St Jean en galiyen.

إنها حكاية [48]
رجل متزوج بوغث مع
امرأة متزوجة
بقرية بني سيدال
بقبيلة القلعيين
في السنة الماضية كان هنك
رجل متزوج. وكان له
بستان؛ وضع فيه
قناة الماء. وبدأ
بسقي هذا البستان
وأتت
بالقرب منه امرأة متزوجة
وجلسا معا. وشرع
في مواقعتها تحت
شجرة التين
ورآهما
رجل، وأثار حولهما
الصيحات (نادى على كل الناس)

واجتمع
ضدهما العديد من الناس، والمرأة

Rih' Kaith en
Ijoun gourgaz yemrech oufin taked
lecht en tem'art temrech
Di dchar in at- sid'ar
Di thek'bitt in k'eraiyin
Ij oussouggas, ettour'a
Ij oungouargaz [49] yemrech R'ares
Ijjen ràyarnst; iarr ed r'arer
Tharja oungouaman [50]. iehd'a
I tsessaou ràyarnst enni
Thous ed
R'ares ijjen temr'nrt temrech
Ek'kimen aya Ked'ouya. Iebd'a
Itek'k'out s eddou ijjen
Ouarthou
Iezan ithen
Ij outharras; yesekkar Khaf
Sen ethr'ouyyith.

Mounen d
Khaf sen ioud'an at't'as.
Thamghart

---

48 – اخترت كتابة هذا النص بهذه الطريقة، حتى أعطي لمحبي الأدب الغرائبي، فكرة دقيقة حول لغة وأسلوب الريفيين.
ملحوظة المترجم: بدوري سأحافظ على تركيب اللغة الأمازيغية الريفية كما وردت في النص وكما ترجمها موليراس إلى الفرنسية. ولن أخضعها لتركيب اللغة العربية.
49 – عن الحركات الأنفية voyelles nasales، توجد بلغة تامازيغت وهو ما ينطبق على oun التي يصعب النطق بها فعلا، لكن يمكن التوصل إلى ذلك بصبر وأناة.
50 – الحركة الموجودة فوق حرف النون (n) يجب أن تنطق (gn) مثل: montagne.

Tarouer. Ed'farenteth arbà en	هربت وتبعها أربعة
Ioudan, enr'inteth s thsapounia [51]	أفراد، وقتلوها بواسطة البنادق
R'arsen as aàddis s Thasboutt [52]	وشقوا لها بطنها بالسيف
Oujjinteth d'i barra	وتركوها بالخارج في العراء
ed'rinteth	وغطوها
S'ijj ouh'ach.	بحايك.
Arghaz enni, thania , yarouer	والرجل هذا ، أيضا هرب
R'ar ijjen taddart tekhra	باتجاه منزل غير مسكون
Yek'k'en khafe thaououarth aouarn	وأغلق عليه الباب الخلفية،
As,	هو
Ed' farent id' yaoud'an, ettazren	وطارده الناس وجروا
Aouarn as, echathents	وراءه هو، وضربوه هو
Erbaroud'	بالبارود (اطلقوا عليه النار).
Arami ioud'ef thaddarth, yebd'a	وعندما دخل إلى الدار شرع
Yachchathithen d, ranta,	في ضربهم، هو أيضا (أطلق النار عليهم)
Zeg icht tebouarjet yanr'a	من النافذة وقتل
D'aisen sebà.	من بينهم سبعة
Bed'an youd'an enni ettaryen	وشرع هؤلاء الناس في الصعود
Akh terak'k'a. k'eddaàn tih'ania	على السطح، ونزعوا روافد
Entezak'k'a, arami kafs	السطح، إلى أن أقلموا فوقه
Snouk'k'eben. Louiyen d tizizoua	ثقبا و حملوا النحل
D'i ther'aracin.	في الخلايا

[51] – كلمة thasppaniout (بندقية) تقابل كلمة espagnol، منطوقة باللغة الريفية. ويحول القلعيون اللام الموجود في آخر الكلمة إلى تاء أو طاء (T).

[52] – مأخوذة عن الكلمة الإسبانية espada

Farrer'en khafs thizizoua.
Ek'k'eden
Timessi d'i thesoumadh
oungouari
Bed'an net't'aren khafs thimessi
Akhkham
Enni iechchour s thizizoua
d'ed Dekhan.
Thizizoua ettemounent kh ouargaz
Enni, zaàfent d'ais.
Ied'ouer ouar
Itouiri our ad' ijjen n errih'ath
Bed'an yioud'an
Net't'ouen d khafs zi thezek'k'a.
Et't'fent. ek'k'arnenn as ifassen
R'ar d'effar. Essoufer'ent id
R'abarra, r'ad'erent r'ar
themmou Arth.
Bed'an ek'k'arer
As ath àmmis :
" – etta d'ergerait ennech àla
Khat'er echchek ouar ifahmen
Areddif ennech. Etteged
Eràib d'i tharoua àmmich "
Nitheni ek'k'aren
As ammou, nitheni etk'eçcen
Dais s ermouas
H'add itk'eçcith
Zi thekherkhamin en fassen

ورموا عليه النحل وأشعلوا
النار في حزم الحلفة.
وبدؤوا يرمونه بالنار
والبيت
هذا، امتلأ بالنحل
وبالدخان
والنحل هجم على هذا الرجل
وقرصه
وأصبح هو
لا يرى شيئا (بسبب النحل)
وشرع الناس
في القفز عليه من السطح
وأمسكوا به. وربطوا له اليدين
من الوراء. وأخرجوه هو
إلى الخارج، وأسقطوه هو
على الأرض
وشرعوا يقولون
له أبناء عمه (أبناء القبيلة) :
" هذا هو جزاؤك أنت ، لأن
أنت، لست ذكيا
رأسك أنت (أنت بليد) أنت رميت
العيب على أبناء عمك أنت".
وهم قالوا
له ذلك، وهم يقطعون
أحشاءه بالسكاكين
واحد قطع
له المعصمين وواحد

H'add itk'eççith zi ther' ammar	يتر له من المرفقين
Enr'adden, h'add itk'eççith	الذراعين، وواحد بتر له
Zi ther'arent.	من الكتف.
Netta iddar àd, ouar isr'ouyyou,	وهو حي مازال، لم يبك
Ouar issiouir.	ولم يقل شيئا.
Tek'eççent Tania zeg Fadden,	وقطعوا له أيضا من الركبتين
bed'an tek'eççen dais	وشرعوا في تقطيعه من الداخل
S ermouas zi àra m kour	بواسطة السكاكين، من كل الجهات
Amchan arami ouar dais k'aà	حتى بداخله، لم يبق
Ek'k'imen id'ammen. K'çcen as	أي دم. وقطعوا له
Abrour ennes, eggin asitha	إيره ولها وضعوه
Ouk'emmoum.	داخل فمه [53]
Ious ed ijjen zeg ath àmmis,	وجاء واحد من بين أبناء عمه
Yekkez d takhed'mechth, yegg	وأخرج سكينا وأدخله
Ast d'l thit' , ik'eraà As ted	في عين ونزعها منها
làouad'as ithennedhnit, ik'eraà	وقام بنفس الشيء مع الأخرى، ومنها
As t ed amekchour.	نزعها مثلما يخرج
	حلزونا من القوقعة.
Netta iddar àd' , issah'rath.	وهو حي مازال، يحشرج
Rikhdenni rouh'en. Yiouiyen	عندئذ ذهبوا ، وجاؤوا
D timessi, farrer enteth khafs	بالنار وسكبوها فوقه
Arami yaoungoua.	إلى أن شوي.
Rikhdenni ouryen taddarth ennes	عندئذ صعدوا إلى داره
Hed menteth, seh'ark'enteth.	وهدموها وأحرقوها.
Rih' ouaij oufin d'l thaddart	والأشياء التي وجدوها داخل دار
N ouenni, k'à, ouenn ioufi	هذا الشخص كلها، فالذي وجد

[53] – اقترفت هذه الفظاعة مرات عديدة من طرف الريفيين، أثناء الأحداث الأخيرة بمليلية. فقد شوهت جثث الجنود الإسبان التعساء بهذه الطريقة الممقوتة، عند تمكن الرعاة والسفلة الأمازيغيين من الإمساك بهم.

Chan, h'achcheth iechsit.	شيئا لم يمتنع عن أخذه.
Ettour'a r'ares thratha en	وكان له ثلاثة
Tsarfin en imendi echrin d	مخازن من الشعير؛ وأخذوا
Imendi enni marra, endarent	هذا الشعير كله ورموه
R'a barra zeddaànt. Ouar th	بالخارج ونثروه (في كل الجهات)
Iouyen, r'er in oua r'ar ieddi	ولا أحد أخذه، فقط ذلك الذي
Cha, r'er imezrad'ith yiouiyen.	لا يملك شيئا، فقط الفقراء
Thammouarth ennes, thezzenz	الذين أخذوه. وحقله هو
It tak'bilt ik'eriyin	باعته قبيلة القلعيين
Far'k'enteth akh techouchai	وقسموه (أي ثمن البيع) على الرؤوس
Ennsen.[54]	بينهم

وبسبب هذا التعذيب الفظيع، فإن هناك قليل وقليل جدا من الريفيين الذين يستهويهم الإخلال بالحياة الزوجية. ذلك أن اقرب أقربائهم سيكونون هم أول من يجزرهم؛ وإذا لم يقوموا بذلك، فسيتعرضون هم أنفسهم لأفظع الممارسات الانتقامية.

ويعمل الشبان الذين هم في غالبيتهم رعاة الماعز أو الأغنام أو الأبقار، على تجاوز قساوة العزوبية وذلك بإشباع رغباتهم الجنسية في الحقول، عبر اللجوء إلى الحيوانات التي يرعونها. وتتم الأمور بهذا الشكل في الجزائر والمغرب وفي كل البلدان العربية والأمازيغية.

وهذا السلوك المقيت مقبول ومسلم به ومسموح به ومعروف لدى الجميع.

ويتم التهامس بشأنه في المجتمعات الإسلامية الراقية، كموضوع للسخرية والضحك.

وبالرغم من أن الأشخاص الورعين في الإسلام يلعنون هذه الأهواء الشنيعة لدى المسلمين الشباب العازبين، إلا أنهم يجدون الأعذار لهذه الحيوانية، معلنين أمام الجميع، بأن المساكنة من غير زواج concubinage والزنى والبغاء، هي جرائم أفظع وانتهاك للقوانين الإلهية والإنسانية بشكل أكبر.

---

[54] – أحتفظ في عملي المقبل، وعنوانه: " بحث في لهجة تامازيغت وحكايات الريف الشعبية "، بالملاحظات التي كان من الممكن أن أقوم بها هنا، حول النحو والاشتقاق اللغوي.

ورغم الاختلاط الكبير بين أفرادها، فإن أخلاق العائلات القلعية تظل سليمة. وتعتبر الأم هي سيدة الدار؛ وقد رأينا من قبل كيف أن زوجة الأب تذيق الأمرين لربيبها حتى ولو كان راشدا. فالأزواج الذين يسودون بالخارج يكونون وديعين داخل المنزل. والمرأة بدورها تصبح كائنا ضعيفا ما أن تتجاوز أسوار مسكنها. وتقتضي العادة أن تدير وجهها إذا ما رآها غريب. وهي نادرا ما تخرج إذا كانت جميلة، وتعيش في منزلها منتظرة باستمرار اللحظة التي تزور فيها أبويها؛ وهذه الزيارة لا تتم إلا مرة أو مرتين في السنة ، إذا كان المنزلان متباعدين.

وقد حاولت البعثة الرسولية mission apostolique لبريطانيا العظمى، مدفوعة بحماس ديني لا تخفى دوافعه السياسية، دعوة سكان الريف إلى المسيحية. ولأنها تخوفت من تعرض مبشريها، الذين سيعرفون على الفور بسبب لكنتهم البريطانية، للذبح من طرف أهالي البلد المتوحش ، فإنها حاولت تجاوز هذه المشكلة بترجمة إنجيلي القديسين مرقص ويوحنا إلى لغة تامازيغت.

وإليكم كيف استقبل الريفيون هذين المنتوجين للثقافة الانجليزية. ففي أحد الأيام ، ذهب الشريف الشاب الذي روى لنا ، قصة التعذيب الرهيب المتعلق بالزنى، إلى مليلية لشراء بعض الحاجيات. وهناك، التقى في زاوية أحد الأزقة، مع رومي أشقر ضخم الجثة، تبرز ضحكته العالية صفا من الأسنان الرائعة. وبشكل غريزي اتخذ الريفي وضعا دفاعيا . لكن الأوروبي لم يتأثر بذلك ودس في يد الأمازيغي عشرات الكتب الصغيرة، داعيا إياه لقراءتها وتوزيعها فيما بعد على أبناء ملته.

وعند وصوله إلى المنزل، أدخل الحمار إلى الإسطبل وبادر بفتح أحد هذه الكتيبات التي لم يفهم منها شيئا، كما سيعترف لي بذلك. وفي الليل رجع أبوه، وهو فقيه، إلى المنزل. وقد تم إخباره بما وقع، فانتظر الانتهاء من تناول العشاء ليرى ما تتضمنه هذه الكتيبات الغريبة. ولأنه أدرك من الأسطر الأولى بأن الأمر يتعلق بديانة غير ديانته، فقد أصابته نوبة هياج وصاح بالعربية: يلعن دين والديهم الكافرين.

وعلى الفور، وضع كومة من الحطب بفناء المنزل وأشعل نارا عظيمة. وعندما صعد اللهب عاليا وأضاء الحيطان الأربعة للدار، مثل ضوء النهار، مخترقا كثافة ظلمة الليل، ألقى الفقيه بهدايا الإنجليز، في تلك النار الحامية، وهو يرفقها بأفظع اللعنات. وبينما كانت عملية إحراق كتب القديسين تتم بتلك الطريقة الساذجة، كان إخوة وأخوات الطالب الثمانية ، يرقصون حول حطب المحرقة وهم يرددون أقوال الأب. " يلعن دين والديهم الكافرين".

وهذا هو المصير المحتوم لكل المحاولات الهادفة إلى تحويل المسلمين عن ديانتهم. فمن الجنون دعوتهم للتخلي عن إيمان آبائهم، هذا الإيمان الراسخ الذي لا تنفصم عراه. فكيف وصل بنا الجهل بعاداتهم إلى هذه الدرجة من الوهم؟ ألا ترون على العكس، بأنه كلما التقى أو تنافس الإسلام مع المسيحية، كلما كان هو الرابح؟ ويمكننا في هذا الإطار أن نذكر حشدا من المرتدين المسيحيين الذين أصبحوا مسلمين؛ لكنني لا أعرف مسلما واحدا تخلى عن ديانته لينقلب إلى صف عبدة المسيح.

إن شبه جزيرة قلعية تشبه مخروطا ناقصا، تعلوه ثلاثة نتوءات متباينة الأشكال، اثنين منها يمثلان عند الأطراف رأس العجوز بالغرب ورأس الشوكات الثلاث بالشرق. ويشكل هذان الطرفان، النقطتين الشماليتين الأبعد في الريف.

وهناك غديران يسقيان شبه الجزيرة هاته وهما: واد الكرت الذي ينبع من زاوية سيدي محمد بن قدور وواد بني شيكر الذي يوجد كلية داخل القسم الذي يحمل نفس الاسم.

القرى الرئيسية بقلعية

قسم بني شيكر

- **إعزانن**، (الأعزاء، المكرمون)، (التسمية عربية امازيغية)، ما بين رأس العجوز ورأس الشوكات الثلاث، على شاطئ البحر. يوجد بها حوالي 50 منزلا ويمارس السكان الصيد والفلاحة، وخصوصا الصيد.
- **أيت سـفـذال**، (أبناء المروج المصطنعة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل، قرب واد بني شيكر. وبالجنوب يوجد سوق الثلاثاء.
- **ثاقوليعت**، (القلعة الصغيرة)، (التسمية عربية امازيغية)، 100 منزل.
- **أيت فكثال**، 100 منزل.
- **سيدي الحاج سعيد**، 100 منزل.
- **إعبدونن**، (عبدة الله)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- **الأربعاء**، 500 منزل، يوجد بها سوق الأربعاء الكبير.

قسم فرخانة

- **أيت موسى**، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛

- **جناذة**، (المعسكر)، (التسمية عربية امازيغية)، 100 منزل قرب وادي بني شيكر الذي يأخذ انطلاقا من هذا الموقع، اسم واد فرخانة.

- **فرخانة**، (الشبان الصغار)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهو خليج صغير يسمى بنوع من المبالغة مرسى فرخانة ، ويوجد بالشمال قرب مليلية.

- **القلعة**، 100 منزل، جنوب مليلية.

- **النظور**، (الراصد)، (التسمية عربية)، وهو ميناء يقع على البحر، 100 منزل.

قسم بني بوفـــافر

- **تيزي**، (ممر جبلي)، (التسمية أمازيغية)، وهي قرية كبيرة وسط التلال، غرب شبه جزيرة قلعية؛ 300 منزل. وتتضمن مجموعة من القرى الصغيرة.

- **عزيزاتن**، (الأعزاء)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، عبارة عن قرى صغيرة مجتمعة.

- **زرورة**، (الشائنة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي مجموعة من القرى الصغيرة المبنية فوق أراضي متموجة وصخرية.

- **حنيناتن**، (العطوفون)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وتشمل خمس أو ست قرى متقاربة فيما بينها.

- **بلجّو**، (سمك القد)، (التسمية عربية أمازيغية)، 30 منزلا.

- **تيمزارينت**، (شرفة السطح)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر؛

- **أولاد الحسن**، 20 منزلا، على واد بوفـــافر وبجنوب هذه القرية الصغيرة يوجد سوق الثلاثاء.

- **تيفاصوع**، (البرسيم)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر.

- **بوحمزة**، 100 منزل، على واد بوفـــافر، وقد احتفل الدرويش بعيد الأضحى سنة 1889، بهذه القرية.

- **مرسى بوفـــافر** ، خليج صغير.

- **بني بوشفاري**، (أبناء أب اللصوصية أو الذي يمتلك بنادق تطوانية)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهي قرية صغيرة على شاطئ البحر.

- **أسامر**، (المكان المشمس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي قرية مهمة.

- **شملالة**، (السريعة في السباق)، (أو البلد الذي ينتج أحسن أصناف شجر الزيتون، المسمى أشملال)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.[55]

- **تغذامية**، (الرعي)، (التسمية عربية أمازيغية)، مشتقة من الكلمة العربية غنيمة)، 50 منزلا.

- **مهيياتن**، (المهن من فصيلة addar nasomaculatus وتجمع أيضا مهيات)، 100 منزل ؛

- **أولاد عمر**، 10 منازل؛

- **بوحوى**، (العاجز)، (التسمية عربية)[56] ، 100 منزل، غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد الكرت الذي يسمى انطلاقا من هذا الموقع واد بوقافر.

- **إغيل ومضغار**، (القمة الملتوية)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل؛

- **أيت علي**، 100 منزل؛

- **إجواون**، (الزواوا)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

قسم بني سيدال

- **أيت سيدار**، (بني سيدال بالعربية)، في هذه القرية وقعت المأساة التي رويناها أعلاه، 200 منزل.

- **يسن أويلسين**[57]، 300 منزل، أهم مركز ببني سيدال ويوجد به مسجد وزاوية ومجموعة من الطلبة .

- **إجواون**، (الزواوا) (التسمية امازيغية)، 100 منزل.

---

[55] – انظر كتابي: " أساطير وحكايات رائعة من القبايل الكبرى"، الكراس الثالث الحكاية 23، وهذا البيت a thalek'k amth ouchemlal ؛ والملاحظة المتعلقة بهذه الكلمة الأخيرة.

[56] – يمكن أن تعني أبا حواء أو المكان الذي وجدت فيه حواء. وتعزز اسطورة قلعية هذا المعنى الثاني، إذ يحكى في الريف ، أن أم البشرية، استراحت فترة ببو حوى أثناء مرورها بقلعية. ومن هنا جاءت تسمية القرية.

[57] – تقرأ ياسين، وهو عنوان السورة 36 من القرآن وتبدأ كما يلي: " يسن والقرآن الحكيم". وقد حاول شارحو هذا الكتاب الرباني شرح معنى هذين الحرفين لكن بدون جدوى.

قسم بني بويافرور (بني بويافر)

- **سيدي بوصبر**، وهذا نعت مبالغ فيه إذا ما تذكرنا غضبه الشديد على محمد بن الطيب. وهو سيد بني بويافرور ويحظى قبره بزيارات مكثفة؛ 100 منزل؛

- **زغنغن**، قرية هامة من 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد الكرت؛

- **الزاوية**، 100 منزل ، على واد الكرت؛

- **الصارة**، (الصعوبة)، (التسمية عربية)، 100 منزل؛

- **سوق الخميس**، 300 منزل، وهو سوق هام؛

- **ثلاثة**، وهو سوق الثلاثاء الكبير، 500 منزل.

قسم مزوجا

- **سيدي موسى**، في الطرف الشمالي لبحيرة بوعرق، 100 منزل؛

- **مرسى بوعرق**، وهو شرم صغير يفصله عن القرية السابقة، ممر رملي ضيق يقع بين السبخة والبحر.

- **ثاليوين**، (المنابع)، (التسمية أمازيغية)، غير بعيدة عن بوعرق، 100 منزل.

- **الجمعة**، 100 منزل؛

- **بزغنا**، 300 منزل، جنوب سوق الأحد.

- **قصبة سلوان**، يوفر فيها واد بوعرق الصغير ، الماء الضروري للحامية المخزنية.

قسم بني بوغمرن

- **بوغمرن**، 50 منزلا ، غير بعيدة عن منابع نهر صغير، وهو واد سيدي موسى الذي يصب بالناضور. وقد أبلغني أهالي هذا القسم بوجود أطلال هامة أشرت إليها بالخريطة، ويسمونها ikhraben iroumien (أطلال النصارى). ولربما كانت تشكل آثار مدينة قديمة، نسي اسمها في البلد.

ويوجد عدد كبير من القرى الصغيرة التي تتكون من ثلاثة أو أربعة منازل فقط وخصوصا بقسم بني شيكر الكبير.

القوى العسكرية : 22 الفا من المشاة، عدد السكان المحتمل 110 ألف نسمة؛ التعليم القرآني منتشر بشكل كبير.

وتعتبر مليلية بمثابة المستودع الكبير الذي لا يتبضع منه القلعيون وحدهم، بل كل أهالي الريف الشرقي والدهرة حتى فجيج، وكل الجزء الشرقي من جبالة. ولا يمكن مناهضة هذه المنافسة الخطيرة إلا بخلق أسواق حرة على طول حدودنا مع المغرب. ونأمل أن تفهم الحكومة عاجلا ضرورة خلق مثل هذه الأسواق.

قبيلة كبدانة

(أصحاب الأفئدة) ، (التسمية عربية أمازيغية).

توجد كبدانة داخل صحراء القارت (الغاريت)، وهي قبيلة زناتية تتحدث لهجة أمازيغية تسمى الزناتية . ولا يتوقف القارت عن الامتداد رغم وجود مجرى مائي من أكثر المجاري أهمية على الشاطئ الإفريقي للمتوسط بعد النيل، وهو نهر ملوية [58] الذي يجتازه دون أن يحصره، متوقفا فقط أمام شساعة البحر، باسطا بكبرياء وأمام الصفعة الزرقاء ، مصبه الذي يمتد على خمسين كيلومترا، وهو مصب مترامي الأطراف، يمتد من بحيرة بوعرق إلى الحدود الوهرانية.

وقبل مغادرة قلعية للتوجه إلى قبيلة كبدانة، ارتأى محمد بأنه من الأفضل أن يتحدث مع التجار الكبدانيين الذين التقى بهم بسوق الجمعة لمزوجا، حيث أتوا لبيع الشعير والماعز والغنم. وقد تعرف عليهم بسهولة من خلال جلابتهم الرمادية ولغتهم الزناتية المختلفة كثيرا عن تمازيغت. وجلس بجانبهم فوق "تليس " مقلوب مليء بالشعير ، ليبدأ الحديث معهم.

وبعد أن تكلموا عن أشياء مختلفة، أعلن الجوال عن رغبته قائلا: " أنا طالب، أريد أن أرافقكم، كي أدرس القرآن على يد فقهائكم الذين يقال عنهم كل خير". وأجابه هؤلاء الناس الطيبون: " مرحبا بك، في موطن الإسلام" [59] . وبما أن الوقت كان ظهرا، وكانت هناك مسافة طويلة تنتظر الكبدانيين ليصلوا إلى ديارهم، فقد جمعوا أمتعتهم وأركبوا الدرويش على ظهر بغل وانطلقوا سائرين على جنبات البحيرة في البداية، ثم على شاطئ البحر فيما بعد. وأسرعت القافلة الصغيرة المكونة من البغال مشيا دون أن تتوقف ولو مرة، إلى أن غربت الشمس. هكذا، اجتازت

---

[58] – ملوية (الملتوية) (التسمية عربية). ويدعوها الأوروبيون Molouya لكن يجب أن تنطق Moulouia .

[59] – مادامت كل قبيلة تدعي بأن إسلامها أفضل من إسلام الاخرين، فنحن لن نتعجب من وجود أوطان للإسلام في هذه الزاوية الاسلامية الشاسعة المسماة المغرب

منطقة منبسطة وقاحلة، مبتعدة قصدا عن الأماكن المأهولة بالسكان، كي لا تلتقي بمجموعات من قبيلة أولاد ستوت التي كانت كبدانة في حالة حرب ضدها.

وعند حلول المساء، وبعد هذه المسيرة الطويلة والمتعبة التي نال فيها التعب كلا من الراكبين وبغالهم، وصل الجميع إلى التلال الأولى لجبل كبدانة. وهناك تبدد الخوف، فلصوص القارت يجوبون السهل ويسلبون أمتعة المسافرين الذين يعترضون سبيلهم، لكنهم يحتاطون من المغامرة وسط الجبال المنيعة التي تشكل فيها كل قرية ، قلعة صغيرة.

ونزل محمد بأول قرية توقف فيها أحد رفقاء الطريق، بعد هذا السفر المضني على ظهر حيوان يتعب راكبه، مما ولّد له آلاما بالظهر. وكان اسم القرية الصغيرة التي تتضمن عشرين منزلا هو: الزاوية. واستضاف الكبداني الرجل الغريب في منزله، حيث أدخله بيتا لا أثاث فيه، وجلب له حصيرة من الحلفة، تمدد عليها محمد على الفور. وبعد ساعة، جاء المضيف بصحن من الخشب يرتكز على قاعدة طويلة ويسمى " المثرد" عند العرب. وكان من اللازم إيقاظ الدرويش الذي شعر بالسرور عند رؤية الكسكس وقطعة اللحم الكبيرة الموضوعة فوق حبات السميد الصفراء. وأتى الرجلان اللذان لم يذوقا الطعام منذ الصباح، على الطعام كاملا، تاركان في عقر الصحن عظما فقط، سيمنحه محمد للطفل الذي كان يسقي الرجلين. وبعد ارتشاف فنجانين أو ثلاثة فناجين من الشاي، خلد الجميع إلى النوم.

وعند الصباح، استعجل الجوال الرحيل عندما علم بأن الطلبة يحظون بتكريم خاص بقرية بوعنقود. وبالفعل، فإن هذه القرية الكبيرة المكونة من 300 منزل، تكرم ضيافة الطلبة الذين يأتون لتعلم القرآن بمساجدها. وبها كان محمد يتناول وجباته، بعد جولاته الطويلة داخل القبيلة.

وتحد كبدانة شمالا بالبحر البيض المتوسط وغربا بقلعية وبني بويحيي وجنوبا بأولاد ستوت وبني يزناسن وشرقا بطريفة. وتتوفر على قسمين وهما بوعنقود (التسمية عربية) وإزخانين (المتخاصمون) (التسمية امازيغية)، ويجند كل قسم 2500 من المشاة، أي ما مجموعه 5 آلاف مقاتل بالنسبة لكل القبيلة. وهم في غالبيتهم مسلحون ببنادق إسبانية.

ويمتد جبل كبدانة، وهو عبارة عن تلال صغيرة متتابعة، مكسوة بشجيرات الفستق (الديرو)، إلى داخل قسم إزخانين. وحوله وأمامه يوجد القارت، السهل الصخري العاري، الذي يتوفر مع ذلك على بعض الشجيرات قرب الساحل.

ولهذا، فإن كل الأهالي استقروا بالكتل الجبلية بالجنوب، حيث الأرض غير مثقلة بالرمل والحصى، وأصلح للزراعة من أرض الصحراء القاحلة.وعلى القمم، تتواجد القرى الصغيرة بكثافة وقد جثمت على رؤوس جبلية pitons بأماكن صعبة العبور، محاطة بشجيرات التين

الوحشي. وعلى طول الأودية حتى السهل، تتوالى حقول الشعير على مدى البحر. لكن يوجد بها القليل من القمح، أما العدس فلا أثر له. وتكثر الأرانب البرية والحجل وبنات آوى برمال القارت، ونادرا ما تتعرض للمطاردة.

إن كبدانة تشكل جزءا من اتحاد أنجاد. وفي الفترة التي زارها الدرويش كان يحكمها قايد اسمه بوصفية. وهو رجل ديناميكي، ذو نفوذ وخبرة في السلطة، وهذا أمر نادر في الريف. ومرد ذلك في الحقيقة إلى كون الأهالي حكيمين في تصرفاتهم ومجدين في عملهم وغير سائبين. وهم يهتمون بتربية الغنم والماعز والأبقار والحمير والبغال. كما أنهم ورعون ويقدسون كل ما يرتبط من قريب أو بعيد بالدين، ويقدمون ذبائح كثيرة لجلب الفقهاء المشهورين إلى الزاوية. ويلقى كل طالب الحفاوة في مساجدهم العديدة. ولأن الطلبة المرحين يدركون المعزة التي يحظون بها، فإنهم يتهافتون على هذه القبيلة التي يسمونها "جبل الدقيق". وهي التسمية التي أعطيت أيضا لجبال بني زناسن وبني سنوس (بدائرة تلمسان)، لأنهم يتلقون الكثير من الدقيق الذي يصنعون منه خبزهم بأنفسهم ويبيعون الباقي الذي لا يمكن استهلاكه. ورغم بياض الدقيق، فإن الخبز يكون دائما مائلا إلى الاخضرار.

فهل يرجع ذلك إلى غياب الخميرة؟ حسب المعتقدات الشاسعة، فإن هذا اللون المثير الذي لا يفتح الشهية، راجع إلى دعوة أحد الأولياء الكبار المقدسين بالبلد، وهو سيدي إبراهيم الذي اقتنع بأنه من المستحيل جعل البشر سعداء بالكامل، طلب من الله أن يلبي كل رغبات أهالي كبدانة، وأن يسبب لهم بالمقابل متاعب خفيفة مع الخبز الأخضر. ووضع هذا الطلب سجعا وهو كما يلي:

ياكبدانة نيتكم ما تخيب ◆ وخبزكم ما يطيب

وعلى ساحل البحر، قبالة الجزر الجعفرية المحتلة من طرف الإسبان، أقام الأهالي مركزا يتواجد به حوالي مائة رجل لمنع أعدائهم من النزول إلى البر.

وكل رجل قادر، مطالب بالقيام بالحراسة. وبداخل الأراضي، جنوب المركز الأمازيغي، تتوزع منازل قرية البرج فوق الرمال التي تكسو السهل . وقد كانت الجزر الجعفرية التي يدعوها الريفيون حجرة كبدانة غير محتلة إلى حدود سنة 1849. وأرادت فرنسا السيطرة على هذه الجزر الجرداء لتشكل موقعا استراتيجيا أساسيا بمصب ملوية، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود الوهرانية. لكن السفينة التي أرسلتها لهذا الغرض، وجدت نفسها مسبوقة ببضع ساعات

نقل من طرف بارجة قشتالية، ستشعر مواطنينا المحبطين بأن العملية قد تمت باسم الحكومة الاسبانية.. وكان من اللازم الخضوع للأمر الواقع. فقد انتظرنا تسعة عشر سنة قبل أن نقرر وضع العلم الفرنسي فوق هذه الصخور القاحلة التي لم يكن أحد يدعي امتلاكها، وعندما عزمنا على إنجاز هذا العمل البسيط، وجدنا المكان محتلا. إنها القصة الحديثة للمكتشفين. ونتمنى من الله، ألا ينتشل منا المغرب، كجوزة طيب صغيرة، مثل تلك الجزر الجعفرية التي كانت قريبة جدا من الساحل الجزائري.

ومثل كل القبائل الموجودة بالقارت، فإن كبدانة تكون حارة صيفا بفعل الشمس الحارقة. وتهب فيها رياح الشرقي بنفس قوة وعنف رياح السموم simouns الصحراوية. ولا يؤثر ذلك كثيرا على السكان الفولاذيين الذين يعيشون في هذه المناطق الوعرة. وكيفما كان الحال، فإن مناخ البلد صحي. ففصل الشتاء الممطر والمعتدل جدا، يمنح القوة للأهالي كي يواجهوا حرارة الصيف الحارقة.

إن الكبدانيين يأتون إلى أسواقنا الحدودية لبيع مواشيهم وصوفهم. لكن منذ استقرار الاسبان بالجزر الجعفرية، لم يعودوا ليشتروا منا أي شيء، مفضلين اقتناء ما يلزمهم بالقرب منهم وبثمن بخس. ويمنع عليهم بيع أي منتوج إلى جيرانهم بالجزر، من النصارى الذين يمقتونهم بشكل لا يمكن وصفه. وكرحل حقيقيين، فهم لا يحبون ركوب السفن ويكرهون السمك الذي لا يصطادونه أبدا ولن تجد عندهم ولو قاربا واحدا. بالمقابل، فإنهم يقدمون على الأسفار البرية الطويلة، حاملين على بغالهم وحميرهم الشعير الذي يبيعونه لأوروبيي مدينتي نيمور ومليلية. وهم يفضلون المدينة الثانية على الأولى، لأن كل ما يعرض فيها أحسن وأبخس ثمنا. ويشترون بمليلية ما هو ضروري لهم، من سكر وصابون وشاي وأثواب قطنية وبترول وسكاكين وبنادق وخرطوشات إلخ..

والموردان الأساسيان للكبدانيين هما: ثروتهم الرعوية والحلفة التي يصنعون منها النعال ومماسح الأقدام والغرابيل لصنع الكسكس والخيام والحصائر المسطحة، وهي منتوجات تباع لعرب الجنوب. وهناك نهران بالقبيلة، الأول هو واد سيدي إبراهيم، وهو جاف باستمرار؛ والثاني هو نهر ملوية الذي يكون ممتلئا على الدوام. ويقسم واد سيدي إبراهيم النابع من جبل كبدانة، القبيلة إلى قسمين ويتجه نحو الشمال الشرقي حيث يأخذ في أسفل القرية التي يحمل اسمها، تسمية أخرى وهي واد البرج. وتستحق قرية سيدي ابراهيم وقفة خاصة.

فالنبي التوراتي الذي يعتبره العرب جدا لهم، يتوفر على ضريح في هذه المنطقة النائية من شمال إفريقيا. وهو مبنى عظيم، لكن لا علاقة له بضخامة ضريح أرتميز Artemise .

وتحيط به المنازل لتزيد من ضخامته، مشكلة حزاما غريبا من البنايات الحانية والمعوجة biscornues التي تنفتح على أزقة منحدرة مليئة بأحجار البناء وبالحصى. وتبسط قرية سيدي إبراهيم منازلها المائلة على قاع السيل ذاته. وعند رؤية المنبع الجميل الذي ينبثق وسط القرية، نفهم لماذا اضطر الأهالي إلى الانزواء بذلك المكان، إذ لا يوجد في أي موضع داخل القبيلة، منبع يضاهيه عذوبة ووفرة ماء؛ بل على العكس، ففي كل مكان، لا تشرب سوى مياه الخزانات.

من جهة أخرى، فإن نهر ملوية يخترق قبيلة كبدانة بعض الشيء ويزعم أولاد الحاج المتواجدين بالضفة اليمنى بأنه يشكل حدود قسمهم من جهة الغرب؛ وهذا نزاع قديم سبب في العديد من المآسي وفي إراقة الدماء. وهذا النهر الهادئ يجري هو أيضا منذ عدة قرون داخل رمال السهل وسط ضفاف غير مرتفعة، حاملا مياهه الحمراء الطينية العميقة. وفي فصل الشتاء يفيض عن حده ويغطي سهل القارت القاحل، الذي يصبح خصبا بشكل مؤقت بفضل الطمي الكثيف الذي يستغله الأهالي ويحولونه إلى بساتين الخضراوات، ما أن تتراجع مياه النهر. ولا يوجد أي مسكن على ضفتي هذا الأخير، فكل ما هنالك شجيرات الحومر (المسماة عند العرب شجيرات الطرفة)، وهو النبات الوحيد الذي ينعش هذه المنطقة البئيسة. وعند حلول الظلام وحتى الفجر، تأتي الوحوش المريعة التي تسكن هذه الأماكن الموحشة، لتروي عطشها في المياه ذات اللون القاني. فالنهر بالنسبة لها هو مرشد أمين، تسير على جنباته حتى البحر وتصعد مجراه بعد ذلك، بعيدا نحو الجنوب، لتصطاد الطرائد التي يرغمها العطش على المجيء إلى النهر.

ويؤكد المسافرون المسلمون بأن منبع ملوية يوجد بقبيلة القنادسة، ما بين تافيلالت وغورارا، أي بمئات الكيلومترات عن مصبه. ويرسم النهر منحنى كبيرا حتى دبدو، متلقيا من كل جانب مياه الروافد التي تملأ جنباته وتجعل منه ذلك النهر الرائع الذي يمكن رؤية مصبه قريبا من الجزر الجعفرية. ووسط الرمال العطشى للقارت وبعد أن يكون قد فقد نصف مياهه بسبب مجراه الطويل، يحتفظ النهر مع ذلك، وفي شهر يوليوز، بمائة متر عرضا ومترين عمقا. وفي الصحراء ، يكون مستواه في الغالب هو نفس مستوى السهل، ونراه وهو يجري دون ضفاف متميزا فقط عن التراب الأصفر للقارت بالشريط القاني والشاسع لمياهه.ويمكن عبوره في الصيف القائظ، عند بعض الأماكن المعروفة لدى سكان البلد. ويحكى أنه بعد هزيمة إيسلي، لم يرد الأهالي تعيين معابر النهر للأمير عبد القادر، وقد غرق العديد من رجال هذا القائد العربي، عندما حاولوا عبور النهر بجيادهم.[60]

---

[60] – وقد حدثت هذه الفاجعة بالضبط ، ليلة 21 دجنبر سنة 1846 ، أي بعد أكثر من سنتين على وقوع معركة إيسلي.

والشيء المثير هو أن أهالي كبدانة وطريفة لا يبالون بل ويحتقرون السمك ولا يصطادونه أبدا ولو لبيعه إلى الأهالي المقيمين بعيدا عن النهر. لذلك تعتبر ملوية من الأنهار الأكثر توفرا على السمك في المنحدر المتوسطي للمغرب.

القرى الرئيسية بكبدانة

- البرج، 300 منزل؛
- سيدي ابراهيم، 100 منزل؛
- بوعنقود، 300 منزل. ويوجد سوق الثلاثاء بالجنوب الشرقي لهذه القرية.
- إبركانن، (السود)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا؛
- بركانا، (المكان الذي يوجد به السود)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب غابة صغيرة من شجيرات الفستق.
- سوق الأحد، وهو سوق هام؛
- الزاوية، 20 منزلا.

القوى العسكرية: 5 آلاف من المشاة المسلحين جميعهم تقريبا ببنادق إسبانية. عدد السكان المحتمل: 25 ألف نسمة. السهل قائم في كل مكان.

البلد قاحل وجاف. التعليم القرآني منتشر بكثرة.

قبيلة تريفة

(التي تحيا في الترف)، (التسمية عربية) *

غادر محمد عند الفجر، قرية سيدي إبراهيم وسط كبدانة ووصل إلى ضفاف ملوية مع حلول المساء. ولأنه لا يعرف السباحة، فقد اضطر إلى قطع النهر على ظهر حصان وضع رهن إشارته من طرف مرافقيه من أولاد الحاج الذين رجعوا من حيث أتوا. وقبل أن يفارقوا الدرويش دعوه إلى أخذ الحيطة والحذر من هوارة الذين يجوبون المنطقة والذين أعلنوا الحرب على جيرانهم بالغرب. وأجابهم الجوال، وهو يشير إلى أسماله قائلا: " العريان في القافلة، عليه أمان

* - ملحوظة المترجم: يمكن أن تنطق أيضا طريفة من الطرافة.

الله". بعد ذلك، توغل داخل السهل دون وجل، وحيدا وبهدوء، وهو على علم مسبق بأن أي أحد لن يمس رجلا مسكينا مثله. وبعد نصف ساعة من المشي، سقط في كمين نصبه له أفراد من هوارة. وصاح فيه بعض فرسانهم: " أنت أيها الكلب، من أي بلد أتيت؟ ". وتوقف الدرويش عن المشي منتظرا مصيره، وأجاب باقتضاب: " أنا مغربي". فتوجه فرسان هوارة نحوه وجعلوه وسط جيادهم ، عاملين على ترهيبه، عبر تهييج جيادهم الرائعة التي تقف على حوافرها الخلفية وتحرك الأمامية في الهواء، مباشرة فوق رأس محمد. وسألوه مرة أخرى: " طيب، قل لنا كم عدد الرجال الذين يتوفر عليهم المغاربة [61] لمواجهتنا وستسلم من الموت". وأجابهم الدرويش ببساطة: " إنني معلم بزاوية سيدي رمضان" [62]. وكان يعرف التأثير السحري الذي تمارسه هذه الكلمات البسيطة على العرب. وعلى الفور، تراجع الفرسان، موسعين الدائرة حول الرجل الذي أصبح قويا في ضعفه؛ بل إن أفرادا منهم ترجلوا وتقدموا باحترام نحوه وقبلوا رأسه قائلين: " اسمح لنا أيها الفقيه [63] لقد كنا نعتقد بأنك من الغرب. وبما أنك تنتمي إلى الزاوية ، فعليك أن تركب الحصان وترافقنا إلى ديارنا ".

وللاحتفاء بالغريب المبجل، وضع رهن إشارته حصان جموح، يصهل ويقف على حوافره الخلفية باستمرار. ولم يستطع الدرويش الذي شعر بالرضى، أن يطلب منهم مطية أقل جموحا، لذلك ركب الحصان الهائج الذي كان فردان من هوارة يعملان على تهدئته. وما أن امتطى الحيوان حتى أحس بنفسه مثل ريشة تتلاعب بها الرياح، بفعل الوثبات غير المنتظمة للحصان الذي يريد طي المسافات. ومباشرة بعد أن أصدر رئيس المجموعة صوتا متميزا تحرك الفرسان سريعا، راجعين إلى الدوار.

وعند وصولهم أوقدت النار لتهيئ الشاي، وبعد ذلك قدم الطعام، وهو عبارة عن خروف مشوي تخترقه عصا طويلة لتسهيل شيه على النار؛ ولأن الفرسان وضيفهم كانوا جائعين، فقد أتوا على الخروف بأكمله.

وعند الصباح توجه الدرويش إلى قصبة شراعة.ومن الأمور التي كانت شائعة لدى سكان المنطقة، أن " مولى الساعة "، وهو بمثابة مهدي منتظر منذ قرون، ستكون انطلاقته من شراعة. ولن يستقر الجوال سوى يوما واحدا بهذه القرية، ليتوجه إثر ذلك إلى القلعة، وهي قرية واقعة

---

[61] – يقصدون بذلك، أولاد الحاج، جيرانهم بالغرب.

[62] – وتوجد بقسم بني منقوش، قبيلة بني زناسن.

[63] – وهذه التسمية هي بمثابة لقب متأدب، يوزع بدون تمييز، على كل من يعرف القراءة والكتابة.

قرب السوق المحاذي للحدود الفرنسية، بجانب واد كيس . وسيحظى هناك بصداقة قاضي تريفة، المدعو سيدي عبد الرحمن الذي أحسن ضيافته.

إن مساحة هذه القبيلة البحرية الموجودة بأقصى شرق الريف، لا تتعدى عشرين كيلومترا، طولا وعرضا. وهي تحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وغربا بكبدانة، وجنوبا ببني زناسن وشرقا بإقليم وهران. وتتضمن خمسة أقسام وهي: أولاد الحاج، هوارة (المهدمون)، أولاد الصغير، أولاد منصور، بني ملقوش. وتجند الأقسام الأربعة الأولى 1500 فارس في حين لا يجند القسم الأخير سوى 50 مقاتلا.

وتوجد تريفة كلية داخل سهل ينتج الشعير والقمح بوفرة، مما يسمح بعلف قطعان الماعز والأبقار والأغنام والجياد والبغال. وتظل هناك مساحات شاسعة غير مزروعة، تغطيها شجيرات الزفزوف jujubiers . وبالإضافة إلى واد كيس، يوجد نهر صغير يحمل معه القليل من الماء إلى هذه المنطقة الجافة؛ وهو واد شراعة الذي ينبع داخل قبيلة بني زناسن، حيث يأخذ اسم واد بني وكلان.

والتريفيون هم عرب رحل يعيشون تحت الخيام، لكنهم لا يتجاوزون حدود قبيلتهم. ويبدو أن هاته الأخيرة قد انقسمت إلى قسمين بفعل رسم الحدود الوهرانية. وأساس التغذية عندهم هو الكسكس والخبز الفطير، كما هو الحال في كبدانة. ويستهلك الشاي المحلّى بكثرة. أما الأرض فتحرث مباشرة بواسطة الجياد، بعد سقوط الأمطار الأولى للخريف.

إن تريفة تشكل جزءا من اتحاد أنجاد، وتتعرض أحيانا لتوغل بني زناسن ولمهاية في مناطقها الجنوبية؛ أما نصفها الشمالي فيخضع لسلطة قايد سعيدة Saida . وقصبة سعيدة ، كما يشير إليه إسمها، هي عبارة عن حصن صغير يقع على شاطئ البحر بمصب النهر الذي يشكل رسما للحدود مع المستعمرة الفرنسية. وأثناء عبور محمد بن الطيب للمنطقة، كان هذا الحصن الصغير يأوي العديد من جنود المشاة والفرسان النظاميين. وقد عين القايد البوخاري العجوز هناك، منذ أكثر من عشرين سنة؛ وهو يعيش الحياة الرتيبة للباشا المعزول داخل قصره الريفي manoir ، حيث لا يوجد ما يشغله، سوى منظر الأراضي المنبسطة والسطح المائي بالشمال.

ويوجد سوقان بالقبيلة وهما: سوق الخميس وسوق الأحد. ويقام الأول قرب قرية شراعة مرتين في الأسبوع، يومي الخميس والاثنين. أما الثاني، وكما يشير إليه اسمه، فهو يقام يوم الأحد ، ويتواجد عند طرف قرية القلعة يشطره واد كيس إلى شطرين، حيث يوجد نصف السوق بالأرض المغربية والنصف الثاني بالأرض (الفرنسية). والمثير في الأمر أن تجد الأهالي

مسلحين ببنادقهم في الجزء الغربي ومنزوعي السلاح في الجزء الشرقي. فمن جهة، هناك الحرية اللامحدودة والغياب التام للحكومة وسيادة قانون الأقوى والفوضى العارمة التي تعم ملايين الأشخاص الذين لا يجمعهم سوى شيء واحد، هو الإيمان بالإسلام.

ومن جهة أخرى، هناك الحضارة الأوروبية التي تمثلها سلطة عطوفة وقوية، لا تفرق بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، وتشيع الوئام بين أربعين مليونا من الأشخاص الخاضعين لإدارتها والذين تختلف معتقداتهم، لأنها أقرت إيمانا جديدا وهو: الإيمان بالوطن الفرنسي.

إن تريفة الواقعة بأقصى شرق القارت، هي منطقة فقيرة وجافة. ومع ذلك، فهي تتوفر خلال فصلي الشتاء والربيع، على مراعي جميلة ترتادها قطعان القبائل المجاورة. وهذه الأخيرة التي تتوفر على قوة أكبر ، تسيطر على المنطقة الصغيرة بالسلاح وتزيل كل النباتات الموجودة بهذه المروج الجميلة التي ستختفي في كل الأحوال، مع البدايات الأولى للقيظ حيث تستبدل الأرض الخضراء بأرض جرداء مصدوعة لن ينبت فيها شيء على مدى ثمانية أشهر. فمن أبريل إلى نوفمبر، سيظل القارت عبارة عن جحيم تسطع فوقه شمس حارقة.

ويقال بأن أهالي تريفة ليسوا كرماء ولا يحبون استضافة الغرباء. ونساؤهم أنيقات وهن يخرجن بحليهن. أما سلوكاتهن فعليها بعض المؤاخذات. ويرتدي الرجال البرنوس شتاءا والحايك صيفا، وينتعلون " البلغة " التي تجلب من تلمسان. وفي الأسواق، ترى المقاتلين المسلحين والنساء السافرات يتبضعون ويتكلمون عاليا ويتشاجرون ويساومون في أثمان الحيوانات والصوف والمواد المصنعة. ونظرا لقرب هذه الأسواق من التراب الفرنسي، فإن عملتنا الذهبية والفضية تحظى بالأولوية مقارنة بالعملتين الإسبانية والمغربية الشريفة.

وقد ساهمت مجاورة القبيلة لنا، في رفع أثمان منتوجاتها المصدرة إلينا، كالماشية بكل أصنافها والصوف والزبدة والبيض.

ويطلق التريفيون إسم مرسى ملوية على الخليج القائم بمصب النهر الكبير، بواسطة الطرفين الموجودين برأس الماء Cap de l'agouas وبالرأس الموجود غرب قصبة سعيدة. ويمكن لمصب ملوية الخليجي أن يكون في المستقبل، عبارة عن ميناء حربي وتجاري رائع.

القرى الرئيسية بتريفة

- قصبة شراعة وتوجد على واد يحمل نفس الاسم. وهي قرية صغيرة، يؤمها العديد من الزوار الذين يأتون إليها للتبرك بوليين صالحين معروفين وهما: سيدي ميمون وسيدي منظور. وقد بنيت المنازل فيها بالطين الممزوج بالتبن، وهي حائية وغير متينة.
- قصبة هوارة (المهدمون) : وتأوي هذه القصبة بعض الجنود المغاربة المختفين دوما وراء أسوارها. وهي تبدو مهجورة في السنين الأخيرة.
- الزرايب، وتحتوي على حوالي خمسين منزلا.
- القلعة، وتوجد على الحدود مع فرنسا (الجزائر).

القوى العسكرية: 6 آلاف فارس، عدد السكان المحتمل، 30 ألف نسمة. المنطقة سهلة وتوجد بها دواوير متنقلة في كل مكان . أما الأمية فهي عامة تقريبا.

قبيلة أولاد ستوت

(أبناء المرأة الشرسة أو الغولة)، (التسمية عربية)

نجد أولاد ستوت بالجنوب الغربي لتريفة. وهي قبيلة من العرب الرحل الذين يسكنون الخيام. وتتألف من حوالي خمسين من الدواوير الشاسعة التي يعيش سكانها في الفيافي المنبسطة للقارت المسيطر على المنطقة، حيث يغطيها بردائه الأصفر الرملي. ونجد بالغرب بني بويحيي وبالجنوب بني وكيل (الدهرة) وبالشرق بني زناسن وبالشمال كبدانة.

ويجري نهر ملوية بمنعرج صغير ، جنوب القبيلة. أما واد قارت فيتعرج من الشمال إلى الجنوب حاملا مياهه ذاته المذاق المالح (شلوق) والقليل الحموضة، إلى أن يلتقي مع ملوية عند شمال بني محيو. ويمنح هذا النهر الحياة لكل تلك المنطقة القاحلة. فبدونه لن يتمكن الرحل من الابتعاد عن ضفاف ملوية ولن تكون قطعان الماشية بمثل ذلك الجمال. والماء ذو المذاق المالح ليس هو ما قد يعتقده سكان المناطق الباردة. فهو مسكن للعطش بشكل جيد ويجعل من يتناوله بدينا ، وأهم ما يميزه بالنسبة للسكان الرعاة، هو مساهمته في تسمين الحيوانات التي تشربه. وهذا على الأقل هو رأي الرحل.

والأقسام الثلاثة لأولاد ستوت هي: أولاد زاير بالشرق، القارت (الجاف) بالوسط ولبخاسة (الماكرون) بالغرب. وعلى طول امتداد القبيلة (20 كيلومترا طولا وعرضا) لا نجد قرية ولا منزلا؛ مع استثناء وحيد بالشمال على حدود كبدانة، حيث تبرز قلعة صغيرة يأوي إليها، في زمن السلم، الفرسان المخزنيون الذين أرسلهم سيدهم لممارسة السلب أينما حلوا دون أن يستثنوا أحدا. إنها قصبة سلوان، أي الملجأ والسلوان بالنسبة لأولئك المنحوسين المقيمين بها.

وفي فصلي الشتاء والربيع، تقيم أكثر من 500 خيمة أجنبية بأراضي أولاد ستوت، وتشمل العائلات ومواشيها . وستختفي الخضرة سريعا تحت أسنان الحيوانات المجترة التي ترعى بكل حرية في المرج الشاسع جدا. ويتعايش أولاد ستوت، باعتبارهم رحلا، مع الوافدين الجدد ويرافقونهم شمالا وجنوبا، عندما ينفذ الكلأ بأراضيهم. وتتحرك الحشود العظيمة باستمرار، متوجهة دائما إلى الأمام، حيث تأتي على كل ما هو أخضر وتتعزز صفوفها بالأهالي الذين نفذ الكلأ بمراعيهم أيضا.

وعبر فيافي القارت وصحاري أنجاد، تتعارف قبائل الرحل فيما بينها وتتحالف وتتعاقد. فالعرب يجتمعون فيما بينهم وكذلك الأمازيغيون. وأحيانا تلتقي الحشود من العرقين، عندئذ تنشب المعارك بسبب مجرى مائي أو من أجل امتلاك مرعى متنازع عليه منذ القديم.

واليوم، وبعد قرون من الصراعات الدموية أصبحت أراضي العبور محددة، بحيث تمكن كل عرق وكل قبيلة من تجديد مجالها الخاص إلى جانب المنافسين الآخرين، الأقوياء والضعفاء. ويتم احترام هذه الحواجز المصطنعة التي تظل قائمة بفضل العبرة المأخوذة من المعارك القديمة واحترام التقاليد المتفق عليها.

إن أولاد ستوت لا يخضعون لأي أحد، فهم أناس خطيرون، لصوص وقطاع طرق، أذكياء بشكل كبير وحانقون. فمجرد رؤية زوج من النعال الجديدة أو خاتم يلمع أو ثوب نظيف إلى حدما، يلهب طمعهم ويدفعهم إلى ارتكاب الجرائم. ويصل بهم الأمر إلى حد سلب بعضهم بعضا، لأنهم مستعدون للنهب على الدوام ويتحينون الفرصة للانقضاض على فريستهم.

وهم يشترون البنادق الإسبانية والبضائع من مليلية. ويسمح لهم القلعيون المتصالحون معهم، باجتياز أراضيهم مع أخذ الاحتياط منهم؛ والستوتي عربي اللغة والملبس. وهو يتكلم لغة عربية خالصة، بل ويستعمل عبارات منتقاة. وهناك في قلب الصحراء، وفي ليالي السمر تحت سماء صافية، يحدث تنافس خاص بالفصاحة وحذاري من أي خطأ نحوي Solécisme . فالمسكين الذي يرتكبه، يتحمل وزره مدى الحياة، إذ سيشار إليه دوما أثناء الحديث، بالكلمة التي شوهها. وقد رويت لي حالة شخص معروف تحت لقب قلاعي. فهذا الشخص السيئ الحظ أخطأ

في نطق كلمة قلوع (أشرعة السفن). وقد حاول تدارك خطئه وتبرئة نفسه، لكن بعد فوات الأوان؛ بحيث كان محط سخرية الدوار كله وبقي اللقب مقترنا به.

وكما كان الشأن في عهد الرسول (ص) وفي المرحلة الزاهية لما قبل الإسلام، فإن البدو كانوا هم سادة اللغة وكانوا خطابيين رائعين. لذلك، كان من اللازم الإقامة بينهم لدراسة أغنى اللهجات العربية وأكثرها جاذبية وصعوبة. والستوتي الوحيد الذي تمكنت من استشارته حول منطقته وحول المغرب، كان يتكلم عربية فصيحة. وقبل أن يودعني أنشد الأبيات التالية، بخصوص هذا العمل الجبار الذي أقوم به؛ أبيات يمكن لراعي ستوتي من عشر سنوات أن يفهمها لأول وهلة، وهو ما لا يمكن لمستعرب أوروبي أن يتوصل إليه ما لم يقض سنوات عديدة في دراسة العربية وسط البدو. وتقول الأبيات:

تنتظر الأقصى بالشك والترديـــد	◈	وسط اليم الغارق مالجين سفونك
ما قاصد مرسى تلجأ رواح الميد	◈	ومياه اللجج غيــط فيهــا سيــرك
تحيا كل نهار على إقليـــم جديـــد	◈	مقتحم ذا المشقة قـــلاع سفونـــك

إن الستوتي المنافق والمحتال لا يكتفي بكونه لصا وشاهد زور، بل هو أيضا نمام ومفتري وقح. فهو لم يعد يتذكر العبارة العميقة للرسول محمد (ص)، البلاء موكل بالمنطق (بالعربية في النص الأصلي).

ويتهكم أثناء حديثه، على الجميع وخصوصا على الأمازيغيين الذين يدرك عيوبهم بدقة. وهو لم يسبق له أن رأى نصرانيا أو يهوديا، ومع ذلك فإنه ينسب إليهم كل رذائل الدنيا. فكلمة رومي هي شتيمة خطيرة؛ أما لفظة اليهودي فهي حقيرة وبمثابة إهانة قاتلة، لا توجه إلا للحيوانات القذرة، ولا يمكن أن توجه أبدا إلى حيوانات محترمة كالحصان أو السلوقي مثلا.

وهؤلاء الرحل الذين يعيشون تحت الخيام ليست لديهم مساجد ولا مدارس. وتتوفر العائلات الميسورة على مربين، تقتصر معرفتهم على القرآن الذي يتم تحفيظه للأطفال دون تفسير.

وفرسان القايد مقبولون بالقبيلة. وقد اقتضت العادة أن يستقبل الفارس الذي أرسله سيده إلى الدوار من أجل مهمة؛ استقبالا لائقا. ذلك أن كل عائلة تقدم له يوميا وبالتناوب، دجاجة ورطلين من الدقيق ونصف رطل من الزبدة وبضع غرامات من الشاي ووجبة من الشعير

لحصانه. ويمنح له تعويض يومي من خمسة فرنكات، على حساب ذلك أو أولئك الذين كانوا سببا في مجيئه إلى القبيلة. وتتم الأمور بنفس الشكل تقريبا في كل دوائر وجدة.

إن قوافل الدهرة المتوجهة إلى مليلية لشراء البنادق والبارود والخرطوشات والسكر والشاي والملابس القطنية، تمر عبر الحدود الشرقية لأولاد ستوت وتصل إلى تريفة، ثم تتوجه بعد ذلك إلى القلعة القشتالية مرورا بأراضي كبدانة وقلعية. ويمكننا أن نتصور أهمية المعاملات التجارية من خلال العدد التقريبي للقوافل الذي يصل إلى مائة سنويا على الأقل، في حين يتراوح عدد المواشي ما بين 100 إلى 500 بالنسبة لكل قافلة..ألا تعتقدون بأن العديد من الأسواق الحرة الموزعة على حدودنا، قد توقف بعض القوافل أثناء مرورها؟ هل سيتردد الأهالي في اقتصاد مئات الكيلومترات لو وجدوا عندنا نفس الأثمان البخسة ونفس البضائع الموجودة عند الإسبان ؟ إن طرح السؤال هو الطريق إلى حله؛ إذ يجب علينا أن نبدأ بمواجهة المعقل القشتالي (مليلية) تجاريا، وأن نشجع جيراننا المغاربة على اتباع طريق الشرق، ونبرهن لهم بأن الصناعة الفرنسية أفضل من صناعة العديد من البلدان الأوروبية الأخرى.

ويتكون الطعام الأساسي لأولاد ستوت من كسكس الشعير، كما يشكل الحلزون المطبوخ والكليلة(جبن مصنوع من اللبن المغلى) طعاما إضافيا مرغوبا فيه. ويراب الحليب عبر خلطه بالشوك الداخلي للخرشف (الحكة).

وقد احتفظ محمد بن الطيب بذكريات سيئة عن أولاد ستوت. وتؤكد الرواية التالية على أنه كان صائبا في حقده عليهم. ففي أحد الأيام، اندس وسط مجموعة من الحصادين والمياومين الريفيين، الراجعين إلى ديارهم بالقبائل الموجودة بالريف. وكان ضمن هذه المجموعة رجل يدعى السباعي، أصله من أولاد السبع بإقليم مراكش. وهو متزوج من امرأة شابة من أولاد زاير (قبيلة أولاد ستوت). وكان هذا الرجل راجعا إلى دواره الواقع قرب سوق الأحد، حيث كان صهره وزوجته بانتظاره. وقد سبق لابن الطيب أن اشترى من سوق الجمعة الذي غادره، نعلين جديدين من النوع الفاسي. وكان هذا الاقتناء سببا في إفراغ جيبه، إذ أدى ثمن النعلين فرنكين وخمسين سنتيما، وهذا كل ما كان كسبه من جراء بيعه حجابا لبدوي عنيد، مدعيا بأنه يقي من أمراض العيون. ولأنه كان مطمئنا بتواجده وسط الحصادين، فإنه لم يخف نعليه داخل قلنسوته ، بل لبسها وتابع السير مع رفاقه الذين كانت أرجلهم العارية والوسخة تتناقض بشكل مثير مع الجلد الأصفر الجميل للنعلين. ولم يكن السباعي هو الوحيد الذي لاحظ أناقة الدرويش غير المعهودة، إذ أن رجلا يلبس مثل هذين النعلين لا بد وأن يحمل معه نقودا. والمهم هو سلبه متاعه دون إثارة انتباه أي أحد؛ لذلك وجب استدراجه إلى دوار الزوجة والصهر؛ وسيكون هذا الأخير مسرورا

بالحصول على بعض النقود الفضية كمكافأة له على تواطئه. وعندما اقترب الجميع من سوق الأحد، أظهر السباعي فجأة لطفه، وتوسل إلى الرحالة بأن يقبل المجيء عنده والاستراحة داخل خيمته الصوفية. وقبل محمد الدعوة، مدركا حيلة مضيفه. لكنه لم يكن لديه مال وكانت ملابسه في حالة رثة، فما الذي يمكن أن يفعله هذا الرجل؟ هل سيقوم بقتله؟ إن هذا غير ممكن، إذ لا يقتل الإنسان بدون سبب، حتى ولو كان في المغرب.

وعليه، خاطب الدرويش السباعي قائلا:" سأرافقك إلى حيث تسكن".ولم يخطر بباله ما قد يحدث لنعليه. إثر ذلك ودع مجموعة الحصادين الذين تابعوا سيرهم؛ ورافق مضيفه، معتقدا بأنه سيظفر بطعام جيد وسيضحك على المغربي الطماع.

ومن جهته، فإن السباعي كان يتصور بدون شك، أن المائتين أو الثلاث مائة فرنك التي بحوزة الدرويش ستعفيه من الحصاد الشاق لمدة سنتين أو ثلاث سنوات. وعند وصولهما إلى الدوار، تبادل السباعي وصهره نظرات ذات معنى، بخصوص التعامل مع هذا الغريب. لكن لسوء حظهما، فقد كان يتواجد بالخيمة خمسة رجال من أصدقاء العائلة، وصلوا في الليلة السابقة وكانوا يتأهبون للذهاب إلى سوق الأحد بعد تناول الغذاء. وأعلن الدرويش على الفور: " هذا أمر جيد، سأذهب أنا أيضا إلى السوق وسنأخذ الطريق معا ". وكان ينظر إلى مضيفه بتهكم؛ غير أن هذا الأخير لم يظهر انفعاله وغير خطته، حيث نصح الرحالة بمرافقة الرجال الخمسة الذين سيشيعهم صهره. وبعد تناول الطعام الذي كان مكونا من خبز الشعير والزبدة والعسل ، أخذ الجميع الشاي. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر استعد المسافرون للرحيل بعد أن خفت حرارة الشمس. وودع الرحالة مضيفه السباعي بتأثر مصطنع قائلا بسخرية: " ياعزيزي ، كافأك الله وملأ منزلك بالأطفال.. وأغناك.. ومنحك السعادة .." وتظاهر السباعي بالتأثر بفعل هذه الدعوات المتتالية، وأعلن بأنه غير رأيه وأن بإمكانه مرافقة الجماعة. وإثر ذلك، أمسك بيد الدرويش، وهي علامة على روابط الصداقة لدى المغاربة.

ولما ابتعدوا عن الدوار بحوالي كيلومترين أو ثلاثة، تظاهر السباعي بالعرج وطلب من صهره بأن يتابع السير مع الرجال الخمسة، ثم شرع يشتكي قائلا: " اللعنة على هذه الأحجار، لقد آلمت رجلي. وأنت يا عزيزي محمد ابق معي وسأتكلف بإرشادك، أما الآن فسأتكئ عليك من جانب وعلى عصاي من جانب آخر". ولم يكن بإمكان محمد الابتعاد عن الرجل الذي كان يمسك به بيد حديدية. أضف إلى ذلك، أنه لم يكن يملك فلسا واحدا، بحيث سيكون الآخر هو من سيقع في الفخ. وتابعا السير فترة من الزمن صامتين، ولم يعد يظهر أمامهما أحد. عندئذ توقف السباعي فجأة وأبان عن وجهه الحقيقي، صارخا في الدرويش:

- هل عندك نقود؟
- لا
- سأقتلك
- افعل ما تريد.

ولما فتشه السباعي بدقة دون أن يجد ولو سنتيما واحدا، انفعل وصرخ في وجهه قائلا:" أيها المغاربة الكلاب، تغادرون بلدكم لممارسة شطارتكم في جهة أخرى. هيا اخلع نعليك". ولم يكن محمد يتوقع هذا الأمر، فحاول المجادلة وإقناع اللص بأن رجليه أكبر من النعلين؛ لكنه سيتخلى سريعا عن محاولته أمام العصا المرفوعة فوق رأسه. هكذا، وضع السباعي المسروقات بقلنسوته وقفل راجعا إلى الدوار. وبعد أن سار عشرين خطوة، خاطب الدرويش قائلا: " آه، لقد نسيت، ها هي طريقك التي ستوصلك إلى وجهتك ". وكانت يده تشير إلى الوجهة غير الصحيحة، التي لن يتبعها محمد طبعا. وافترق الرجلان، وأخذ كل واحد اتجاها معاكسا للآخر. وبعد ساعات من المشي المتعب فوق أرض حارقة، وصل محمد إلى دوار كبير. وتحت الخيمة التي لقي بها الترحاب، فرح بلقاء أناس سبق له التعرف عليهم بمزوجا (قلعية)؛ وهم أقرباء للقايد الحاج حدو، وقد اضطروا لمغادرة قبيلتهم بعد نفي الجماعة لرئيسهم. وكان القايد يعيش معهم، على أمل أن يرجعه تمرد ما بالقبيلة إلى منطقته.

وبعد أيام، التقى الدرويش وأصدقاؤه في سوق الأحد، بالسباعي الوغد وهو يتجول بالنعلين المسروقين. واقترب منه القلعيون بغرض استردادهما إلا أن المجرم أكد بلغة فصيحة، بأنه هو مالك النعلين وأن الرحالة كذاب وهذا خير تبرير للمثل العربي المتعلق بقبيلته والذي يقول:

أولاد ستوت مولاة بهوت ﴿﴾ الله لا يرحمها يوم تموت

وحسب أسطورة عربية قديمة، لها علاقة دون شك بنفاق هؤلاء الرحل وبتسمية قبيلتهم أولاد ستوت التي تعني أبناء المرأة الشريرة أو الغولة، فإنه في الزمن السحيق الذي لم تكن فيه هذه المنطقة الرهيبة مـــأهولة بالسكان بعد، فإن أهالي المناطق المجاورة لاحظوا يوما تواجد غولة يتبعها اثنين أو ثلاثة من أبنائها. وكانت تجوب المنطقة التي منحتها اسمها وتلتهم الناس الذين تصادفهم في طريقها، كما تطعم أبناءها لحم الآدميين.. ولم يعرف أي أحد من أين أتت، كما لم يظهر برفقتها أي ذكر، سواء كان غولا أو إنسيا، وهو ما دفع إلى القول فيما بعد، بأن أولاد

ستوت لا أب لهم. وبعد أن نشرت الخراب حولها مدة سنوات، اختفت فجأة. فإلى أين ذهبت؟ لا أحد يعلم، لأنه لم يرها أحد بعد ذلك. لكن أبناءها ظلوا بصحراء القارت، ومنهم انحدر أولاد ستوت الحاليين، الذين يعتبرون خير خلف لخير سلف.

معلومات عامة حول أولاد ستوت

باستثناء قصبة سلوان، ليست هناك منازل مبنية فوق كل تراب هذه القبيلة من الرحل. وتعتبر الأماكن التي يقام فيها سوق الأحد وسوق الجمعة بشمال القبيلة، عارية ومنبسطة مثل راحة اليد، إذ لا وجود فيها لمسكن ولو من الطين والتبن.

القوى العسكرية: 4 آلاف فارس، مسلحين ببنادق إسبانية. عدد السكان المحتملين 20 ألف نسمة. المنطقة منخفضة ورملية، لكن توجد بها مع ذلك، بعض حقول الشعير. التعليم شبه منعدم. الاستقلالية مطلقة.

قبيلتا بني زناسن وبني محيو

(تعديل لكلمة يحيى أو ماحي)

بعد أن غادر منطقة أولاد ستوت البئيسة، توجه محمد إلى قبيلة بني زناسن. وهناك طلب الأكل واللباس والغطاء من زاوية سيدي رمضان ببني منقوش. وكان بالزاوية حوالي عشرين طالبا مجدين ومنهمكين في حفظ سيدي خليل، ذلك الفقيه العربي المعروف باقتضاب وغموض أسلوبه. وعلى مدى شهر، سيجعل الدرويش من هذه القرية مركز " عملياته ". بعدها سيقضي شهرا عند بني عتيق وشهرا آخر عند بني وريمش وشهرين عند بني خالد، متنقلا عبر الجبال والوديان. وهذه العبارة مستعملة في محلها، لأن القبيلة توجد كلها تقريبا وسط كتلة جبلية، تضاهي في جمالها وخضرتها أجمل المناطق الريفية التي سبق أن زرناها. وتحد شرقا وفي الشمال الشرقي بإقليم وهران وشمالا بتريفة وفي الشمال الغربي بكبدانة وغربا بأولاد ستوت وبني محيو وجنوبا بقبائل الدهرة. وهي تمتد على مساحة أربعين كيلومترا من كل الجهات، وتتوفرعلى أربعة أقسام وهي: بني خالد، بني منقوش، بني عتيق، بني وريمش (أولاد المجموعة)، (التسمية عربية أمازيغية). وكان من الحتمي أن تندمج قبيلة بني محيو الصغيرة جدا، داخل جارتها الشرقية الكبيرة، حيث تخضع لها بشكل مطلق منذ قرون.

وقبيلة بني زناسن مستقلة تقريبا، رغم المجهودات المتتالية للسلطان الذي يقوم بكل ما في وسعه ليظفر منها بما يشبه الولاء، لذلك فإن قيادها هم أول من يثير الاضطرابات، حيث يتسببون في الحروب بهدف تضخيم ثرواتهم.

ولكي لا تظل معزولة بجانب السكان العرب والأمازيغ المتحدين، فإنها كانت ملزمة، رغم الحصون الطبيعية التي تشكلها جبالها، بالانضمام إلى لف أنجاد الذي يشمل بني زناسن، بني محيو، تريفة، كبدانة، اولاد ستوت، بني بويحيي، السذجة، بني بوزيكو، لمهاية، بني يعلى، بني وكيل، الزكارة. وهناك مجموعتان متميزتان تفصلان هذا اللف الهائل، فمن جهة يوجد العرب ومن جهة أخرى يوجد أمازيغيو زناتة أو الزناتيون.

ويمثل العرب كل من تريفة، أنجاد، لمهاية، السذجة، بني وكيل، أولاد ستوت وكلهم رحل يعيشون بالسهل وبالصحراء.

وبالنسبة لزناتة نجد بني زناسن، بني محيو، كبدانة، بني بويحيي، بني بوزيكو، الزكارة.

وتقوم روابط تضامنية متينة بين قبائل كل مجموعة، وغالبا ما يتنازع العرب والأمازيغ فيما بينهم. حينها تحدث مجازر رهيبة وغزوات شرسة، يظل الفريق المهزوم على إثرها، منهوك القوى مدة طويلة.

وتمتلك قبيلة بني زناسن أراضي شاسعة وجميلة ترويها المياه بكثرة وتنمو فيها الأشجار بوفرة وتحيط بها الجبال العالية الآهلة بالسكان. وتظهر كتلة التل التي بدت من قبل وكأنها غارقة في رمال القارت، وقد اكتست قممها بالثلوج في فصل الشتاء. وتشغل هذه الجبال مساحة شاسعة محاطة بالسهول من كل جانب، ففي الشمال توجد الأراضي المنخفضة لتريفة وكبدانة؛ وبالغرب هناك الأفق الشاسع للقارت القاحل وبالجنوب توجد صحراء أنجاد وبالشرق هناك الأراضي المتموجة إلى حد ما، على الحدود الفرنسية (الجزائرية). وهي تشبه كتلة جبال الوسط الفرنسية وإن كانت أعلى منها، وذلك من خلال الركام المتشعب للسلاسل الجبلية التي تمتد إلى السهول المحيطة بها. وتمر السلسلة الرئيسية، المسماة من طرف الأهالي بجبل بني زناسن، من الشرق إلى الغرب، تاركة وراءها بالجنوب والشمال، تلالا مخضرة مليئة بالقرى. وعادة ما تأخذ هذه الجبال الثانوية أسماء الأقسام التي تتواجد بها؛ ومن أشهرها جبل تافوغالت (جبل الغيلان أو الفواكه غير الطازجة) (التسمية عربية أمازيغية) بالشمال الغربي من بني عتيق.

وعلى القمم، نرى أشجار البلوط والفستق والسنديان والدلب والجوز؛ وفي الوديان وعلى جانب المنحدرات، توجد العديد من أشجار الفواكه مثل شجر التين والبرتقال والخروب واللوز والجوز والزفزوف والرمان والتي تحيط بها الكروم المتسلقة. وفي أسفل التلال وبالسهول، توجد

الحلفة وشجيرات التين الوحشي بكثرة. وتروى هذه المنطقة الجميلة بمئات المنابع وبالعديد من الأنهار. ومن بين هذه المنابع نذكر :

- عين صفرو ذات المياه الوافرة والعذبة والصافية مثل البلار.
- عين الصفا وتوجد أسفل العين الأولى.
- عين بني عتيق .
- عين بني موسى.

أما الأنهار الرئيسية فهي:

- واد بني وريمش المعروف باسم واد تاكما (الوادي)، (التسمية عربية أمازيغية) ويجري من الجنوب نحو الشمال، عابرا وديانا خصبة، وهو رافد من روافد نهر ملوية الكبير.
- واد زكزل (الأراضي الغرانيتية)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهو يحمل مياهه الصافية وسط مروج رائعة.
- واد بني وكلان (واد أبناء العبيد)، (التسمية عربية أمازيغية)؛ ويشكل عبر التقائه بواد زكزل، نهرا هاما، يعتبر أكبر رافد لملوية في الريف.
- واد صفرو، يجري من الشمال نحو الجنوب ويخترق الدهرة جنوب مولاي إدريس.
- واد بني خالد، وهو غير معروف تحت هذا الإسم، ويشتهر باسم واد عجرود (السنابل غير الناضجة)، (التسمية عربية) وواد كيس [64].
- إن أقسام القبيلة كبيرة وآهلة بالسكان وتتضمن عرقا قويا وشجاعا يصمد في وجه القبائل العربية الناهبة؛ ونستثني هنا بني محيو، وهم رحل يعيشون تحت الخيام، لأن موقع قبيلتهم يوجد بالسهل، على عكس باقي الأهالي الذين تتحصن قراهم بالجبال. ويجند بني وريمش للدفاع عنهم ألف رجل، نصفهم فرسان والنصف الآخر مشاة. أما بني محيو، جيرانهم الرحل الذين يعتمدون على الفرس كلية، فهم يجندون حوالي ألف فارس. ولا يتوفر بني عتيق إلا على المشاة الذين يبلغ عددهم تقريبا 1200 رجل. غير أن الحصن المنيع لبني زناسن، يشكله كل من بني منقوش الذين يجندون لوحدهم 5 آلاف من المشاة، وبني خالد بثلاثة آلاف فارس.

وقد شيدت القرى على ضفاف الأنهار وقرب منابع المياه، وحولها توجد بساتين الخضر والفواكه الرائعة التي تسر الناظرين.

وسيلاحظ المرء التناقض الكبير مع القارت البشع الذي تتوقف كثبان رماله عند سفح جبل وريش..

---

[64] - يظل اسم واد كيس من أشهر هذه الأسماء.

ولأن ملوية كانت تشكل الحدود القديمة لموريطانيا الطنجية، فإن كل المنطقة الرائعة، الواقعة ببني زناسن، وجب أن تشكل جزءا من إفريقيا الفرنسية. ونتساءل لماذا عوض واد كيس الصغير، أثناء رسم الحدود النهائية، المجرى الهائل الذي كان يعتبر منذ القدم، كفاصل طبيعي بين عالمين مختلفين جدا وهما: المغرب الأقصى (أي المغرب الحالي)، والمغرب الأوسط (أي جزائرنا الحالية) *، ويعترف المغاربة فيما بينهم فقط، بأنه كان من حق فرنسا بعد انتصارها بإيسلي، أن تطالب بكل المنطقة الممتدة حتى ملوية. وقد أدركت من اعترافهم هذا، كيف أننا خدعنا مرة أخرى من طرف الدبلوماسية العربية. فقبل أن يرسل ابنه سيدي محمد لمحاربة الفرنسيين على الحدود الجزائرية، قال السلطان مولاي عبد الرحمن: " احتفظ برسائلي الطيبة وأحرق السيئة، لكن اتبع ما آمرك به في الرسائل السيئة ولا تعر اهتماما لما هو موجود بالطيبة ". وسيطبق الشاب تعليمات أبيه بحذافيرها. وكانت كل مراسلة تتضمن رسالتين، الواحدة طيبة والثانية سيئة. ففي الأولى، كان السلطان يناشد قائده العسكري بألا يهاجم الفرنسيين وأن يكون متسامحا معهم إلى أقصى الحدود وأن يمنع كل انحراف على أرض المعركة ويوقع في أقرب وقت معاهدة سلام صادق ودائم.

لنر الآن الوجه الآخر للعملة، إذ تقول الرسالة الثانية ما يلي: " قم بدحر هؤلاء النصارى الكلاب، اقتلهم أينما وجدتهم ولا تتسامح مع أي واحد منهم، فليس هناك سلم مع هؤلاء الكفار.."

وبتاريخ 14 غشت 1844، هرب سيدي محمد من ميدان المعركة، بعد أن انهزم جيشه نهائيا؛ وقد ترك الأمير خيمته وأمتعته، وحتى مظلته الشهيرة التي أثارت فيما بعد، إعجاب الفضوليين بباريس.

ولم تبق في صناديقه سوى الرسائل الطيبة أما السيئة فقد أحرقت عن آخرها منذ مدة. وقد انبهر الفرنسيون بطيبوبة السلطان الرفيعة. وسيبادر هذا الأخير في نفس الوقت، بالتبرؤ مما فعله ابنه، قائلا بأن الأمير لم يطع أوامره وبأن بإمكان كل مطلع على رسائله التأكد من ذلك. وسقط مواطنونا السذج والطيبين في الفخ، إلى درجة الاعتذار تقريبا عن انتصاراتهم. وتخلوا بطيبة خاطر، لعبد الرحمن المناور، عن أجمل الأراضي التي احتلوها بقوة السلاح.

* – ملحوظة المترجم: لسنا في حاجة إلى تأكيد المنحى الاستعماري الواضح الذي يتخلل كلام موليبراس والذي يبرر الأطماع الفرنسية المتعلقة بالمغرب، بعد أن أحكمت فرنسا السيطرة على جزائر(ها).

ويبرز غنى هذه المنطقة التي يمكن تشبيهها بسويسرا صغيرة، عبر العدد الكبير من الزوايا والمساجد التي نجدها في كل مكان والتي تكون دوما مليئة بالطلبة وبالمؤونة . وإليكم أسماء بعض هذه الزوايا.

- زاوية سيدي الحاج محمد الصبري، حيث يتلى " ورد " درقاوة؛
- زاوية محيي الدين (" ورد " الشيخ عبد القادر)؛
- زاوية سيدي رمضان ("ورد" وزان، أي " ورد" مولاي الطيب)؛
- زاوية سيدي عبد القادر (" ورد" هذا الولي)؛
- زاوية سيدي الحاج بنسعيد؛
- زاوية سيدي علي البكاي؛
- زاوية مولاي ادريس؛

وتوجد سبعة أسواق بالقبيلة وهي:

- سوق الأربعاء ببني وريمش؛
- سوق الأحد بقرية بني موسى ، قسم بني عتيق؛
- سوق الثلاثاء بتازاغين، قسم بني عتيق؛
- سوق الاثنين ببني منقوش؛
- سوق الأربعاء ببني منقوش؛
- سوق الأربعاء بصفرو (بني منقوش)؛
- سوق الاثنين ببني خالد.

ونساء القبيلة أنيقات وهن يذهبن إلى الأسواق سافرات الوجوه ولا يخشين نظرات الرجال. وتدعي بعض الألسن الخبيثة بأن بعضهن يعانين من برود جنسي. ومن جهتهم، فإن الرجال يرتدون جلابة رمادية مفتوحة في نصفها الأسفل، مثل جلابة الكبدانيين. ويضعون البرنوس فوقها خلال فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فغالبا ما يكتفون بالحايك. وهم لا يتخلون أبدا عن أسلحتهم، وهي عبارة عن بنادق جيدة، تم شراؤها من الاسبانيين بمليلية وعن خناجر من صنع تاغزوتي. ويتحدثون لهجة أمازيغية تسمى الزناتية، وهي متداولة ما بين وجدة ودبدو.

ونجد في الأسواق كل منتوجات المنطقة، من أبقار وأغنام وماعز وحمير وبغال وجياد ودجاج وفواكه وخضر وشعير وصوف وعسل. كما نجد مختلف المنتوجات الاسبانية والفرنسية كالشموع والبترول والسكر والشاي والبنادق والخرطوشات والبارود والرصاص والأثواب. وقد

يتعجب المرء من الكم الهائل للخروب المعروض للبيع، إذ أن الأهالي يشتهون هذه الكبسولة الطويلة والمسطحة التي تتخذ أحيانا أشكالا غريبة. وتتواجد شجيرات الخروب بوفرة في كل القبيلة. لكن الروعة تتجلى بالخصوص في بساتين البرتقال التي تعطر الوديان البهية لبني وريمش. وتكثر أشجار البرتقال على طول ضفتي واد زكزل. كما أن قرية زكزل نفسها مليئة في وسطها بهذه الفاكهة الخالدة وبهذه الأزهار الثلجية التي يتغنى بها المنشدون الزناتيون، عندما يقومون في فصل الربيع بجولات فنية عبر المناطق الغنية بالقبيلة. ويعود هؤلاء المنشدون إلى بيوتهم محملين بأكياس من هذه الفاكهة الذهبية التي تلقوها مقابل إنشادهم والتي ستباع إلى التجار المتجولين الذين سيعرضونها بقصبة العيون ووجدة ونيمور وتلمسان.

إن الدرويش الشغوف بالبرتقال والفواكه الأخرى والحلويات، وباختصار بكل ما هو صالح للأكل، سيجد في منطقة بني زناسن جنة حقيقية. وسيزورها مرتين، الأولى سنة 1888 والثانية سنة 1893، حيث لن تفوته المآدب التي تقام بها، بل إنه سيتخذ كل التدابير للاحتفال بعيد الأضحى في القرى المترفة هناك. لذلك نراه باستمرار، متجولا في أراضي القبيلة باحثا عن مكان الوعدة وعن الطعام الجيد.

وبزاوية تازاغين التي كان متعلقا بها على الخصوص، لدواعي بطنية لا يتسع المقام لتحليلها هنا، كان الطلبة يعتبرون الدرويش غير جدي وغير قادر مثلا على القيام بمهمة التدريس التي تشغل الوقت وتستدعي الاستقرار، والتي كان يقوم بها معلم متعصب ومشاكس، أسلم الروح لباريها. فقد كان الدرويش يجوب البلد ويتغيب يومين أو ثلاثة أيام متتابعة، ثم يعود من جولاته ملطخا بالوحل وبالغبار، ممزق الثياب بسبب الأشواك الموجودة بالمسالك الضيقة التي يهوى المرور منها، وسط الكتل الجبلية للمنطقة برمتها.

وفي إحدى الأمسيات، عند السحر، جلب معه إلى الزاوية رجلا التقى به وسط الغابة، حيث كان تائها وسط الأشجار الكثيفة. وكان عمر الرجل أربعين سنة تقريبا، وقد تلقى تكوينا متينا بفاس وأجهد نفسه في التحصيل مدة عشرين سنة، وما زال مقتنعا بأنه غير مؤهل لشغل كرسي أستاذ النحو بمسجد من المساجد العديدة بالعاصمة الشريفة. وقاده قدره إلى بني زناسن وهو خاوي الوفاض، حيث أكرمت ضيافته في كل المساجد التي ينام بها والتي يغادرها صباحا، بحثا عن عمل وطالبا فقط بأن يحظى بتعليم مبادئ القراءة للأطفال من ست سنوات. لكنه لم يجد شيئا، بسبب الحسد الحاقد للمتحذلقين الذين يمنعونه بدون رحمة، من كسب قوته بشرف. وقد دام هذا الأمر منذ مغادرته لفاس. وعندما وجده الدرويش مستلقيا فوق العشب، اعتقد في البداية بأنه واحد من المتسولين الجوالين الذين يوجدون بكثرة بالمغرب. لكن ، لما تابعا الطريق سوية وتحدثا

معا، اندهش محمد من العلم الغزير للغريب وتنبأ له بمستقبل زاهر وبنجاح باهر بزاوية سيدي رمضان، شريطة أن يصارع بقوة من أجل نيل المكانة اللائقة به، هذا مع العلم، بأن مدعي العلم من الشباب، سيتراجعون بسرعة أمام تفوقه الذي لا يضاهي. واختتم الدرويش ثناءه بالقول: " عندما تحصل على كرسي النحو أتمنى ألا تنساني". قال ذلك وهو مغتبط في قرارة نفسه، ومتخيل لجبال الأطعمة التي ستقدم لمحسوبه من طرف العائلات المعترفة بعلمه. غير أن الرجل الذي تعود على الصبر، اكتفى بأن طأطأ رأسه، كعلامة على الموافقة؛ إذ من الذي يمكنه التنبؤ بالمستقبل؟

هكذا، تابعا السير كصديقين حميمين، سعيدين بلقائهما وبتعاقدهما وبإشراك إمكانيتهما المحدودة في الصراع من أجل اكتساح الزاوية معرفيا. وعند المساء، كان كل معلمي القرية الذين أخبروا بمجيء هذا المنافس الخطير، حاضرين تحت قبة الزاوية. وقد أمطر الوافد الجديد بالعديد من الأسئلة طوال الليل، لكنه خرج منتصرا بعد هذا الامتحان. ومنذ تلك اللحظة تقرر إبعاده، إذ أن شيخ الزاوية نفسه، الذي تخوف من إشعاع هذا العالم البئيس على حسابه والذي كان قد هيأ ابن أخيه لشغل المنصب الشاغر، لكونه جاهلا وبليدا، سيستدعي الغريب العلامة وسيطلب منه أن يغادر القرية إلى جهة أخرى، يمكن أن تستفيد من معارفه الثمينة ! وهكذا انتصر المعلمون ! هذه الفئة الحاسدة، الحاقدة التي يطغى عليها الطمع والتكبر والتي ليس لديها من العلم إلا القليل الذي لا يكفيها كي تكون واعية بجهلها وبخطئها الجسيم. فقد أعلن هؤلاء المعلمون انتصارهم وأشاعوا في كل مكان، بأن محمدا الجوال قد تجرأ ليحمي متشردا أكثر عوزا وجهلا منه. واستسلم الدرويش المسكين بدوره، حيث أصبحت وضعيته الناتجة عن هذا الفشل صعبة؛ لذا غادر الزاوية مقتفيا أثر محسوبه الذي لن يجده أبدا. وعين الشاب المتأنق sémillant لمنصب كرسي النحو، علما بأن أهليته كانت تتلخص في تملقه لأغنياء المنطقة وعلاقة القرابة التي تربطه بشيخ الزاوية.

إن أهالي بني زناسن القريبين جدا من وجدة، لم يكونوا مستقلين تماما. فقد نجحت السلطة المخزنية في أن تفرض عليهم قيادا، كانوا هم أنفسهم مراقبين من طرف أشخاص غامضين، يشار إليهم في البلد كله بلقب احتقاري وهو: " الخبارجية" (البصاصون ناقلوا الأخبار). ولأن هؤلاء المخبرين العاملين بالبوليس المخزني كانوا يعتبرون بأن من مصلحتهم التعاون مع رؤساء الأهالي، فإنهم كانوا يشتركون معهم في استنزاف الضعفاء الذين لا يستطيعون مقاومة الاستغلال. وما زال الناس يتذكرون أفعال سّي بولنوار وسّي المكي وسّي الطاهر الكبداني. فهؤلاء البصاصون الثلاثة، المكلفون بمصلحة الاستعلامات، كانوا ممقوتين ومحتقرين ومهانين في القبيلة برمتها.

إن الإدارة ما قبل التاريخية، أي إدارة الأقوى، هي السائدة في بلاد السيبة . والقياد هم رؤساء شيع وليسوا غداريين. ففي كل منطقة مستقلة بالمغرب، تتحالف العائلات الغنية وتكتسب زبناء Clients وتسن القوانين وتكون هي السائدة بدون منازع.

وهذه الفوضى المغربية الغريبة التي تشكل موضوع اندهاش دائم للأوروبيين ليست في العمق سوى أوليغارشية مؤسسة بإتقان، عملت منذ قرون ، وما زال بإمكانها أن تعمل على تحطيم كل جهود ملوك مراكش الصغار roitelets . ورغم ذلك، إذا ما أقررنا بأن القوة المادية لهؤلاء السلاطين محدودة، فيجب أن نعترف بالمقابل، بأن سلطتهم الروحية تفوقها حجما. وعلينا ألا ننسى بأنهم حفدة الرسول (ص)، حيث تجري في عروقهم الدماء المقدسة لمؤسس الإسلام العظيم. فنحن نوجد هنا بكل تأكيد، أمام نبالة عريقة أفضل بألف مرة في نظر المسلمين، من كل الملوك العظام والأقوياء الذين يفتخر بهم العالم المسيحي.

وفي الفترة التي أقام فيها الدرويش عند بني زناسن لأول مرة، كان لهذه القبيلة الشرف الذي لا تحسد عليه في التوفر على أربعة قياد وهم: علي أورباح قايد بني خالد، ولد أقوجيل - أيوجيل (ابن اليتيم)، (التسمية عربية أمازيغية) قايد بني منقوش، ولد الحبيب قايد بني عتيق، ولد البشير أو مسعود، قايد بني وريمش. وقد تلقوا برنوس التعيين من يد السلطان نفسه الذي خاطبهم قائلا:" اذهبوا ولا تقلدوا سلوك أولئك الخونة الذين يشكلون وصمة عار على جبين الإمبراطورية ".

وقد ظلت المغامرة المأساوية لقايد بني زناسن السابق، عالقة بالأذهان على الدوام. كان يدعى ولد البشير أو مسعود. وقبل تعيينه قايدا، قدم هو أيضا إلى فاس وقبل الأعتاب الشريفة وأصبح مهاب الجانب في بلده، حيث حظي بالشهرة بفعل ثروته وكثرة مناصريه. وقد تمكن من القضاء على القياد المناوئين له ببني زناسن و بأنجاد. هكذا أصبح رجل سلطة بكل معنى الكلمة، محاطا بقوة هائلة، مستعدا للتمرد على ملكه في كل لحظة ومخربا هذه المنطقة بفعل غزواته المتكررة، ناعتا عامل وجدة بالطفل الصغير. ولأن الأهالي ذاقوا ذرعا بهذا الطاغية الصغير Tyranneau ، فقد رفعوا شكاياتهم إلى فاس، معلنين بأن الوضع أصبح لا يطاق وملمحين بأنه إذا لم تتم مساعدتهم، فإنهم سينضمون إلى صف ولد البشير الرهيب. وأرسل السلطان جنوده لإيقاف الثائر عند حده، لكنهم تلقوا هزيمة نكراء وكان اندحارهم كليا. وعندما شعر القايد بنشوة الانتصار، طمع في تسلق الدرجات العليا وسمح لأتباعه بإضفاء لقب السلطان عليه. وقد بذل الإمبراطور الشريف كل ما في وسعه وكل ما يتوفر عليه من حيل، لجلب هذا الشخص المزعج إلى بلاطه. فبعث الرسائل والهدايا والبلاغات بدون جدوى، إذ أن ولد البشير ظل بجباله التي

تحميه من كل هجوم. وأخيرا اهتدى السلطان إلى أفضل مصيدة، فقد بعث إلى القايد، مسبحته الخاصة وتهليل الأمان المكتوب كلية بخط يده الشريفة. و " التهليل " هو كراس صغير، وسمت على صفحاته مربعات وجداول قبالية cabalistiques ، مرفوقة ببعض السور والآيات القرآنية، والهدف منها هو درء كل مكروه عن حاملها. وكان هذا هو أسمى دليل على العفو الممنوح من طرف السلطان، للثائر الذي يخشى على حياته. ولأنه اعتقد بزوال كل عوامل الحذر، ارتكب القائد الزناتي مجازفة تلبية دعوة سيده المخاتل. وما أن وصل إلى فاس حتى اقتيد إلى مراكش تحت حراسة مشددة، حيث كان ينتظره قبو يقضي فيه بقية حياته ولن يغادره أبدا.

هكذا تم القضاء على هذا الرجل الطموح الذي كاد أن يقيم مملكة أمازيغية صغيرة يكون هو الحاكم فيها. وقد ظلت ذكراه في الشرق الريفي راسخة، باعتباره وطنيا شهما، صارع إلى آخر لحظة، ضد العرق العربي المنافق. وأصبحت أسطورته، وهي أسطورة جميلة وبراقة، منتشرة وسط الأهالي. وهو ما جعلني أجد صعوبة في التمييز ضمنها بين الصحيح والخاطئ. وقد ساهمت شاعرية المنشدين الزناتيين في تمجيد ذكرى رجل ، لم يكن في آخر المطاف، سوى قائدا طاغيا وسفاكا للدماء وتابعا منافقا.

إن بني زناسن هم فلاحون ومربو مواشي، وهم يحرثون أرضهم بأنفسهم ويزرعون الشعير والقمح. كما أنهم يكترون أو يمتلكون أراضي تمتد مساحاتها إلى أنجاد أو تريفة، ويقودون في فصل الربيع، ماشيتهم المكونة من الأغنام والماعز والجياد، وسط هذه السهول الشاسعة والمعروفة بوفرة مراعيها وتوجد الطرائد بكثرة داخل القبيلة، إذ تمرح الأرانب البرية والحجل والطيور العابرة في جنة الأحلام هذه Eldorado ، حيث لم يكن أحد يزعجها إلى عهد قريب؛ لكن لما رأى الأهالي بأن هذه الحيوانات تباع بشكل جيد بالجزائر، بدؤوا يصطادونها ويأتون بها إلى محافظتنا، حارمين بنات آوى والجرذان والثعالب وبنات عرس، والعديد من الحيوانات الصغيرة آكلة اللحوم والمستقرة في هذه المنطقة الجميلة، من وجبتها المعتادة. ويتم دفن موتى بني زناسن بشكل عام، في المساج، وهو المكان المقدس الذي يفضل على الأمكنة الأخرى. وتغطى القبور الحديثة العهد أو القديمة، بزرابي يجلس المؤمنون فوقها، ليلا ونهارا، للصلاة والأكل والنوم. وإذا ما طلبت منهم تفسيرا لهذه العادة الغريبة فإنهم يجيبونك قائلين: " لا يوجد مجتمع أفضل من مجتمع الأموات فمعهم ليس هناك فضول ولا خيانة ولا أي شيء يثير الخشية. إنهم أصدقاء مخلصون ولطفاء غير مزعجين ". ومع ذلك ، يحدث ألا تتسع المساجد لجثامين الموتى، آنذاك يكون الأهالي مضطرين لتوفير مقبرة، عادة ما يكون موقعها قرب المسجد، أي تحت ظلال شجيرات التين الوحشي المحيطة بكل المساجد. ولا تحظى القبور الموجودة بالعراء

بأي احترام، إذ يأتي الأهالي لقضاء حاجتهم وسط الصبار دون أن يكونوا على علم بأن المكان الذي يلوثونه يتضمن قبرا ما. وهذا التدنيس الشنيع يحصل بدون وعي من أصحابه، لأن التلويث يطال في العادة قبورا قديمة، يرقد بها أجداد منسيون. ولا توجد شواهد تخبر الأحياء بأن هناك بنحو ثلاثة أو أربعة أقدام تحت الأرض، يرقد جيل بأكمله إلى الأبد.

القرى الرئيسية ببني زناسن

قسم بني وريمش

- **أولاد علي الشباب**، 50 منزلا، على واد تافــما، شمال هذا القسم؛
- **تافــما** (الوادي)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على الواد الذي يحمل نفس الاسم. وهي قرية آهلة بالشرفاء الذين يدعون بأنهم حفدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول (ص). وتوجد حول هذه القرية الكبيرة، أربعة قرى صغيرة يسكنها أناس بسطاء، يعتبرون أنفسهم " خداما " لشرفاء تافما.
- **سيدي سعيد**، 10 منازل؛
- **سيدي الحاج السعيد**، 100 منزل، على واد تافما؛
- **ولد البشير أو مسعود**، 100 منزل، وتحتل موقعا منيعا وسط الجبال، ويقال بأن ولد البشير المشهور شكل بها حاشية وشيد قصره المعروف تحت إسم الدار البيضاء. وقد تغنت به قصيدة عربية، سأنشر نصها الأصلي وترجمتها إذا ما أمد الله في عمري. ويوجد سوق الأربعاء بالجنوب الغربي من القرية.

قسم بني عتيق

- **تازاغين** (اليابسات)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل، جنوب سوق الثلاثاء.
- **زكزل**، (الأراضي الغرانيتية)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل، وتوجد بوادي رائع مليء بأشجار البرتقال. وهناك يقطن أولاد الحاج السعيد، وهم شرفاء منحدرون من مولاي أحمد الإدريسي.
- **مولاي إدريس**، 300 منزل. إن مئات الزوايا والقرى المغربية، تحمل الاسم شبه المقدس للمؤسس العظيم لأسرة الأدارسة؛ إذ تحكي الأسطورة، أن إدريس الأول كان يحب تشييد المساجد أينما حل. وتوجد القرية التي تهمنا غير بعيدة عن منابع واد زكزل.

- **بني موسى**، 500 منزل، على المنحدر الجنوبي لجبل بني عتيق؛

- **أولاد الطيب**، 50 منزلا، عند بداية سهل بني عتيق؛

- **العطش**، 100 منزل، توجد بسهل جنوب شرق سوق الأحد. وهناك من يزعم بأن القرية تحمل هذا الاسم، لأن سكانها مختصون في صنع العطاطيش (مفردها عطوش وهو هودج يوضع على ظهر الجمال).

- **سيدي بوهرية**، وهي زاوية فخمة توجد بالطرف الشمالي لصحراء أنجاد. ويأتي أهالي بني زناسن وكل قبائل الرحل لزيارة قبر هذا الولي الصالح الذي لم اتمكن من التوفر على أية معلومة تتعلق بسيرة حياته.

قسم بني منقوش

- **سيدي رمضان**، 100 منزل، وهي زاوية شهيرة أسسها سيدي رمضان. وقد توفي خلفه المباشر سي المكي في السنة الماضية (1894)، وكان هو " مقدم" طائفة مولاي الطيب الوزاني. وتتوفر هذه الزاوية على أتباع كثيرين ببني زناسن وبني سنوس، عندنا (بالجزائر) . وقد خلف سي مفتاح بن السي المكي والده في الوظائف السامية لمقدم زاوية مولاي الطيب.

- **مولاي إدريس تريفة**، 10 منازل. سكانها ورعون كثيرا . ويوجد بالجنوب سوق الأربعاء الذي يقع مثل القرية، على واد بني وكلان؛

- **زاوية سيدي الأخضر**، 10 منازل، أهاليها من الشرفاء.

- **زاوية سيدي علي البكاي**، 100 منزل، وتتوفر هذه القرية على زاوية كبيرة مأهولة بأتباع زاوية سيدي محمد بني بوزيان، سيد مدينة القنادسة بالدهرة . وكان سيدي علي البكاي مجذوبا شهيرا. ويحاط واد بني وكلان من الجانبين بزوايا عديدة . ولربما ، لهذا السبب سمي بواد العبيد، أي عبيد الله.

- **القلعة**، 200 منزلا، قرب منبع واد بني وكلان. وهناك، احتفل محمد بن الطيب سنة 1893، بعيد الأضحى.

- **أيت عبد الكريم**، 20 منزلا، غير بعيدة عن منبع واد صفرو.

- **مولاي إدريس النخلة**، 50 منزلا على واد صفرو. وهي زاوية كبيرة لمولاي إدريس. وترجع هذه التسمية إلى وجود نخلة كبيرة، بالغة القدم، يقال إن السلطان الإدريسي الشهير، قد غرسها هناك. وهو ما يجعل عمر هذه الشجرة المحترمة يناهز 1105 سنة !

- **أولاد ميمون**، 100 منزل، على واد صفرو.

- **صفرو** (أصبح لونهم أصفر)، (التسمية عربية)، 500 منزل على واد صفرو. وحسب الأسطورة، فإن اسم هذه القرية الكبيرة يرجع إلى أسرى الحرب الذين كان أحد السلاطين الزناتيين يسجنهم داخل زنزانة لمدة طويلة، إلى أن يتأكد بنفسه من أن لون جلدهم أصبح كالزعفران، آنذاك يطلق سراحهم ، لكن هؤلاء المساكين الذين بلغوا أقصى درجات الإنهاك، يموتون بعد ذلك بقليل.

وصفرو عبارة عن مدينة صغيرة مليئة بالمساجد والزوايا؛ ويوجد بها عدد كبير من الطلبة. وما زال الدرويش يتذكر بنوع من الحنين، المأدبة الكبيرة التي أقيمت سنة 1888 بمناسبة عيد الضحى، لذلك حمل معه ذكرى طيبة عن عاصمة بني زناسن.

- **مولاي إدريس متاع صفرو**، 10 منازل، على واد صفرو جنوب سوق الجمعة. وهي زاوية صغيرة مخصوصة لمولاي إدريس.

قسم بني خالد

- **أغبال** (الممر)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب سوق الاثنين. وتوجد بها أشجار ومنابع مائية عديدة.

- **تاغجيرت** (لزازة)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛

- **أوقني** (السهل)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛

- **زاوية ماحي الدين**، (المقصود بهذه التسمية، من يلغي الديانات الأخرى، وهو لقب الرسول (ص) *، 10 منازل. وكانت تسمى من قبل زاوية مولاي عبد القادر الجيلالي. وفي السنين الأخيرة، كان يدير شؤونها " مقدم " يسمى ماحي الدين (محيي الدين) ويشرف على " الورد" الخاص بزاوية هذا الولي الصالح. وقد عرف هذا الشخص بزهده الكبير وأصبح مشهورا بالمنطقة، إلى درجة أن الزاوية اشتهرت باسمه. وقد توفي سنة 1892 وترك أبناء عديدين، تولوا الإشراف على الزاوية من بعده. وتقع هذه الأخيرة عند سفح الجبل، وجهتها الشمال، وتحيط بها بساتين الفواكه الرائعة، كما أنها غير بعيدة عن منبع واد كيس.

* - ملحوظة المترجم: لا ندري من أين استمد المؤلف مبرره لهذه التسمية. ونعتقد بأن الأمر يتعلق بمحيي الدين وليس بماحي الدين.

- زاوية الهبري، 10 منازل، جنوب بني زناسن. ويقام بها " ورد" درقاوة. وقد كان مؤسسها سيدي الحاج محمد الهبري كريما إلى درجة أنه كان يهب دوما للمساكين الذين يطلبون الصدقة، قطعا من اللحم دون عظم (هبرة)، ومن هنا جاء اسم الزاوية.

كما أن حفدته الحاليين يتميزون بكرمهم الكبير.

وهناك أكثر من 100 قرية صغيرة موزعة على القبيلة.

القوى العسكرية: 11200 رجل، نصفهم فرسان والنصف الآخر من المشاة. عدد السكان المحتمل: 56 ألف نسمة. المنطقة جبلية. التعليم القرآني منتشر بكثرة. وهناك العديد من المساجد والزوايا، كما يتميز الأهالي بالتعصب المفرط.

قبيلة مغراوة

(أرض الإتلاف) ، (التسمية عربية)

سيمر محمد بن الطيب بجنوب الريف، عبر أولاد ستوت، بني بويحيي، لمطالصة، مغراوة ، بني بشير، تاركا وراءه قبيلة بني زناسن ومحددا كهدف، غرب إقليم جبالة. وقبل أن يغادر نهائيا هذا الإقليم المتوسطي الغريب، حرص بشدة على معرفة كل القبائل المتواجدة فيه. هكذا، استمر في تجواله مدفوعا بمصيره العجيب، الذي سيجعل منه أحد أروع المكتشفين في هذا القرن (التاسع عشر).

لقد اجتاز دون توقف المناطق الريفية المعروفة لديه، وفي الطريق كان يلتقي أحيانا بأصدقاء قدامى، يطالبونه دون جدوى، بالبقاء معهم. لكنه كشخص دائم التجوال، كان يقبل ضيافة يوم، يأكل فيه جيدا وينام بشكل أفضل، وفي الصباح، وبعد أن ينفض الغبار عن ملابسه، يتابع سيره، بعد أن يكون قد خاطب مضيفيه بالعبارة التالية: " القعدة سجن والسجن قبر".

وأخيرا وصل إلى مغراوة، وهي قبيلة صغيرة تشكل أقصى نقطة في الجنوب الريفي. وتوجد مغراوة ، المحاطة من كل جانب بأراضي جبالة باستثناء الشمال حيث ترتبط بقبيلة كزناية، في موقع يحميها من الهجمات المستمرة لجيرانها الأقوياء. وهي تشغل المنحدرات الشمالية للسلسلة الكبيرة من الجبال الجنوبية بالريف. وتسمح لها مساحتها الصغيرة التي لا تتعدى عشر كيلومترات من كل الجهات ، بأن تكون متخندقة بالقمم الريفية الأخيرة التي تطل منحدراتها من بعيد، جهة الجنوب، على مدينة فاس الكبرى.

وغالبا ما يجري واد مغراوة في الوديان العميقة، حيث يشق بصعوبة ممرا في الأرض غير المستوية. وفي كل مكان، تتراءى للناظر خضرة يانعة. فأشجار البلوط الضخمة تظلل شجيرات جميلة، نجد من بينها على الخصوص، شجيرات الفستق ذات الرائحة الزكية. وعلى طول النهر، تشكل أشجار الصفصاف والحور، قبة من الأوراق الكثيفة فوق المجرى الصغير للماء الصافي الذي يمر بين الصخور، رغم وقوفها حاجزا أمامه. وتتوالى القرى الكبيرة والصغيرة، حيث يوجد بعضها داخل الغابة. أما البعض الأخر الذي يشكل الأغلبية، فيوجد على ضفاف النهر.

إن أهالي هذه المنطقة الجبلية منعزلون، فهم لا يبرحون ديارهم ويكرهون جيرانهم، عرب جبالة، الذين يخشون غدرهم. وهم أمازيغ أبا عن جد، يتحدثون تمازيغت الحقيقية ولا يفهمون كلمة واحدة من اللغة العربية، ويرتدون جلابة رمادية، يعوضونها في فصل الصيف فقط بالحايك، لأن المناخ بارد في قمم جبالهم. ويعتبر الشعير زراعتهم الرئيسية؛ وفي بعض الأجزاء غير المحروثة، تنبت الحلفة التي لا تستعمل إلا نادرا.

غير أن البرد والطعام الرديء وغياب بساتين الفاكهة والخضر، ستعجل برحيل الدرويش الذي لم يستقر سوى مدة قصيرة بهذه القبيلة التي تتضمن قسمين وهما: أذرار (الجبل) (التسمية أمازيغية) وإمغالسن (المتكتمون)، (التسمية أمازيغية كذلك).

ويجند كل قسم 1500 رجل مسلحين بالبنادق، أي ما مجموعة 3 آلاف من المشاة. أما عدد السكان المحتمل بالنسبة لكل القبيلة فهو 15 ألف نسمة. وبشمال هذه القبيلة، يجتمع حشد من البائعين والمشترين، بسوق الاثنين حيث تعرض كل المنتوجات بأثمان مناسبة.

قبيلة بني بشير

إن هذه القبيلة الواقعة كلية فوق الجبال الصنهاجية للريف، لا تتعدى مساحتها عشرين كيلومترا، طولا وعرضا. وتحد شمالا بمتيوة وزرقت، وشرقا وجنوبا بإقليم جبالة وغربا بتاغزوت وبني بونصر وبني خنوس وبني سداث.

والمنطقة كلها عبارة عن غابة شاسعة تتواجد فيها بكثافة، حوالي ستين قرية صغيرة محاطة بالخضرة من كل الجوانب. إن أشجار الدردار والبلوط والفلين المجاورة لأشجار الفواكه كالجوز واللوز والمشمش، كان بإمكانها أن تجعل من قبيلة بني بشير، إحدى أغنى المناطق بالريف لو أن أهاليها أحسنوا التصرف بثرواتهم الغابوية. لكن لا شيء يتم استغلاله هناك.

فالأهالي يكتفون بجني فواكه الأشجار، دون معرفة بفائدة الفلين ودون أن يفكروا أبدا في بيع خشب الدردار أو البلوط لصانعي الأسلحة بتاغزوت. فالإهمال والتفريط هما الكلمتان اللتان تحضران دائما، عندما نتحدث عن هذا البلد الرائع الذي يسمى المغرب.

ونظرا لوجودهم بجوار جبالة، فقد كانوا يستعملون العربية فيما بينهم خارج المنزل؛ أما بداخله، فإن النساء والأطفال لا يتكلمون ولا يفهمون سوى تمازيغت. ونساء القبيلة مقتدرات، فهن يصنعن كل الألبسة، من جلابة وحايك، وهذا لا يمنعهن من القيام بالحصاد وجلب الحطب والماء والاعتناء بالماعز. وما يميزهن هو سلوكهن الذي لا تشوبه شائبة. ورغم أن الرجال هم أقل اشتغالا من زوجاتهم، إلا أنهم يقومون ببعض الأعمال مع ذلك. فهم يحرثون وينكشون الأرض التي يصعب اختراقها بالمحراث ويقومون بالبستنة في كل مكان تقريبا، لأن المنطقة مليئة بالمنابع التي تساهم مياهها المنعشة في انبثاق الحياة بكل أشكالها. وتحيط القرى الصغيرة بغديرين صغيرين منبثقين من هذه المنابع وتجري مياههما من الجنوب إلى الشمال. ويتعلق الأمر بواد بني بشير الذي يعبر في جزئه الجنوبي غابة رائعة من الدردار؛ وبواد الزاوية، سمي كذلك لأنه ينبثق من منطقة قريبة من زاوية تاسيلنت (الدردار)، وهي قرية من 100 منزل.

ولم يستقر محمد بن الطيب كثيرا عند بني بشير. فقد كان فصل الشتاء على الأبواب، ولأن الرحالة النافذ الصبر كان يخشى من أن تحاصره الثلوج فوق القمم الباردة للقبيلة، فإنه رحل عند نهاية الخريف وتوجه صوب جبالة، بعد أن تأكد من أن بني بشير تضم ثلاثة أقسام وهي: تاسيلنت (الدردار) (التسمية أمازيغية)، بني بكار (التسمية عربية)، أيت يحيى (التسمية عربية أمازيغية). ويجند كل قسم 1500 رجل، أي ما مجموعه 4500 من المشاة بالنسبة للقبيلة برمتها. وتعتبر البندقية الطويلة المصنوعة بتاغزوت، بمثابة السلاح الناري الوحيد المعروف هناك. عدد السكان المحتمل 22500 نسمة. التعليم محدود وسط القبيلة. المنطقة جبلية وتوجد بها العديد من المسالك التي تجوبها البغال.

لن نترك الدرويش يبتعد عن الريف، قبل أن نلقي نظرة أخيرة على هذا الإقليم الصغير الذي كان إلى الأمس القريب، يشكل آخر جزء مجهول على الساحل المتوسطي والذي مازال مستقلا، كما كان منذ مئات القرون، متوحشا باستمرار ومعتزا بحريته اللامحدودة التي تجعل أهاليه مقتنعين بأنهم بمنأى عن التدخلات والغزوات الخارجية. لكن هل نعلم ما الذي يخبؤه المستقبل لهذا الإقليم؟

يبدو في الوقت الراهن، أن الريفيين سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وفوضى كاملين. فهم قانعون ببساطتهم العتيقة. وأولئك الذين سنحت لهم الفرصة من بين الريفيين، لرؤية

مبتكراتنا الحديثة كالسكك الحديدية والتلغراف، لم يعيروها أي اهتمام، وهم يشبهون في لامبالاتهم، رد فعل مقوس الساقين إزاء الدراجة الهوائية. فما يلزمهم، هي الحياة التي يقضونها وسط الطبيعة الرائعة والهدوء الساكن للغابات، الذي لا يزعجه سوى النفس الخلاق ، الآتي من أعماق اللانهائي، أثناء مرور العواصف الكبرى.

وإذا كان القدر المكنون سيحتم على بلد الحريات هذا، بأن يخضع لسيطرة الأجنبي، فإن ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا الدائم، اللطيف مع رعاياه المسلمين، دأب على معاملتهم بشكل جيد، أفضل بكل تأكيد، مما هو عليه حال الرعايا المسلمين الآخرين الخاضعين للأمم الأوروبية الأخرى*.

* – ملحوظة المترجم: مرة أخرى يتضح بجلاء البعد الاستعماري لهذا العمل الإثنوغرافي الذي يظل مثيرا ومشوقا مع ذلك.

خاتمـــــة

والآن، أنتم الذين تقرؤون هذا الكتاب، كيفما كنتم ، فقراء أو أغنياء، أقوياء أو ضعفاء، علماء كبار أو أشباه علماء، لا تنتظروا مني تركيبا ولا تحليلا لعملي هذا. فإذا لم يكن قد أزعجكم كثيرا، وإذا كان قد أضاف إلى معارفكم شيئا ما، فسأكون مرتاحا، لأنني سأعرف بأن مآله لن يكون هو الإحراق. ويمكن تفسير هذا الجزء من عملي بالرجوع إلى كلمتي العنوان وهما: المغرب المجهول وإلى 32 صفحة من التمهيد إضافة إلى المقدمة.

وحتى يتم إسكات النقد السيئ النية أو المحدود الأفق، فإنني أرى نفسي ملزما بتقديم توضيح وجيز. طبعا هناك ثلاث فرضيات ستبدو لكم منذ قراءة الأسطر الأولى من هذا الكتاب وهي كالتالي: إما أن الكاتب قد خدع من طرف كل الرحالة المسلمين وإما أنه هو نفسه مخادع وإما أنه قال الحق وليس شيئا غير الحق ، وفي هذه الحالة، فقد كشف لنا عالما مجهولا.

أمام هذه الشكوك، ما هو المعيار الذي يمكن إتباعه للحكم على القيمة العلمية للكتاب وعلى صدق المكتشفين وعلى حسن نية كاتب هذه السطور؟

إنني لا أرى سوى معيارا واحدا، وهو معيار حاسم.. فإليكم بيانه: افتحوا هذا الكتاب وأوقفوا أي ريفي التقيتم به، متعلما كان أو جاهلا، واقرؤوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته وبالمنطقة التي يعرفها؛ وسيكون جوابه ورد فعله بمثابة إدانة لي أو إثبات لما قلته. وكم من مرة قمت بنفسي بهذه التجربة ! ففي أزقة وهران وبالبادية وداخل الإقليم، كنت كلما التقيت بالريفيين، إلا ودنوت منهم وتحدثت لهم طويلا عن بلدهم، مقدما البراهين على أنني أعرفه مثلهم تقريبا. وكان ذهولهم يترجم مباشرة بوابل من المعلومات الجديدة والأسرار الثمينة التي أستفيد منها قدر الإمكان. وكان العديد من أصدقائي المتواجدين معي صدفة، شاهدين أحيانا على هذا التحري الأصيل والمتواصل وعلى الدهشة العميقة للأمازيغيين الذين سيشرعون في الكلام دون توقف، بعد ربع ساعة من الحديث معهم، ملحين على البقاء بجانبي ومنساقين وراء المتعة اللطيفة التي يجلبها لهم التحدث عن موطنهم البعيد وعن العادات والتقاليد التي افتقدوها في أرض المهجر الغريبة عنهم. وقد كانت كلمة سحرية واحدة، تفتح لي القلوب، وتخرج من بين شفاه هؤلاء الرجال البسطاء، أسرارا ظلت مكتومة بعناية من قبل؛ إنه الاسم الممجد للرسول (ص)، هذا الاسم المقدس الذي لا يذكره المسلم بشكل مجاني. وكنت أحظى بامتياز عظيم، هو ذكر الرسول (ص) بلغتهم واستحضار أحاديثه السامية، بهدف البرهنة على أن من ينطق بها، يتوفر على الإيمان الصادق.

فيا أيتها القوة الرائعة للغة، بفضلك توصلت إلى النتائج المثمرة لهذا العمل وشعرت بالغبطة الداخلية أمام الحصاد الهائل الذي اكتمل تدريجيا والذي أهدي ثماره الأولى إلى تلك التي لا أستطيع ذكر اسمها دون تأثر، إلى أمنا جميعا، إلى فرنسا العظيمة والكريمة دائما.

لكنني سأكون ناكرا للجميل، إذا لم أذكر الرجل الذي أرسلته إلي العناية الإلهية، والذي كان بمثابة الكنز الذي لا يقدر بثمن والمنبع الرئيسي الذي نهلت منه، والدماغ الهائل الذي انبثق منه عالم لم يكن معروفا. وهذا المتسول الغريب، هذا الفقير العظيم التي قد تقدم إليه الصدقة إشفاقا على منظره البئيس، ما زال موجودا في المغرب. وقد توصلت منه بتاريخ 17 أكتوبر 1895 بالرسالة التالية:

« الحمد لله وحده،

إلى حضرة سيدي مولاي راس، عليك سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد، فإن سألت عنا فها أنا بخير وعافية ولكن السؤال منا إليكم والملاقاة معكم في ساعات الخير نحو ثلاثة أشهر، والآن تراني في بلد الدار البيضاء ولابد أن تخبر أصحابك بما كان والسلام.

وكتب في 20 من صفر الخير، عام 1313. محمد بن الطيب وفقه الله».

وتاريخ 20 صفر 1313 يوافق 11 غشت 1895 ، ولم توضع الرسالة بالبريد إلا في 09 أكتوبر ! وذلك بالصويرة (موغادور) وليس بالدار البيضاء، كما تشهد على ذلك الطوابع البريدية بالغلاف. ويمكننا افتراض أن الدرويش التائه في مكان ما داخل مقاطعة الدار البيضاء ، قد أودع رسالته وهو يهم بالتوغل وسط المغرب، إلى أخ له في الملة كان مدعوا للسفر إلى الصويرة (موغادور) لقضاء أغراضه. وهذا الأخ الذي لم يتمكن ربما من السفر، أعطى الرسالة إلى شخص آخر وهكذا دواليك، إلى أن وضعتها يد مجهولة بصندوق البريد بالصويرة، بعد مرور شهرين على كتابتها !

وكيفما كان الحال، فإن الدرويش كان بتاريخ 11 غشت الماضي، يتمتع بصحة جيدة. وأنا متيقن بأنه يتجول الآن (10 نوفمبر) في قلب المغرب ذاته، هناك حيث لم يسبق لأي أوروبي أن وضع قدميه. فأي حصاد رائع سيجلب لي ، لو تمكن من مغادرة هذه الإمبراطورية الغريبة !

لقد ترك لي هذا المكتشف الجريء قبل رحيله، وديعتين ثمينتين وهما: عصاه التي يستخدمها في السفر وزوج من النعال. وكانت لديه بدون شك عصا أخرى بديلة. أما بخصوص النعلين، فبما أنهما كانا جديدين تقريبا، فإنه فضل عدم تعريضهما لأطماع المغاربة وذلك

بإيداعهما عندي والذهاب حافي القدمين وفوق ظهره جلابة مهلهلة، وهو متيقن بأنه سيجد وديعته الصغيرة بالمنزل كما تركها. فيا للمسكين، لقد كانت تلك هي كل ثروته !

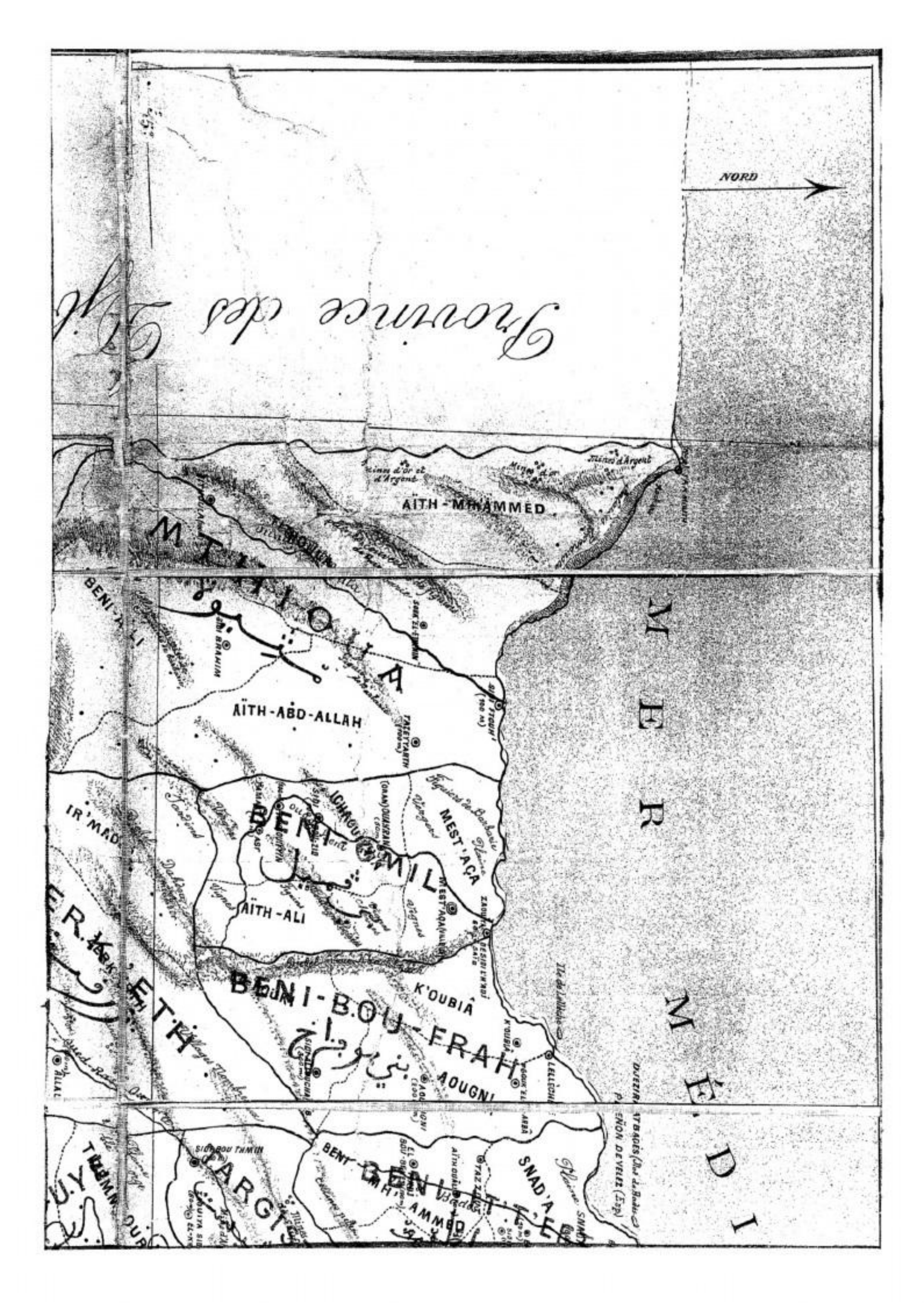
أما الجملة الأخيرة من رسالته والتي اعتبرت لغزا بالنسبة للجميع، فإنها واضحة بالنسبة لي. فهي تقول: « ولا بد أن تخبر أصحابك بما كان ». ومعنى ذلك، قم بنشر مؤلفك " المغرب المجهول" وبشر أصدقاءك بذلك. والأصدقاء الذين يقصدهم طبعا هم الفرنسيون؛ لأن هذا الرحالة الساذج، كان يعتقد بأنني أعرف كل واحد من أبناء وطني وأن كل حفدة الغاليين المعتزين بأنفسهم Fiers Gaulois ، هم أصدقائي الأعزاء والحميمين جدا بدون استثناء.

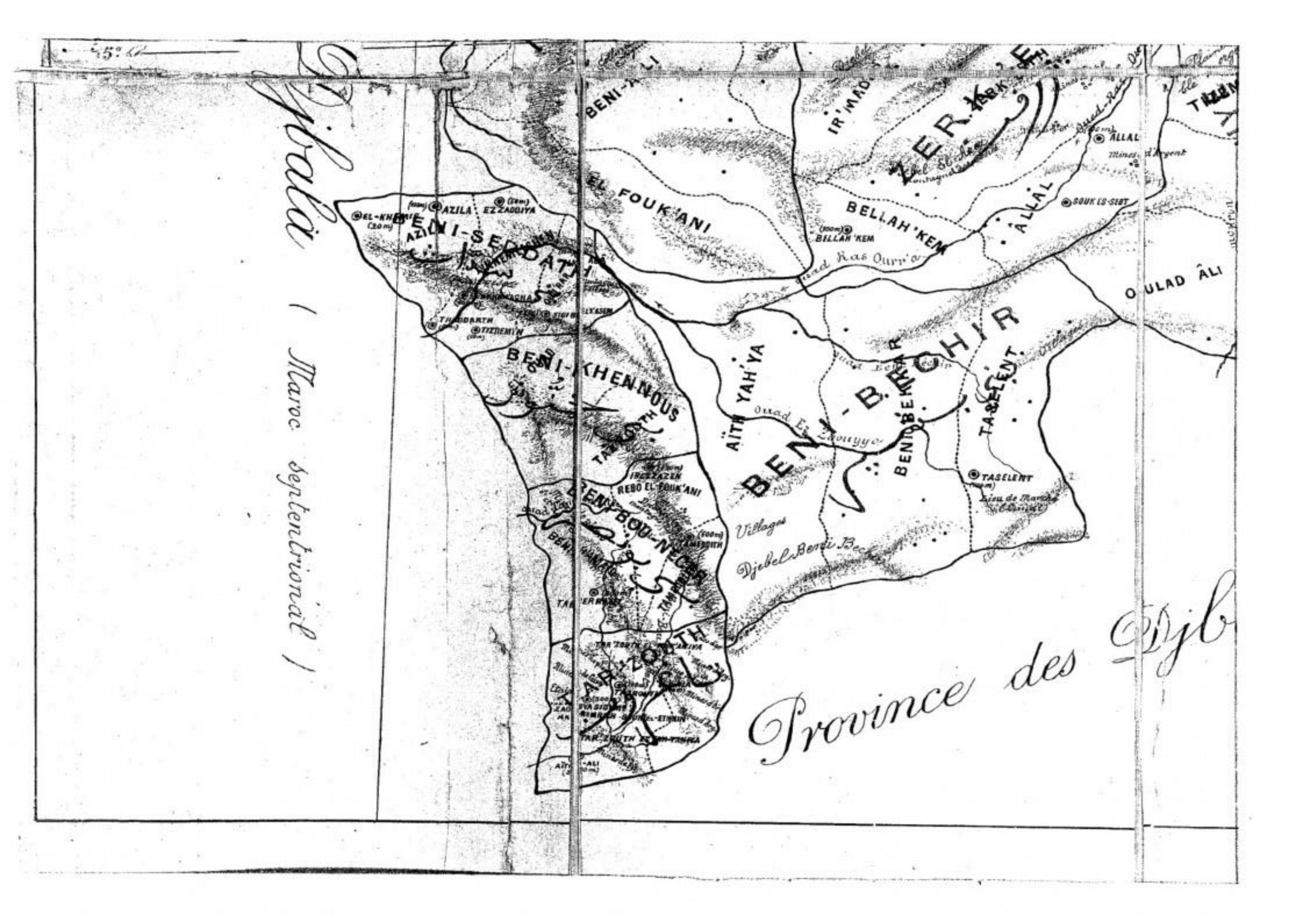
وها أنا قمت بتنفيذ وصيتك يا عزيزي الدرويش المسكين. فقد أنهيت كتاب " اكتشاف الريف"، ولم يبق أمامي سوى أن اكتب وأنا مرتاح.

انتهى الجزء المتعلق بمنطقة الريف.

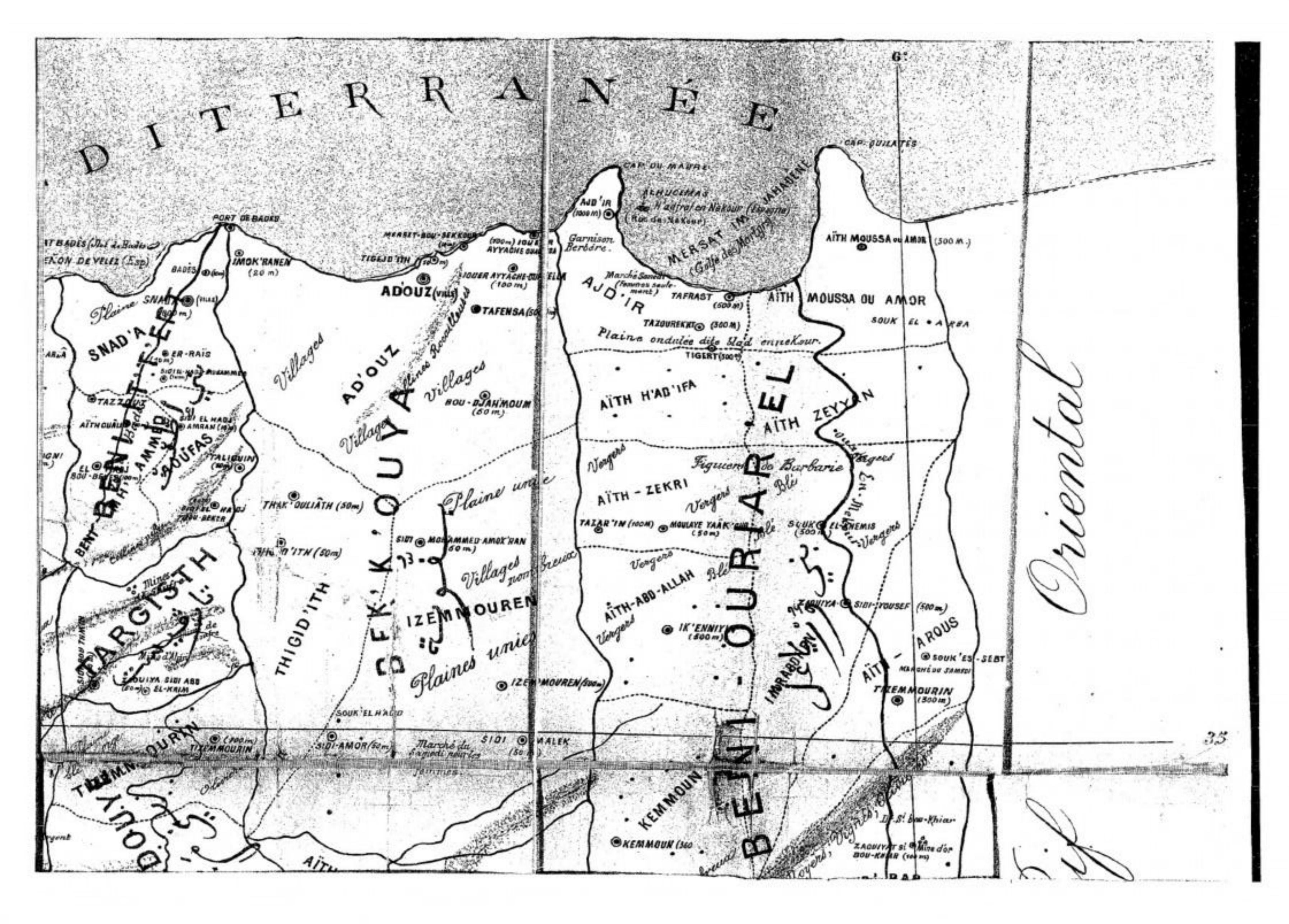
ملحــــــق

الخرائــط

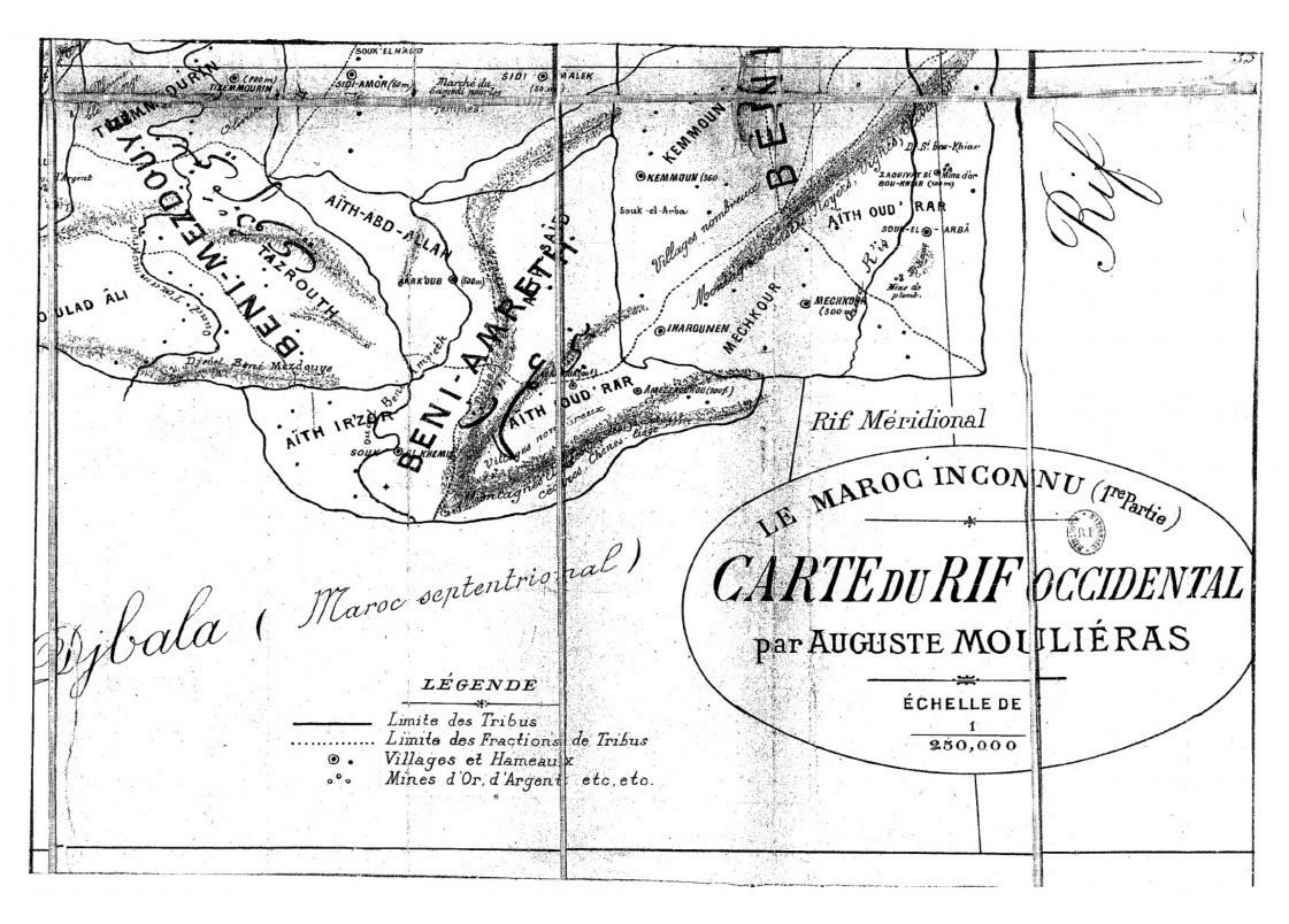

NORD
Mines d'Argent
Mines d'or et d'Argent
AÏTH-ABD-ALLAH
MEST'AÇA
AÏTH-ALI
K'OUBIÂ
BENI-BOU-FRAH
AOUGNI
IR'MAD
BENI-ALI
SNAD'A
M E R M É D I

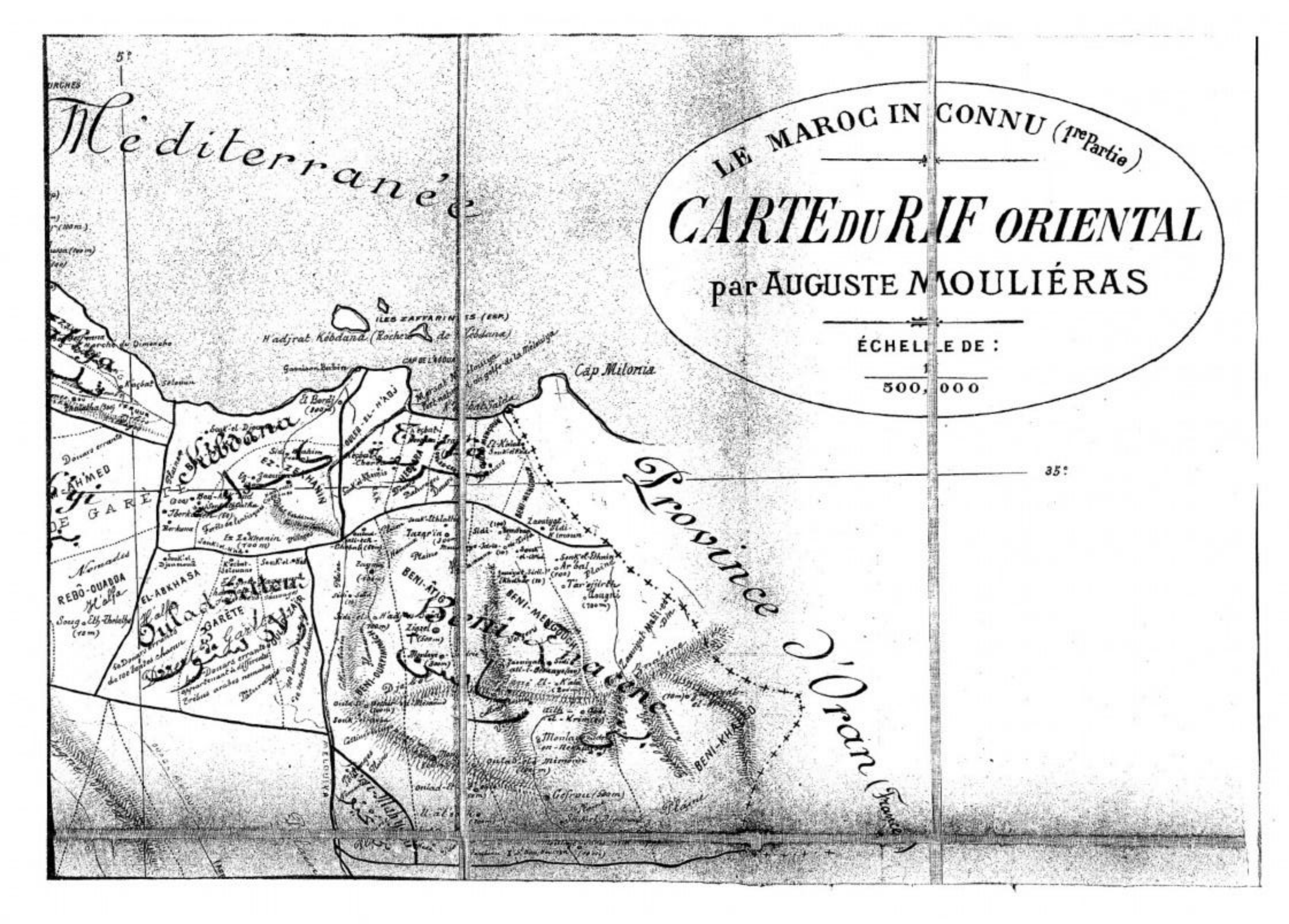


Province des Djb
Djebala (Maroc septentrional)
BENI-SEDDATH
BENI-KHENNOUS
BENI-BOU-NECER
TARZOUTH
BENI-BECHIR
AÏTH YAH'YA
BENI BEKKAR
TASELENT
EL FOUK'ANI
BELLAH'KEM
ÂLLAL
OULAD ÂLI
IR'MAD
BENI-ÂLI
ZERKET
AZILA
EZ ZAOUIYA
EL-KHEMIS
TIZIEMIN
THAODARTH
REBO EL-FOUK'ANI
IRZZAZEN
TAMESSOUTH
TAGERRAST
Villages
Djebel Beni Bec
Ouad Ez Zaouyya
Ouad Ras Ourr'a
SOUK ES-SEBT
Mines d'Argent
Lieu de Marché

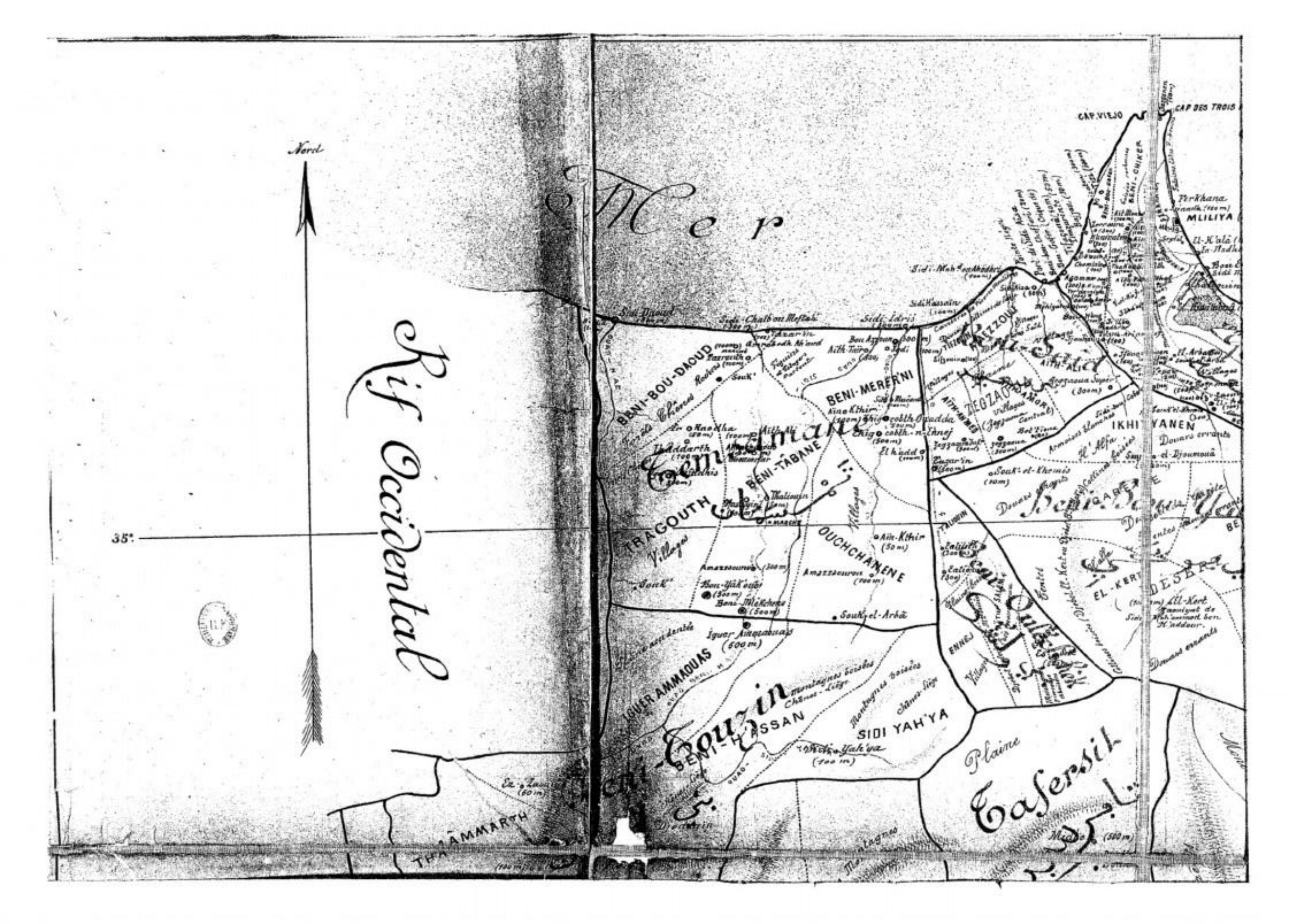


DITERRANÉE
PORT DE BADES
CAP DU MAURE
CAP QUILATÈS
MERSAT IM JAHADENE
AJD'IR
ADOUZ
SNAD'A
AD'OUZ
THIGID'ITH
IZEMMOUREN
TARGISTH
AÏTH MOUSSA OU AMOR
AÏTH H'AD'IFA
AÏTH ZEYYAN
AÏTH - ZEKRI
AÏTH-ABD-ALLAH
AÏTH - AROUS
KEMMOUN
BENI-OURIAR'EL
Plaine ondulée dite Blad enneKour
Figuiers de Barbarie
Villages
Vergers
Plaine unie
Plaines unies
Oriental
35

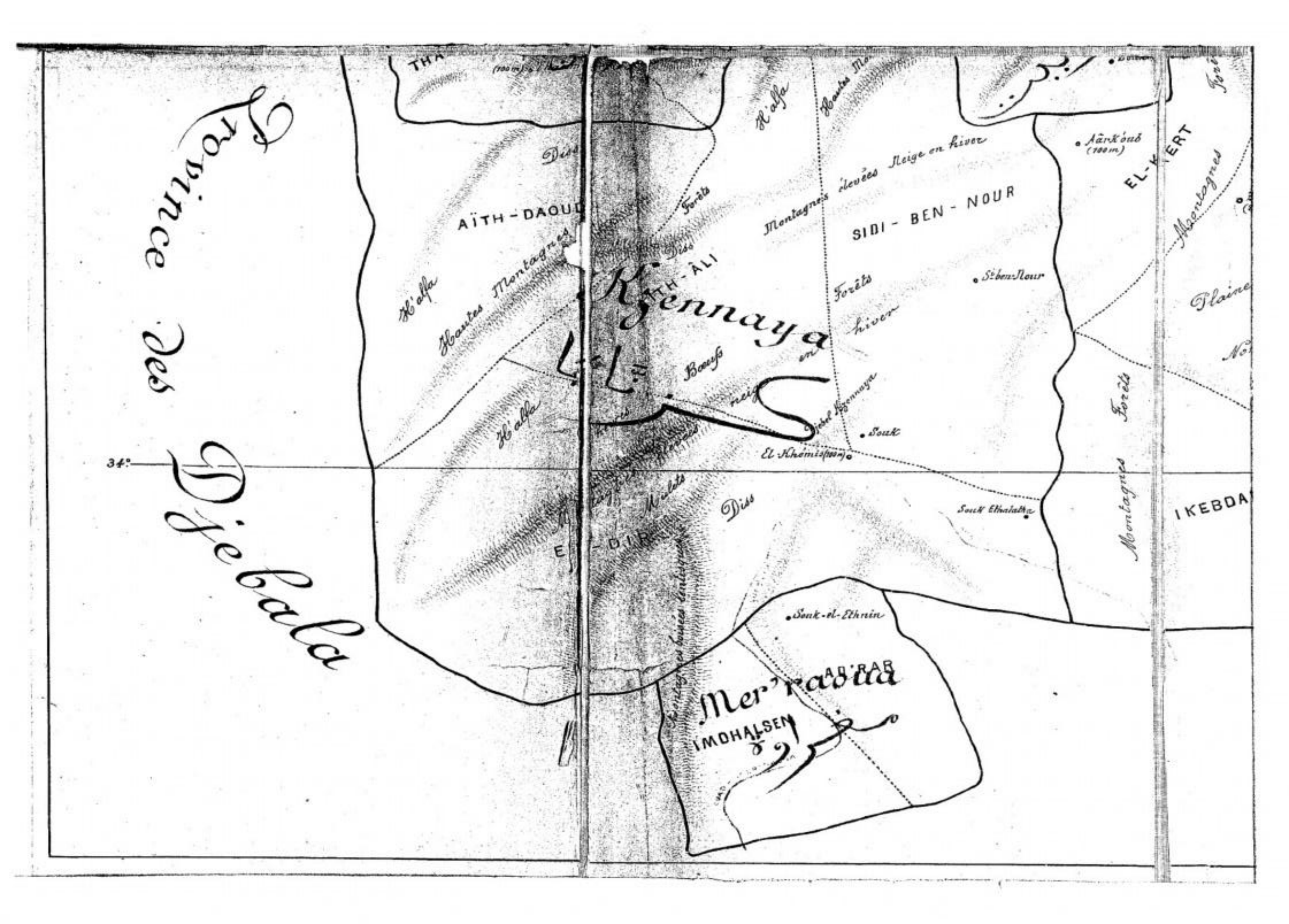

LE MAROC INCONNU (1re Partie)
CARTE DU RIF OCCIDENTAL
par AUGUSTE MOULIÉRAS
ÉCHELLE DE 1/250,000
LÉGENDE
Limite des Tribus
Limite des Fractions de Tribus
Villages et Hameaux
Mines d'Or, d'Argent etc. etc.
Djbala (Maroc septentrional)
Rif Méridional
Rif
BENI-MEZDOUY
BENI-AMRETH
BENI
OULAD ÂLI
TAZROUTH
AÏTH-ABD-ALLAH
AÏTH IRZOR
AÏTH OUD' RAR
KEMMOUN
MECHKOUR
TIZEMMOURIN
SIDI-AMOR
SOUK EL H'AUD
SIDI MALEK
Marché du Samedi pour les femmes
KEMMOUN (360
Souk-el-Arba
IMAROUNEN
MECHKOUR (300 m)
SOUK-EL-ARBÂ
Villages nombreux
Djebel Beni Mezdouye
SOUK EL KHEMIS
Mine de plomb

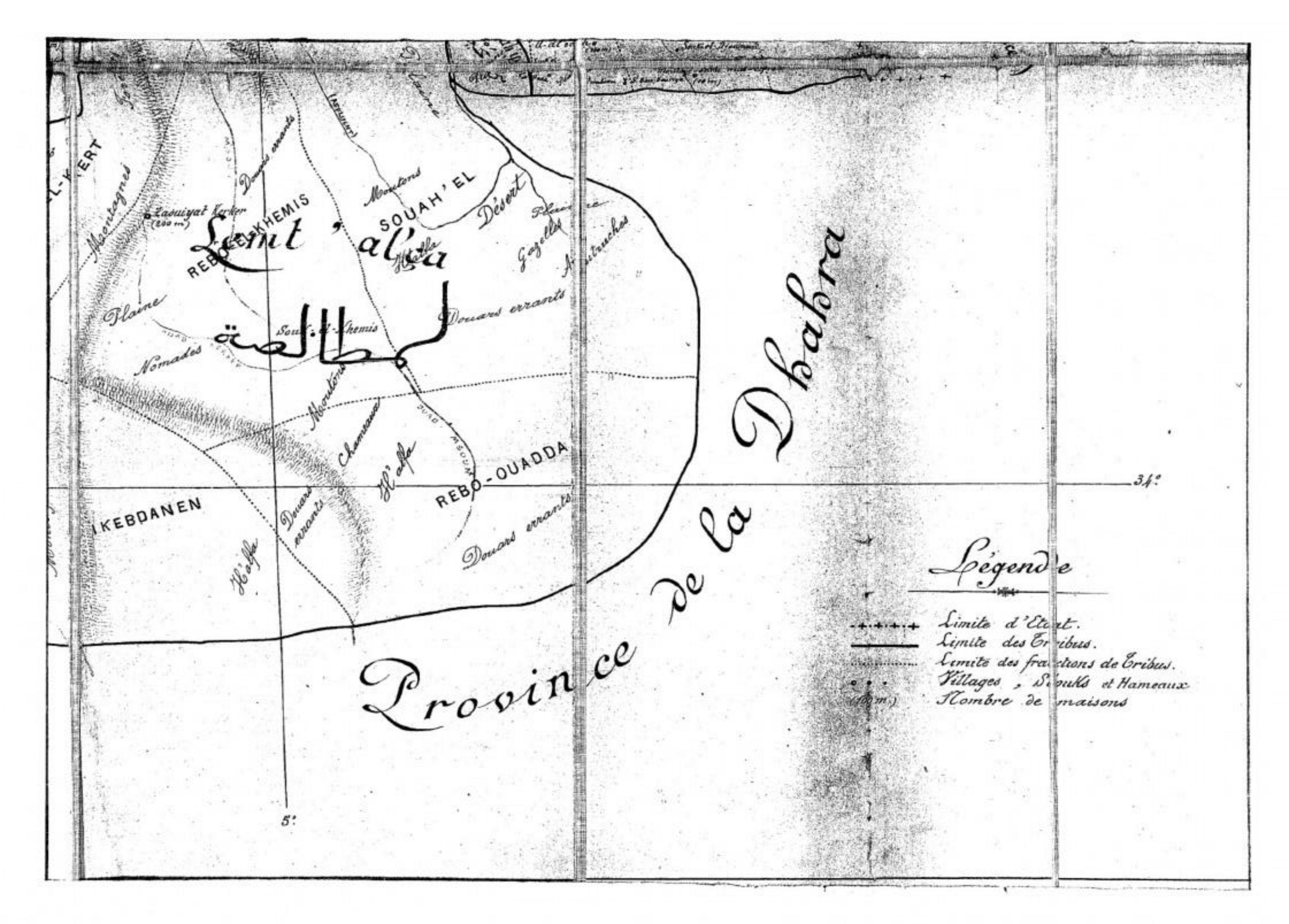


LE MAROC INCONNU (1re Partie)
CARTE DU RIF ORIENTAL
par AUGUSTE MOULIÉRAS
ÉCHELLE DE : 1/500,000
Méditerranée
Province d'Oran (France)
Cap Milonia
ILES ZAFFARINES (ESP.)
H'adjrat Kébdana (Rocher de Kébdana)
Kebdana
GUELED-EL-H'ADJ
EZ-ZEKHANIN
BENI-ÂTIG
BENI-MENGOUCH
BENI-KHALED
BENI-OURTIMINECH
EL-ABKHASA
REBÔ-OUARDA
GARÈTE
Oulad Setteut
Beni-Iznacen
Nomades
H'alfa
5°
35°



Nord
35°
Rif Occidental
Mer
BENI-BOU-DAOUD
BENI-MERERNI
BENI-TABANE
TRAGOUTH
OUCHCHANENE
IGUER AMMAOUAS
BENI-HASSAN
SIDI YAH'YA
Plaine
Tafersit
IKHIYANEN
EL-KERT
BENI-CHIKER
MLILIYA
CAP VIEJO
CAP DES TROIS
Villages
Pointe Négri


Province des Djebala
34°
AÏTH-DAOUD
Diss
Forêts
H'alfa
Hautes Montagnes
ÂTH-ÂLI
Kzennaya
Montagnes élevées Neige en hiver
SIDI-BEN-NOUR
Hautes Mo
St ben Nour
Forêts
Neige en hiver
Bœufs
Djebel Kzennaya
Souk
El Khemis (900m)
Mulets
Diss
E-DIR
Souk Ethalatha
Aïn K'oub (100m)
EL-KERT
Montagnes
Plaine
Forêts
Montagnes
IKEBDA
Montagnes boisées lentisques
Souk-el-Ethnin
AR'RAR
Mer'raoua
IMOHALSEN
THA



Province de la Dhahra
Montagnes
Plaine
Nomades
REBO-EL-KHEMIS
SOUAH'EL
Douars errants
Moutons
Désert
Gazelles
Autruches
Souk-el-Khemis
Chameaux
H'alfa
REBO-OUADDA
KEBDANEN
Légende
Limite d'Etat.
Limite des Tribus.
Limite des fractions de Tribus.
Villages, Souks et Hameaux
Nombre de maisons
5°
34°

الفهــــرس

المغــرب المجهــول

المغــــرب المجهــول: اكتشــاف الريف

المغــــرب المجهــول

اكتشــاف الريف : قبائل الريف

إصـدارات المترجــم

1- الأعمـال الفردية

- **سوسيولوجيا التقليد والحداثة المجتمع المغربي** (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.

- **مسارات الدرس الفلسفي بالمغرب** (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002.

- **محمد عبد الكريم الخطابي، القائد الوطني** (تأليف)، منشورات تيفراز ن أريف، الرباط، 2003.

- **في الترجمة الفلسفية السياسية والأخلاقية** (مجموعة نصوص مترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2004.

- **هايدجر والنازية** (نصوص مترجمة لهابرماس)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2005.

- **حوار الفلسفة والسينما**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 2006.

- **أسئلة الفلسفة** المغربية (تأليف)، منشورات الزمن، الرباط، 2000.

2- الأعمال المشتركة:

- **سارة كوفمان/ روجي لابورت**، *مدخل إلى فلسفة جاك دريدا* (ترجمة) دار إفريقيا / الشرق، الدار البيضاء، ط.1 1991؛ ط.2 1994.

- **دريدا ، شانتلي كوفمان**، *درس الفلسفة* (ترجمة)، المغاربية إتقان، سلا، 1998.

- **جرمين تيليون**، *الحريم وأبناء العم، تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط* (ترجمة) دار الساقي، لندن/ بيروت، 2000.

- *سينما البلدان النامية، بين التهميش وتأكيد الذات* (مجموعة نصوص مترجمة)، مطبعة كوثر، الرباط 2000.

- **ماتويل ماريا كاريلو**، *خطابات الحداثة* (ترجمة)، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2001.

- **إدمون جابيس**، *أسئلة الكتابة* (ترجمة) منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2003.

- **لورنس كورنو، ألان فارنيو**، *الخطاب الديداكتيكي، أسئلته ورهاناته* (ترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

- *مدخل إلى فلسفة إيمانويل لفيناس* (نصوص مترجمة)، منشورات اختلاف، الرباط، 2003.

- **فليب جونايير**، *نحو فهم عميق للكفايات* (ترجمة) منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، 2005.

- *لغز الكفايات* (ترجمة عمل جماعي لدولز، بيرنو وآخرين)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.

- **موشال هار**، *فلسفة الجمال ، قضايا وإشكالات*، (ترجمة)، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2005.

- *نحو قراءة جديدة لتاريخ الفلسفة*، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006.

3- الأعمال الجماعية:

- *تدريس الفلسفة بالثانوي وتجديد العمل التربوي* (تأليف)، سليكي إخوان، طنجة، 2001 (منشورات مجلة وليلي، مكناس).

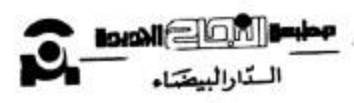
- *الكتابة السوسيولوجية عند عبد الجليل حليم*(تأليف)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز فاس، دار ما بعد الحداثة، فاس 2002.

- *الفلسفة والمدينة*، (تأليف)، منشورات وليلي، مكناس، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 2003.

- *الفنون في المنظومة التعليمية بالمغرب، وضعيات ورهانات* (تأليف) منشورات وليلي، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 2003.

- *نحو قراءة الميثاق الوطني للتربية والتكوين*، (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.

- *أسئلة الواجب والوجود الإنساني* (تأليف)، منشورات وليلي، مطبعة سندين مكناس، 2005.


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

اثنان وعشرون سنة من الاكتشاف في هذه الربوع المجهولة من 1872 إلى 1893.

روايات مهمة لرحالة مسلمين، تتعلق بالأرض والسكان والعادات والتقاليد والأعراف والمنتوجات الفلاحية والصناعية والتجارية والثروات المعدنية والغابوية والرعوية وبساكنة البلد والقوى العسكرية والإدارة واللغات والأعراف.